الكتب

وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد الثامن والثمانون. السنة السابعة. مايو ٢٠٠٦. الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 7 - Issue 88 - May 2006



سيف القوة وميزان العدل

بغداد.. الكلمة تحت السيف

محمد يوسف عدس

طهران / واشنطن.. القنبلة

بشير موسى نافع

حماس / إسرائيل.. الميزان الصعب

صالح محمد النعامى

قصور مصرية

شيرلى جونستون

المواطن يحمل السكين

أيمن الصياد

إنفلونزا الطيور

سلامة أحمد سلامة

السـنـة الثـامنـة

العـدد الثامن والثمـانون

مـايـو ٢٠٠٦

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج

أحـمـد الزيـادى

الكتب وجهات نظر

في الثقـافـة والسـياسـة والفكـر

تصدر عن:
الشـركة المصـرية
للنشـر
العـربى والـدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبـراهيـم المعـلـم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حـلـمـى التـونـى

مدير التحرير
أيـمـن الصـيـاد

محتـويات العـدد:

كتـاب العـدد:

- إلياس سحاب.. ناقد موسيقى.
- أميمة أبو بكر.. أستاذة الأدب الإنجليزى المقارن بجامعة القاهرة.
- أورفيل شيل.. صحفى - عميد كلية الصحافة بجامعة كاليفورنيا - بيركلى.
- أيمن الصياد.. صحفى.
- بشير موسى نافع.. محاضر فى التاريخ الإسلامى وتاريخ الشرق الأوسط - لندن.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- سلامة أحمد سلامة.. صحفى.
- سيف الدين عبدالفتاح.. أستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة.
- شيرلى جونستون.. كاتبة أمريكية.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- كريستوفر دو بيلاجيو.. صحفى بريطانى.
- محمد يوسف عدس.. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- محيى الدين اللاذقانى.. كاتب سورى.
- هنرى سيجمان.. الرئيس السابق للمؤتمر اليهودى الأمريكى وزميل بارز فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - أمية جحا - Petar Pismestrovic

المراسـلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٩٣٠٤٩٠/ ٢٩٣٠٤٩٢/ ٢٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشـتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر»، إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

ســــــلامة أحمـــــد ســـــلامة

أنفلونزا الطيور.. تحدى الإنسان والعلم والزمن

الطيورُ الطيور
تحتوى الأرض جثمانها.. فى السقوط الأخير
والطيور التى لا تطير
طوت الريش واستسلمت
هل ترى علمت
أن عمر الجناح قصير؟

الجناحُ حياة
والجناح ردى
والجناح نجاة
والجناح سدى

أمل دنقل

ولكن هل ترى علم الشاعر أى نوع من الردى ذلك الذى تحمله أجنحة الطير من بعيد، فتقضى على تلك التى تحلق فى السماء، أو تلك التى تطوى ريشها فى المزارع، أو على ضفاف الأنهار والبحيرات، أو فوق أسطح المنازل وباحات الدور فى الريف.. حبيسة الأقفاص والعشش والبيوت؟ أجنحة الخيال والعلم مثل أجنحة الطير قد تصنع الحياة وتنجى أصحابها من المهالك، وقد تطوى على الجهل والتخلف والمرض فيذهب كل شىء سدى..

وهذا ما يحدث حاليًا فى بلادنا، حيث يجتاح وباء أنفلونزا الطيور بكل عنفوانه أرجاء العالم بما فى ذلك مصر وبعض دول عربية، حاملاً معه الهلاك لملايين الطيور من الثروة الداجنة، والدمار الاقتصادى لاستثمارات تقدر بعشرات المليارات، وما يترتب على ذلك من بطالة وجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ومصادر الغذاء، التى يعتمد عليها الناس من مختلف الشرائح الاجتماعية، وبالأخص من بين الطبقات الفقيرة التى تسد رمقها ورمق أطفالها من الطير السابح فى ملكوت الله.

ولا يقتصر الأمر على هلاك الطيور. فالفيروس القاتل تنتقل عدواه إلى الحيوانات وإلى الإنسان الذى يخالط هذه الطيور ويقتات عليها، بعد أن يتحور الفيروس الشرس ليتخذ خواص وجينات أكثر قدرة على اختراق المناعة عند الإنسان. وأخشى ما يخشاه العلماء أن ينطلق هذا الفيروس فى تحولاته الجديدة، بعد أن يبدل أقنعته وأسلحته، ليهاجم التجمعات الإنسانية على نطاق واسع، ينذر بهلاك مئات الألوف أو الملايين من بنى البشر فى أنحاء المعمورة.

لم يكن هذا الهجوم مفاجأة لأحد. فمنذ عشر سنوات تقريبًا ظهرت طلائع الفيروس القاتل وإن ظل محصورًا فى الصين وبعض دول آسيوية. ثم لم يلبث مع شهور الصيف الماضى أن انطلق بسرعة جنونية فائقة عبر الجبال والأنهار دون أن يعبأ بالحدود والقارات والمحيطات.. يحاصر ويقتل ويهلك كل ما يلقاه فى طريقه من طيور بريئة مسالمة.. دجاجات ريفية بلهاء، أو أسراب بط ويجع يسبح فى دعة فوق سطح البحيرات، مهاجرًا بحثًا عن الدفء فى مواسم التكاثر من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب إلى الشمال. ليعبر إلى تركيا ودول البلقان ثم أوروبا الغربية، ويهاجم بشراسة مزارع إنتاج الدجاج الضخمة، التى تحقق الأمن الغذائى فى معظم دول العالم.

يطلق العلماء على هذا السفاح العالمى H5 N1 .وهو واحد من ١٥ سلالة مختلفة من فيروس أنفلونزا الطيور، مثل H5 و H7. ويقال إن العلماء حين يحارون فى تحديد مرض ما ينسبونه إلى فيروس مجهول. فالفيروسات مسئولة عن طائفة واسعة من الأمراض المعدية، ابتداء من نزلات البرد العادية إلى الإيدز (نقص المناعة المكتسبة). ومن بين ١٠٠٠ إلى ١٥٠٠ نوع من الفيروسات يوجد ٢٥٠ نوعًا تسبب الأمراض للإنسان.

ومنذ أخذت أنباء أنفلونزا الطيور H5 N1 تنتشر حول العالم، وتثير قلق منظمة الصحة العالمية والدول من احتمال وقوع كارثة إنسانية على نطاق واسع، أصيب بأنفلونزا الطيور أكثر من مائتى شخص فى أنحاء العالم، توفى منهم ١٠٥ نتيجة الاتصال المباشر بالطيور المصابة أو النافقة التى تفرز الفيروس فى مخلفاتها التى تجف وتتحول إلى غبار يستنشقه الإنسان. والأمل الوحيد فى ألا يتحول الوباء القاتل للطيور إلى وباء قاتل ينتقل بالعدوى من الإنسان إلى الإنسان، هو ألا يطرأ تحور على الفيروس H5 N1 يجعله مصدرًا لعدوى البشر. وهو ما يضع العلماء ومعامل الأبحاث فى حالة طوارئ مستمرة، تحسبًا لوقوع هذا «التحور» المخيف، الذى يمكن أن يطلق جائحة عالمية يصعب السيطرة عليها، يقدر العلماء ضحاياها لو حدثت بأكثر من ١٥٠ مليون نسمة. ويكفى أن نعرف لخطورة هذا الاحتمال أن وزارة الصحة البريطانية ذكرت فى وثيقة أذيعت مؤخرًا أنها تعاقدت بالفعل على توريد ٢٠٠ ألف كيس لنقل الجثث تحسبًا لأسوأ السيناريوهات، وذلك بعد أن عثر على بجعة واحدة ميتة قرب أدنبرة. قدر معها المسئولون احتمال انتقال العدوى منها إلى الطيور والدجاج فى المزارع المحيطة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من تداعيات تعرض حياة الإنسان للخطر.

ومثل هذه الظواهر الوبائية التى تواجه الإنسان، لابد أن تثير نوازعه العلمية لتقصى أسبابها والبحث عن الشروط التى يتحور بها الفيروس.. ولا يجد العلماء أمامهم هنا غير اللجوء إلى النظرية الداروينية فى الانتخاب الطبيعى، حيث تؤدى الأخطاء العشوائية فى تسلسل أو تكاثر الأنواع الى ظهور أجيال أكثر قدرة على التلاؤم مع بيئتها. وتبدو الفيروسات وكأنها نموذج مثالى للتطور المتسارع، إذ تتم عملياته تحت أعين الخبراء فى زمن قصير نسبيًا.

وقد اكتشف فيروس الأنفلونزا عام ١٩٣٣ على يد علماء مجلس الأبحاث الطبية فى بريطانيا. ومازال هذا المجلس يلعب دورًا جوهريًا فى مكافحة الأنفلونزا على مستوى العالم، حيث يواصل العلماء أبحاثهم فى «مركز الأنفلونزا العالمى» التابع لمنظمة الصحة العالمية ويجرى فى معاملها تحليل العينات القادمة من أنحاء العالم وتحديد سلالاتها من الفيروس. ويتم بناء على نصائح هذا المركز تطوير وإنتاج اللقاحات المضادة.

وتذكر الأدبيات الخاصة بأبحاث الأنفلونزا أنها ظهرت فى شكل وبائى فى إسبانيا عام ١٩١٨، حيث أصابت الأنفلونزا الإسبانية نحو ألف مليون شخص، أى نصف تعداد سكان العالم فى ذلك الوقت، ومات منهم نحو ٥٠ مليون شخص. وتوصل العالم البريطانى سير جون سكيل مدير معهد أبحاث الأنفلونزا بعد تحليل فيروس ١٩١٨ إلى أنه ينتمى إلى سلالة الأنفلونزا التى تصيب الطيور، ثم طرأت عليه تغيرات جينية سمحت بانتقاله من إنسان إلى إنسان.

وتتم الخطوة الحاسمة فى تحول الفيروس إلى صورته الوبائية، من خلال عملية تعرف بإعادة الفرز أو الترتيب reassortment التى يمكن أن تحدث فى حيوان أصيب بنوعين مختلفين من فيروسات الأنفلونزا، تأتلفان جينيًا لتوليد فيروس جديد. ومثل هذه العملية يمكن أن تحدث فى الإنسان أو فى كائن آخر يصاب بالنوعين معًا: فيروس الطيور وفيروس الإنسان معًا، أو أى فيروس آخر ينتقل من القطط أو الخنازير. وحينئذ يتوالد الفيروس الجديد وينتشر بسهولة بين الناس.

ويعتقد العلماء أن فيروس H5 N1 المتداول حاليًا بدأ نشاطه منذ عشر سنوات تقريبًا دون أن يطرأ تغيير جذرى مهم. وهو مازال بتركيبته الحالية حتى الآن يقتصر على الانتشار بين الطيور. صحيح أن بعض من أصيبوا به، أى نحو ٢٠٠ شخص كما ذكرناه آنفًا فى جنوبى آسيا وتركيا، مات بعضهم. كما شهدت مصر وفاة أربعة ممن أصيبوا به حتى الآن. ولكن المحقق أن جميع هذه الحالات كانت لأشخاص على احتكاك لصيق بالدواجن المصابة. كما قدر عدد

أخشى ما يخشاه العلماء أن ينطلق هذا الفيروس فى تحولاته الجديدة. بعد أن يبدل أقنعته وأسلحته. ليهاجم التجمعات الإنسانية على نطاق واسع. ينذر بهلاك مئات الألوف أو الملايين من بنى البشر فى أنحاء المعمورة

الدواجن التى نفقت بسبب الفيروس حتى الآن بنحو ٢٠٠ مليون طائر فى آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط وأوروبا.

ويلعب البط البرى دوراً تآمرياً فى تطوير ونقل فيروس H5 N1، حيث يمكن أن يصاب به وينقله إلى طيور أخرى دون أن تظهر عليه أعراض المرض أو ينفق. وهو ما يحمل على الاعتقاد بين العلماء بأن هذا الفيروس قد يستمر لسنوات طويلة قادمة قبل أن يختفى تماماً.

وطبقاً للتقارير العلمية، فمازالت الأبحاث الطبية تحاول فك شفرة هذا الفيروس وكيف يتسلل إلى الجسم وينتقل من نوع إلى نوع ومن كائن إلى آخر، سواء بالنسبة للطيور الداجنة أو بالنسبة للإنسان. وكيف يمكن تطوير العقاقير واللقاحات المضادة للإنسان والطيور. وهذا هو التحدى الحقيقى للإنسان والعلم والزمن.

يكاد يكون من المستحيل لأى بلد من البلاد أن تتفادى خطر التعرض لمثل هذا العدو الخفى، الذى يهبط من السماء أو يخرج من الأرض دون سابق إنذار. اللهم إلا باتخاذ إجراءات وقائية حاسمة يجرى تطبيقها بكل صرامة مع ظهور أول بادرة. ومثل هذه الإجراءات الوقائية يجرى الإعداد لها قبلها بوقت كاف وحساب كل تفصيلة من تفاصيلها دون أن يترك شىء للصدفة. مع إنذار وتوعية كافة شرائح المجتمع باحتمالاتها.. حتى إذا وقعت الواقعة بالعثور على أول دجاجة أو بطة أو بجعة نافقة. وتأكد من نتائج التحليل أنها نفقت نتيجة الإصابة بالفيروس المخيف، جرى على الفور تطبيق الخطط التى تتكاتف جميع الأجهزة على تنفيذها.

ومعيار الكفاءة فى مواجهة الوباء هو معيار التقدم فى إدارة الأزمة، على نحو يحد من وقوع الخسائر فى عدد الطيور النافقة والمصابة، والحيلولة دون إصابة البشر بالفيروس إصابة قاتلة. فقد يؤدى الإهمال مصحوباً بالفوضى والتقاعس والرعب إلى ضياع ثروة تقدر بالمليارات فى صناعة الدواجن. والأدهى لو اشتدت شراسة الفيروس وتحورت جيناته ليصبح مصدراً للعدوى التى تنتقل من الإنسان للإنسان. حينئذ سوف يواجه العالم أفظع السيناريوهات الافتراضية التى تفوق الخيال العلمى فى بشاعتها.

ومن هنا فإن التحدى الحقيقى الذى يواجه العلماء والخبراء والسلطات المسئولة عن الصحة العامة، والتى يهمها المحافظة على الثروة القومية من الهدر، يتركز - أولاً - على كيفية وقف انتشار الفيروس اللعين وتقليل الخسائر فى الثروة الداجنة. وكيف يمكن - ثانياً - تحصين الإنسان من انتقال العدوى إليه وعلاجه بسرعة فى حالة الإصابة أو تحور الفيروس.

وفيما يتعلق بالطيور، يتم اللجوء إلى إجراءين متلازمين للسيطرة على إصابتها بالفيروس H5 N1: الأول هو استئصال البؤر المصابة بإبادة الطيور المخالطة فيها إبادة كاملة. وحرق مخلفاتها، بعد حصار المنطقة ومنع الانتقال منها وإليها. والثانى هو تحصين القطعان التى لم تظهر الإصابات فيها باستخدام لقاحات معتمدة عالمياً وسبق تجربتها فى دول أوروبية.

ولأسباب تبدو مجهولة وإن تكن متوقعة، تباطأت الإدارة المصرية عن إهمال أو جهل فى تطبيق الإجراء الثانى وهو استخدام اللقاحات المعتمدة عالمياً، ولم تطبق الإجراء الأول فى استئصال وإبادة البؤر المصابة تطبيقاً صارماً. فلم يهتم أحد بفرض حصار أو طوق أمنى صحى حول المزارع المصابة، وهو ما كان ينبغى أن يحدث لمنع الحركة والانتقال للبشر والدواب ووسائل النقل التى تحمل الفيروس من قرية إلى قرية ومن مزرعة إلى مزرعة ومن طير نافق إلى ربة منزل جاهلة. وفرض الفساد منطقه ونظامه على اختيار اللقاحات المطلوبة للتحصين، فوقع الاختيار على لقاح صينى لم تثبت فاعليته، ليتم استيراده بالأمر المباشر بعد أكثر من ثلاثة أسابيع من ظهور الوباء، فلم ينجح إلا فى زيادة الخسائر وإطلاق حالة من الفزع.

وكانت النتيجة كارثة محققة. أوقعت خسائر بالمليارات فى بلد فقير مثل مصر. وجرى التخلص دون ضرورة ملحة من ملايين الدواجن التى تم إعدامها بغير التحقق من إصابتها. ودفعت الأسر الفقيرة التى تتعيش على تربية الدجاج وبيعه فى الريف ثمناً باهظاً.. إما بذبح ثروتها من الطيور خوفاً من الغرامة، أو احتجازها وإخفائها فى العشش أو فى غرف النوم. لتصبح مصدراً للعدوى كما حدث فى الحالات الأربع التى قضيت فى مصر. ولم يسعفها العقار الوحيد الذى أمكن التوصل إليه لعلاج الإنسان من انفلونزا الطيور وهو العقار المعروف باسم تاميفلو Tamiflu. والذى لم تنتج مصانع الأدوية كميات كافية منه لمواجهة الوباء فى حالة انتشاره على نطاق واسع.

وهنا تبدو الأهمية الحقيقية لوجود قاعدة علمية قومية قادرة على مواجهة الخطر واستباقه والقضاء عليه فى مهده.. والقاعدة العلمية هنا بمعناها الواسع. تشتمل على المعامل المتطورة لاكتشاف الفيروس وتحديد سلالته ودرجته. والخبراء المدربون الأكفاء الذين تتوافر لديهم أعلى درجات المعرفة العلمية المتقدمة فى تخصصات دقيقة، والعناصر البشرية المساعدة من فرق المكافحة والتمريض والتفتيش، والأجهزة والمعدات اللازمة للتعامل مع فيروس متوحش قادر على شن هجومه من أضعف الثغرات فى جسم الإنسان وفى جسم المجتمع، حيث تحتضن الطبقات الفقيرة فى الريف والأحياء الشعبية فى المدن أفراخها وتتعايش معها ليل نهار. فضلاً عن توافر أفضل وأسرع أساليب التخلص من نفايات الطيور النافقة ومخلفاتها وأعشاشها. والأكثر أهمية من ذلك وضع الخطط التفصيلية وإدارة المعركة ضد انتشار الوباء والعمل على احتوائه وحصره فى أضيق نطاق ممكن، والتنسيق بين عدد كبير من أجهزة الدولة، وهيئات المجتمع المدنى ووسائل الإعلام ومنظمة الصحة العالمية ومكاتبها.

وتبدو العملية شديدة التعقيد والارتباك فى الدول المتخلفة التى تفتقر إلى القاعدة العلمية لاكتشاف الفيروس والقاعدة الصناعية لإنتاج الأمصال والعقاقير المضادة. فضلاً عن الافتقار إلى الانضباط والالتزام وتحديد الاختصاصات والمسئوليات. والأكثر تعقيداً وصعوبة إذا اقترنت عشوائية التنظيم والأداء، بمستويات اجتماعية متدنية يتفشى فيها الجهل والفقر، والفساد الذى يتغذى على هشاشة الأوضاع الاقتصادية المتردية.

فإذا انتفت هذه الشروط كلها أو بعضها. فلابد أن تتجاوز الخسائر الاقتصادية والبشرية حدود الكارثة التى يصعب إصلاح نتائجها إلا على مدى زمنى ليس بالقصير. وأخطر جانب فيها هو احتمال توطن الوباء لسنوات وسنوات، بحيث يعيد إنتاج الفيروس فى موجات متلاحقة وبالأخص فى البيئات الريفية الفقيرة المتخلفة. وهذا ما حدث فى بعض دول آسيوية مثل فيتنام وبعض الأقاليم فى الصين. وما حذر الخبراء من احتمال حدوثه فى مصر ونيجيريا وبعض دول أوروبية.

لقد جاءت أزمة أنفلونزا الطيور، لتكشف عن نقاط ضعف جوهرية فى تشكيل بنية الأمن القومى المصرى وقدرته على مواجهة الكوارث والتفاعل معها، بدرجة من الكفاءة التى تحول دون إنزال خسائر فادحة فى الأموال والأنفس. ولم تستفد الإدارة المصرية من التجارب السابقة التى مرت بها فى عدد من الكوارث الأليمة، لتنشئ جهازاً إدارياً قادراً على إدارة الكارثة حين تقع. فالتفسخ الشديد والتضارب بين الوزارات والإدارات المختلفة أدى إلى تضارب فى القرارات والإجراءات وإلى عشوائية فى التطبيق. فضلاً عن عدم كفاية الأدوات والوسائل العلمية والتكنولوجية الضرورية.

ولذلك لم يكن غريباً أن تقرر منظمة الصحة العالمية أن دولاً مثل تايلاند التى تعرضت لدمار شديد بفعل أمواج المد المتلاحقة «تسونامى»، أدركت أهمية الاستعداد لمواجهة الطوارئ المدمرة، وحشدت عشرات الآلاف من عمال الصحة المدربين لتحصين الدواجن ضد الفيروس، وأشركت السلطات المحلية فى حشد الجماعات المحلية ووسائل الإعلام والتوعية. بينما كانت مصر هى الاستثناء الوحيد من لائحة الدول التى أعدت نفسها جيداً لمواجهة وباء أنفلونزا الطيور، بسبب سوء مستوى الرعاية الصحية والبيطرية. ولم تستبعد المنظمة احتمال انتشار الفيروس بسهولة قد تؤدى إلى توطنه فى مصر وانتقال عدواه إلى البشر على نطاق واسع. فالمشكلة ليست فى إدارة الأزمة ولكن فى أزمة الإدارة المصرية. ■

حمـــــــــــاس:

هنـــــــرى ســـــيجمان

لــن تتخــلى حمــاس عــن إيمانهــا بــأن فلســطين هــى وقــف دينى منحــه الله للمســلمين إلــى الأبــد. ومـع ذلـك، فـإن ذلـك الإيمـان الـعـقـائـدى لا يـسـتـبـعـد الـتـكـيـف ومــع الحقــائــق المؤقتـــة والقـــانون الــــدولى، بمـــا فـى ذلـك الوضـــع الراهــن لإســرائيل

■ ■ وفرت فورة الغضب الإسلامى تجاه الولايات المتحدة والغرب - والتى رصدها «استطلاع بيو Pew Poll» وغيره من استطلاعات الرأى - والمكاسب الأخيرة للإسلام السياسى لدى العديد من الإسرائيليين إحساسا طارئا جديدا بأنهم تحت الحصار. ومؤخرا، كتب «سيفر بلوتزكر Sever Plotzker»، وهو معلق صحفى إسرائيلى شهير، فى «يديعوت أحرونوت Yedioth Ahronoth»، أكثر الصحف الإسرائيلية انتشارا، أن الانتخابات الفلسطينية وثيقة الصلة بالظواهر المثيرة للقلق التى تنتشر الآن فى العالم العربى ويتردد صداها داخل كل بيت فى إسرائيل، وأن إسرائيل تجد نفسها الآن على بعد بوصة واحدة من بركان ناشط على خط القتال الأمامى لـ «تصادم الحضارات».

فى العراق لم تتغلب الأحزاب الشيعية فقط على المسلمين السنة بل أيضا على الأحزاب السياسية العلمانية. وفى مصر زاد تمثيل الإخوان المسلمين فى البرلمان إلى خمسة أضعافه. وفى فلسطين اكتسحت حركة حماس الانتخابات التشريعية. كما ضاعفت تصريحات الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد المتبجحة المعادية للسامية وتصميم حكومته على تطوير أسلحة نووية من المخاوف الإسرائيلية.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى

إن اسرائيل لا تواجه فقط تهديدات حماس - وهى المنظمة التى أكدت على حق المقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلى وأنكرت حق إسرائيل فى الوجود - وإنما أيضا تواجه تزايد الغضب العام فى العالم الإسلامى الكبير تجاه الغرب. عادة ما ينظر إلى تهديدات حماس وغضب العالم الإسلامى كشىء واحد. ولكن هذا الدمج مضلل بصورة خطيرة، فهو يقدم رؤية مشوشة لكل من المخاطر والفرص التى أفرزها فوز حماس فى الانتخابات مهما بدت تلك الفرص ضئيلة.

إن غضب مسلمى العالم تجاه الغرب تؤججه مهانة إخوانهم المسلمين الذين يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلى، وما يعتبره المسلمون اغتصابا - بالتواطؤ مع الغرب - لفلسطين كجزء من دار الإسلام يعتبرونه حقا أبديا لهم، وكذلك الحرب فى العراق وعواقبها، والفظائع التى جرت وما زالت فى السجون العسكرية الأمريكية، والخطط الأمريكية الزائفة لإدخال الديمقراطية إلى مناطق مختلفة من العالم. إن هذا العداء يعد دليلا على المواجهة الدينية والثقافية بين الإسلام والغرب المسيحى والتى جادل «صامويل هانتنجتون Samuel Huntington» كثيرا بأنها قد أصبحت الصدع العالمى الجديد الذى حل محل الحرب الباردة. ومن المفارقة أن الصراع الإسرائيلى العربى هو أقل التهديدين خطورة لأنه صراع سياسى فى الأساس وليس صراعا دينيا، كما أن المجتمع الفلسطينى يعد من بين المجتمعات الأكثر علمانية فى العالم العربى.

وحتى بالنسبة لحماس، فإن الشق القومى لكفاحها - والذى يتناقض مع «عالمية» الإسلام التقليدى الذى لا يعترف بحدود إقليمية داخل دار الإسلام - عادة ما ينتصر على الثوابت الدينية عندما يصطدم الاثنان. وليس ذلك فقط لأن معظم الفلسطينيين يعارضون توجهات حماس الدينية وخاصة جهودها لضبط سلوكياتهم الشخصية دينيا، وإنما - وهو الأهم - لأن حماس نفسها حركة قومية فلسطينية بقدر ما هى حركة دينية.

وردا على دعوة أيمن الظواهرى - الرجل الثانى فى القاعدة - لحماس لمواصلة الجهاد المسلح لاستعادة «كل ذرة من تراب فلسطين التى كانت أرضا إسلامية احتلها أهل الكفر»، صرح أحد مسئولى حماس بحدة أن «حماس تؤمن بأن الإسلام يختلف تماما عن أفكار الظواهرى»، وأضاف: «إن معركتنا هى ضد الاحتلال الإسرائيلى وهدفنا الوحيد هو استعادة حقوقنا وحماية شعبنا». والآن بعد أن سيطرت حماس على المجلس التشريعى الفلسطينى ومنصب رئيس الوزراء، فإن الاختلاف بين حماس والإسلام السياسى خارج فلسطين يشكل ما قد يكون فرصة لا تستطيع تقديمها لإسرائيل سوى حكومة ترأسها حماس.

وأثناء اختيار المرشحين للمجلس التشريعى الفلسطينى، تفوق - بوضوح - مرشحو حماس «الواقعيون» بقيادة إسماعيل هنية رئيس الوزراء الجديد وعبد العزيز دويق المتحدث الجديد باسم المجلس، على أولئك المعروفين بتشددهم فى حماس. بل إن العديد من المتشددين أنفسهم انتهجوا خطا أكثر اعتدالا. ويعلم الكثير من المتشددين أن حماس فازت بالانتخابات ليس بسبب تمسكها الشديد بالثوابت وإنما لأنها دخلت الانتخابات ببرنامج معتدل يتضمن حكومة نزيهة وخدمات أفضل. وفى استطلاع للرأى أجرى بعد الانتخابات، ذكر ١٪ فقط من المشاركين أن الأولوية الأولى لحماس يجب أن توجه لتطبيق الشريعة الإسلامية فى فلسطين، بينما ذكر ٧٣٪ أنهم يؤيدون اتفاق سلام مع إسرائيل وتسوية تتضمن إقامة دولتين.

وإذا ما رجحت كفة المنادين بالاعتدال فى حماس، وتحقق تعايش طويل المدى بين سلطة فلسطينية تتزعمها حماس وبين إسرائيل، فإن مغزى تلك التسوية سيكون بالفعل بعيد الأثر فى علاقات إسرائيل ليس فقط مع الفلسطينيين بل أيضا مع العالم الإسلامى الكبير. وسوف توفر موافقة حماس على مثل هذه الترتيبات «بوليصة تأمين» لإسرائيل لا تستطيع «فتح» أن تقدم مثيلا لها.

فى كتابه الأخير «ندوب الحرب وجراح السلام Scars of War, Wounds of Peace»، كتب «شلومو بن عامى»، وزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق، عن رحيل عرفات من المشهد السياسى باعتباره «كارثة» لأنه كان «الرجل الوحيد الذى يمكن لتوقيعه على اتفاق للتسوية والمصالحة يتضمن التخلى عن أحلام لا

الفرصـــــة الأخيـــــرة





يمكن تحقيقها، أن يحقق شرعية فى نظر شعبه،، وأنه أخذ شرعيته معه إلى القبر. وربما شكل دخول حماس إلى الحياة السياسية الفلسطينية إحياء لإمكانية التوصل لاتفاق إسرائيلى فلسطينى يتمتع بشرعية تقارب بالفعل - أو ربما تزيد على - الشرعية التى كان يمكن لعرفات أن يحققها.

هل من الممكن على الإطلاق أن تتحقق مثل هذه النتيجة المتفائلة؟ من المبكر جدا - على الأقل - استبعاد ذلك الاحتمال قبل أن يتضح الخط السياسى والفكرى لحكومة حماس الجديدة. لقد تلقيت مؤخرا من أحد كبار الأعضاء البارزين فى اللجنة السياسية لحماس شرحا للاتجاه المرجح لذلك الخط يتلخص فى النقاط التالية:

● هناك أعضاء فى الإدارة السياسية لحماس لا يستبعدون إجراء تغييرات جوهرية متدرجة فى سياساتهم تجاه إسرائيل وفى ميثاق تأسيس الحركة، بما فى ذلك الاعتراف بإسرائيل، بل وبإجراء تعديلات حدودية ثانوية مشتركة، وتتوقف تلك التغييرات على اعتراف إسرائيل بالحقوق الفلسطينية. ولن تقبل حماس بأقل من المعاملة بالمثل.

● لا تعترض حماس على إجراء مفاوضات مع إسرائيل، بشرط أن ترتكز تلك المفاوضات على اتفاق الطرفين على عدم قيام أى منهما بصورة منفردة بتغيير الموقف الذى كان سائدا قبل حرب ١٩٦٧، وأن المفاوضات - حين تستأنف - ستتخذ من حدود ما قبل ١٩٦٧ نقطة بداية.

● لن تتخلى حماس عن إيمانها بأن فلسطين هى وقف دينى منحه الله للمسلمين إلى الأبد. ومع ذلك، فإن ذلك الإيمان العقائدى لا يستبعد التكيف مع الحقائق المؤقتة والقانون الدولى، بما فى ذلك الوضع الراهن لإسرائيل (كل من المشكلة والحل يتوازيان مع الموقف على الجانب الإسرائيلى. فاليهود المتدينون يؤمنون أن الله وعد الشعب اليهودى بكل أرض فلسطين على مر العصور، وهم لن يقبلوا بالتخلى عن ذلك المطلب الدينى. ومع ذلك فهم مستعدون لإرجاء تحقيقه إلى عهد مسيحى يعلمه الله).

● حماس على استعداد للالتزام بهدنة طويلة تنهى كافة أشكال العنف. وهنا - أيضا - يجب أن تسود المعاملة بالمثل بالكامل، فيجب على إسرائيل أن توقف كافة الهجمات على الفلسطينيين. وإذا ما وافقت إسرائيل على الهدنة، فسوف تتحمل حماس مسئولية منع العنف الفلسطينى ومعاقبته، سواء كان مصدره الجهاد الإسلامى أو انتفاضة الأقصى أو عناصر من حماس نفسها. وتدرك حماس أنه ليس بإمكانها أن تطالب بالاعتراف بها كحكومة شرعية لفلسطين إذا لم تكن مستعدة للحفاظ على تلك الهدنة فى سياق مسئوليتها عن القانون والنظام.

● تقوم حماس - كأولوية قصوى - بإعادة إحياء المجتمع الفلسطينى عن طريق دعم سيادة القانون، واستقلال السلطة القضائية، والفصل بين سلطات مختلف أفرع الحكومة، وتأهيل ومصداقية قوى الأمن. وسوف تستهدف القضاء على الفساد الحكومى وإطلاق مبادرات اقتصادية واجتماعية جديدة تتفق مع الظروف الفلسطينية الحالية (أخبرنى مسئول حماس أن الحركة قد شكلت - قبل الانتخابات التشريعية الأخيرة - فرقًا من الخبراء لإعداد خطط تفصيلية لإعادة بناء المجتمع الفلسطينى اقتصاديا واجتماعيا. وقد ذكر أن وضع تلك الخطط موضع التنفيذ ستكون له الأولوية القصوى لدى حماس، ولكنه لم يصرح بمحتوى تلك الخطط).

● لن تسعى حماس لفرض معايير للسلوك الدينى والتقوى على الشعب الفلسطينى مثل ارتداء الحجاب أو العباءة، رغم أنها تؤمن أن هناك معايير معينة للاحتشام العام - وإن كانت لا تخضع لرقابة دينية - يجب على الجميع الالتزام بها.

تعد تلك الآراء استثنائية فقط إذا نظر إليها بصورة شاملة. ولبعض الوقت، عبر بعض معتدلى حماس الآخرين عن آراء مشابهة. وقد صرح إسماعيل أبو شنب - الذى اغتالته إسرائيل فيما بعد - أن حماس ستوقف كفاحها المسلح إذا ما كانت إسرائيل مستعدة للانسحاب الكامل من المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ وأعلنت عن جدول زمنى لذلك.

وفى العام الماضى، ذكر محمد غزال أحد قياديى حماس أن دستور حماس ليس القرآن. وقد صرح بأن «فلسطين - من الناحية التاريخية - ملك للفلسطينيين، ولكننا نتحدث الآن عن الواقع والحلول السياسية. لا أعتقد أن هناك مشكلة فى التفاوض مع الإسرائيليين». وقد ردد حسن يوسف - قيادى بحماس فى الضفة الغربية يقبع الآن فى أحد السجون الإسرائيلية - قوله: «لقد قبلنا مبدأ القبول بدولة فلسطينية داخل حدود ١٩٦٧».

وفى تصريح حديث بالغ الأهمية، ذكر إسماعيل هنية رئيس الوزراء أنه لم يوافق فقط على عقد لقاء بين الرئيس الفلسطينى محمود عباس وإيهود أولمرت، بل أضاف أنه لو استعاد محمود عباس شيئا بموافقة الشعب الفلسطينى فإن حماس سوف تغير من موقفها.

إن تلك الأفكار تتناقض تماما مع بشاعة ميثاق تأسيس حماس (فى ١٨ أغسطس ١٩٨٨) والذى يعتمد على تفسير متطرف للتعاليم الدينية الإسلامية معاد لليهود، وعلى افتراءات معادية للسامية مثل «بروتوكولات حكماء صهيون». ولم تكن نفس لغة الكراهية تلك غائبة تماما فى وثائق وتصريحات منظمة التحرير الفلسطينية فى فترة ما قبل «أوسلو». وفى المقابل، يمكن ملاحظة التشهير بالفلسطينيين الذى تقوم به بعض الجماعات اليهودية بما فى ذلك الأحزاب السياسية الإسرائيلية التى تنادى بالتطهير العرقى للسكان الفلسطينيين فى الضفة الغربية. وكما جاء فى مقال منشور لـ «هنرى كيسنجر Henry Kissinger»، فإن الرفض والتشهير سمة شائعة فى الصراع العرقى والسياسى، وكذلك الاعتدال المفاجىء للمتطرفين السابقين عند



دخولهم العملية السياسية وتحملهم مسئولية الحفاظ على مصالح من أتوا بهم إلى السلطة.

يدعى زعماء الحكومة الإسرائيلية الحالية أنه لا يمكن تحقيق السلام فى ظل حكومة فلسطينية تقودها حماس. ولكن بعض المراقبين المطلعين جيدا على تفاصيل الصراع الإسرائيلى الفلسطينى يعتقدون أنه لا يمكن تحقيق سلام دائم بين إسرائيل والفلسطينيين بدون مشاركة حماس. ومنذ ثلاث سنوات تقريبا، وقبل أن يتوقع أحد أن حماس يمكن أن تترأس السلطة الفلسطينية، كتب «إفرايم هاليفى Ephraim Halevy» الرئيس السابق للمخابرات الإسرائيلية (الموساد) يقول:

«إن حماس تمثل ٢٠٪ من المجتمع الفلسطينى. وهى تتمتع بثقل سياسى كبير لأنها جماعة فعالة ونشطة وواعية. ولذلك فإن أى شخص يعتقد أنه من الممكن تجاهل عنصر محورى فى المجتمع الفلسطينى مثل حماس هو - ببساطة - على خطأ. وكذلك فإن أى شخص يعتقد أن حماس يمكن أن تختفى بين ليلة وضحاها هو - أيضا - على خطأ. إن الرئيس محمود عباس (أبو مازن) لن يقتل الآف الفلسطينيين كى يقهر الحركات الإسلامية. أرى أن إستراتيجيتنا نحو حماس يجب أن تتسم بالقسوة الشديدة تجاه جناحها الإرهابى، بينما - فى الوقت نفسه - نرسل بإشارات إلى قيادتها السياسية والدينية بأنهم لو انتهجوا خطا معتدلا والتحموا فى نسيج المؤسسة الفلسطينية، فإننا لن نعتبر ذلك تطورا سلبيا. وأعتقد أنه فى النهاية لن يكون هناك مفر من القبول بحماس كشريك فى الحكومة الفلسطينية. وإذا ما حدث ذلك فأعتقد أنه ستكون هناك فرصة لترويضها وإضعاف قوتها التدميرية».

ومهما تعددت التفسيرات لنوايا حماس بعد توليها قيادة السلطة الفلسطينية فإن الإيحاء بأن فوزها الكاسح فى الانتخابات يعنى «نهاية» لعملية السلام، هو محض هراء. لقد ماتت عملية السلام عند انتخاب «شارون» رئيسا للوزراء عام ٢٠٠٠. وبالأحرى، فإنها قتلت بمكر مبيت أحادى الجانب عندما نفذ شارون انسحابا من غزة وفر بالمقابل غطاء لكل إجراءاته المنفردة. وقد ساعد قيامه بالانسحاب ضد رغبة المستوطنين على تحويل الانتباه عن رفضه إجراء أية مفاوضات مع الفلسطينيين.

وتستمر الإجراءات أحادية الجانب فى تحويل الانتباه عن السياسات الإسرائيلية التى صادرت نصف ما كان يعرف دائما بدولة فلسطين وتقوم بحشر السكان الفلسطينيين - الذين سيزيد عددهم قريبا على عدد السكان اليهود - فى مناطق محاصرة منفصلة إقليميا تقف شاهدا على الاستخفاف بالتعهد بإقامة دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة كما جاء فى خارطة الطريق عام ٢٠٠٣ التى أعلنت رباعيا بواسطة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى والأمم المتحدة وروسيا.

وقد استمرت الإجراءات أحادية الجانب كسياسة لحزب «كاديما Kadima» الجديد الذى أسسه «إرييل شارون» ويرأسه «إيهود أولمرت» القائم بأعمال رئيس الوزراء والذى يقوم الآن بتشكيل الحكومة الإسرائيلية القادمة. وفى الحقيقة فإن أهداف «كاديما» قد تحققت إلى حد كبير. ووفقا لصحيفة «هآرتس Haaretz»، فإن الحكومة الإسرائيلية قامت عبر السنوات القليلة الماضية بفصل الضفة الغربية بصورة شبه كاملة عن وادى الأردن الذى حولته إلى منطقة يهودية. فبعد توسع مستعمرة «محلة أدوميم» الإسرائيلية الكبيرة شرقا، وتوسع تجمعات وادى الأردن غربا، وتوسع الكتل الاستيطانية تجاه الخط الأخضر، أصبح الفلسطينيون بدون منطقة يقيمون عليها دولة.

وقد قام أولمرت ووزيرة الخارجية «تسيبى ليفنى» بقيادة الحملة الإسرائيلية الدولية لعزل وإذلال حماس ما لم تتنصل تماما من حق المقاومة المسلحة للاحتلال الإسرائيلى وتعترف بحق إسرائيل فى الوجود. ومن المفارقة أن مشروعية هذين المطلبين تكون محل شك عندما يأتيان من «أولمرت» و«ليفنى» بالذات، حيث إنهما «أمراء من حزب الليكود». ويشير ذلك المصطلح إلى الناشطين سياسيا من أبناء وبنات مؤسسى جماعة الـ «إرجون Irgun»، منظمة إرهابية يهودية كان يقودها رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق مناحيم بيجين إبان قيام دولة إسرائيل وارتكبت العديد من المذابح ضد السكان العرب، والذين يدينون - إلى حد كبير - بمراكزهم القيادية إلى تلك البنوة. وقد تميزت الـ «إرجون» بلجوئها للإرهاب فى سبيل الكفاح اليهودى لإقامة دولة إسرائيل ورفضها التام للمطالبات الفلسطينية بأى جزء من فلسطين. ومن هاتين الناحيتين، على الأقل - فإن الـ «إرجون» تشبه «حماس» إلى حد كبير.

وفى الحقيقة، فإن الـ «إرجون» - وفقا للمؤرخ «بينى موريس Benny Morris» - هى التى أرست سابقة استهداف المدنيين بصورة منهجية. وقد كتب «موريس» فى كتابه «ضحايا صالحون Righteous Victims» أن «فورة الإرهاب العربى عام ١٩٣٧ أطلقت موجة من تفجيرات الـ «إرجون» ضد تجمعات العرب وحافلاتهم، مما شكل بعدا جديدا للصراع». فبينما كان العرب فى السابق يطلقون الرصاص بصورة متفرقة على السيارات والمارة وأحيانا يلقون بقنبلة يدوية مما يؤدى عادة إلى مقتل أو جرح عدد قليل من المتفرجين أو الركاب، غير أنه الآن - وللمرة الأولى - بدأ زرع قنابل كبيرة فى مراكز تجمع العرب وجرى قتل العشرات بلا تمييز والتمثيل بجثثهم». ويلاحظ «موريس» أن «ذلك الابتكار سرعان ما وجد من يقلده من بين العرب».

بقدر علمى، لم ينتقد «أولمرت» أو «ليفنى» أنشطة الـ «إرجون» الإرهابية أو يتنصلا منها، مما يضفى على إدانتهم لحماس لمسة نفاق. وليس المقصود من ذلك أن تفجيرات حماس الانتحارية ليست بأى حال من الأحوال أقل من همجية، بالضبط كما كان استهداف الـ «إرجون» للمدنيين العرب. وإذا لم تتوقف تلك الأعمال الإرهابية فسيكون ذلك سببا كافيا لعزل حكومة حماس وإذلالها. ويعنى ذلك أن تاريخ الليكود نفسه يؤكد أن الإرهابيين يمكن أن يغيروا سياستهم لو توفر لديهم سبب للاعتقاد أن الأهداف القومية الشرعية يمكن تحقيقها بالوسائل السياسية.

لقد عوضت الحكومات الإسرائيلية افتقارها لمهارة صنع السلام بمهارة لا تبارى فى ابتكار أساليب لتحويل الانتباه بهدف خداع مواطنيها وكثيرين غيرهم بشأن نواياها الحقيقية. ومن أحدث تلك الأساليب «تحويل الكتل الاستيطانية الكبيرة»، وهى عملية لضم المستوطنات الكبيرة لإسرائيل رسميا، مع الانسحاب - فى الوقت نفسه - من مستوطنات أخرى، ومن المفترض أن يؤدى ذلك فى النهاية إلى حدود إسرائيلية دائمة مع تطبيق الحل الذى اقترحه الرئيس «بوش» بإقامة دولتين.

إن «أولمرت» القائم بأعمال رئيس الوزراء وأعضاء من وزارته يتحدثون الآن كثيرا عن هذا «التحول». إن المعلقين الإسرائيليين يعلنون الآن هزيمة المستوطنين ونهاية حلمهم فى «أرض إسرائيل الكبرى». وتعود إمكانية تحقيق كل ذلك بصورة أحادية من جانب إسرائيل إلى قيادة «أولمرت» البارعة وصعود نجم حماس، حيث لا يستطيع أحد بالتأكيد أن يدعى بأنها شريك محتمل للسلام. وكما أشار جدعون ليفى، المعلق بـ «هآرتس» فـ «بينما يشير النقاد واستطلاعات الرأى إلى تحول لليسار تؤيد فيه الغالبية إقامة دولة فلسطينية وإخلاء المستوطنات، إلا أن الخريطة السياسية الحقيقية قد اتخذت منحى حاداً نحو اليمين». إن «الإجماع الجديد» بشأن إبقاء الكتل الاستيطانية الكبيرة على الجانب الإسرائيلى من الحدود يقوم على أساس إجماع سابق مزعوم على عدم السماح بمنفذ للفلسطينيين إلى أى جزء من القدس الشرقية. والنتيجة هى المطالبة بحتمية احتفاظ إسرائيل بمناطق فلسطينية تصل إلى نصف الضفة الغربية. ويعلق «ليفى» بأن ذلك يعد فى إسرائيل هزيمة للمستوطنين وتحولاً نحو اليسار. يقول «ليفى»: «إن من يقولون أن «حلم إسرائيل الكبرى» قد تنازل لـ «تقسيم الأرض» إنما يخدعون الوطن. وينطبق الشىء نفسه على من يؤكدون أن الإسرائيليين الآن يعترفون بالحاجة إلى إنهاء الاحتلال. إن الحقيقة

أى شخص يعتقد أنه من الممكن تجاهل عنصر محورى فى المجتمع الفلسطينى مثل حماس هو - ببساطة - على خطأ. وكذلك فإن أى شخص يعتقد أن حماس يمكن أن تختفى بين ليلة وضحاها هو - أيضا - على خطأ

حـــــمـــــاس

الفرصة الأخيرة

أسـوأ مـن ذلـك بـكـثـيـر. فـالخـطـاب الإسـرائيلى مستمر فى تبنى الحلم القومـى الإسـرائيلـى الأكبر، ألا وهو الحصول على الكعكة والتهامها.

لا يوحى أى مما سبق بأنه لن يكون حتى لدى أى حكومة إسرائيلية تسعى للسلام بإخلاص المبرر للتوجس من أى سلطة فلسطينية تقودها حماس، على ضوء معارضتها الرسمية لوجود الدولة اليهودية ولجوئها - حتى وقت قريب - إلى التفجيرات الانتحارية الهمجية. ولكن وجود حكومة إسرائيلية تقدر السلام أكثر من الاستيلاء على مزيد من الأراضى لم يكن ليمهد الطريق لانتصار حماس فى الانتخابات، وهو بالضبط ما فعلته حكومة «شارون» بلجوئها للإجراءات أحادية الجانب. وكذلك فإن مثل تلك الحكومة لم تكن لتتعامل مع تلك المخاوف باللجوء للتهديد بـ «تجويع» الفلسطينيين. كان هذا الاقتراح المهين من بنات أفكار «دوف فايسجلاس» كبير مستشارى «أولمرت» وكبير مستشارى «شارون» سابقا، الذى شرح لزملائه - ساخرا - أنه إنما أراد مساعدة الفلسطينيين على إنقاص وزنهم.

وتقارن «هاآرتس» - فى مقال نشرته - بين هذا السلوك الساخر المستخف وبين سلوك حماس الذى تصفه بأنه «أكثر مسئولية» من سلوك الحكومة الإسرائيلية. يقول المقال: «يتحدث مندوبو حماس عن عهد جديد وعن التحول من الإرهاب إلى السياسة وعن استمرار مقاومة الاحتلال بوسائل أخرى وعن التطلع إلى هدنة طويلة الأمد».

وكما لو أن هناك تصميماً على تأكيد اتهامات «هاآرتس»، أعلن «آفى ديختر» الرئيس الأسبق لجهاز الأمن الإسرائيلى (الشين بيت) والنجم الحالى فى حزب «كاديما» - والمفترض أنه حزب وسطى - أنه عندما يقع العمل الإرهابى التالى فسيكون إسماعيل هنية نفسه على قائمة الأهداف المرشحة للاغتيال بواسطة قوات الدفاع الإسرائيلية. وقد زايد «شاؤول موفاز» وزير الدفاع الإسرائيلى على ذلك فأعلن بعد ذلك أن جميع عناصر حماس الأعضاء فى المجلس التشريعى الفلسطينى - وعددهم أربعة وسبعون - سيكونون أيضا مرشحين للاغتيال المستهدف.

ويعتقد الإسرائيليون - باستثناء القليل منهم - أنه إذا ما تم قبول حماس كـ «شريك للسلام» فإنها يجب أولا أن تعترف بدولة إسرائيل، حيث أقرت إسرائيل منذ وقت طويل بحق الفلسطينيين فى إقامة دولة لهم فى الضفة الغربية وغزة. ولكن ذلك غير صحيح. بل إن صحفيا واسع الإطلاع مثل «سيفر بلوتزكر» يعتقد أن هذه الكذبة تشير إلى مدى سيطرتها على خيال الإسرائيليين. ذكر «بلوتزكر» فى المقال المشار إليه أن الافتراض الأساسى الذى سيطر على الإسرائيليين منذ تفاهمات أوسلو أنه بينما قد يضطرون للتفاوض مع الشعب الفلسطينى حول الحدود والقدس، فإنهم لن يتطرقوا لحق إسرائيل الأساسى فى الوجود كدولة يهودية وحق الفلسطينيين فى الوجود كدولة فلسطينية. وطبقا لـ «بلوتزكر» فإن هذا الافتراض الأساسى قد «تزعزع تماما» الآن بعد فوز حماس.

من الواضح أنه لم يتبادر لذهن «بلوتزكر» أن التفاوض بشأن الحدود والقدس ليس مجرد مناورة بلاغية بالنسبة للفلسطينيين الذين رأوا بأنفسهم الأرض تسحب - حرفيا - من تحت أقدامهم، حيث تضيف إجراءات «شارون» الأحادية لإسرائيل مساحات واسعة مما كان مقدرا أن يكون دولة فلسطين. يؤكد «بلوتزكر» أن الشعب الفلسطينى قد سلم مقاليد الحكم - من خلال انتخابات ديمقراطية - إلى حركة تتبنى إقامة مملكة إسلامية من البحر الأبيض المتوسط وحتى نهر الأردن، يسمح فيها لليهود بالبقاء كأقلية دينية لها حقوق محدودة. ولا يعود ذلك بنا للخلف أربعة عشر عاما وإنما مائة وأربعين عاما.

الوقع أن حماس لا تطالب بمملكة إسلامية أو خلافة وفقا لرؤية «القاعدة» التى تنصلت منها حماس بكل حسم. بل أن الفلسطينيين يمكن - من واقع خبرتهم العملية منذ حرب ١٩٦٧ - أن يتبنوا رأى «بلوتزكر» استنادا إلى مبررات أقوى كثيرا مما ذكر.

لقد سلم الشعب اليهودى مقاليد الحكم - من خلال انتخابات ديمقراطية - إلى حركة تتبنى إقامة مملكة يهودية من البحر الأبيض المتوسط وحتى نهر الأردن، يسمح فيها للفلسطينيين بالبقاء كأقلية دينية لها حقوق محدودة. ولا يعود ذلك بنا للخلف أربعة عشر عاما وإنما ألف عام.

الواقع أن دولة إسرائيل قامت بتوسيع حدودها إلى أكثر من ٥٠٪ فوق ما خصصته الأمم المتحدة للدولة اليهودية عام ١٩٤٧، بينما تقلصت بالفعل المساحة المخصصة للفلسطينيين بمقدار ٦٠٪ تقريبا، بخلاف جميع المستوطنات والأراضى الأخرى التى صادرتها إسرائيل فى الضفة الغربية.

لو أعلنت حماس اعترافها بشرعية إسرائيل فقط على نصف المناطق التى شكلت الدولة اليهودية قبل حرب ١٩٦٧، فإن ذلك الإعلان لن يؤخذ بالتأكيد على محمل الجد من قبل أى جهة فى إسرائيل كاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود. ومع ذلك، فهذا تماما هو ما وجده الإسرائيليون إعلانا مقبولا من قبل حكومتهم تجاه شرعية قيام دولة فلسطينية، والذى يلزم الفلسطينيين بالاعتراف بدولة إسرائيل فى حدود ما قبل ١٩٦٧ وليس نصفها فقط، بل وأكثر من ذلك بكثير. ولذلك فقد صرح إسماعيل هنية أن الاعتراف الفلسطينى بإسرائيل سوف يتوقف على «أى إسرائيل» تتطلب الاعتراف. هل هى إسرائيل فى حدود ما قبل ١٩٦٧؟ أم هى إسرائيل التى ضمت أكثر من نصف المناطق الفلسطينية الباقية؟ وإذا كانت إسرائيل الأخيرة هى المقصودة فإن حماس لن تعترف بها. وأضاف أنه إلى أن يعرف الفلسطينيون أى الدولتين هى التى تتطلب اعترافا فلسطينيا، فليس على الفلسطينيين الاستجابة لذلك الطلب.

ما الذى هو غير منطقى فى هذا الموقف لحماس؟ ما هو الأساس الذى يستند إليه النقد الإسرائيلى والأمريكى لسياسة حماس التى تطابق تماما سياسة إسرائيل تجاه دولة فلسطينية؟ إن طرح تلك الأسئلة هو إقرار بالمبدأ الرئيسى المنظم لحكومة ترأسها حماس، وهو ليس القضاء على الدولة اليهودية، حيث ردد العديد من قادة حماس بالفعل أن تلك ليست سياسة قائمة لحماس - وهى فى جميع الأحوال فوق مقدرة حماس على تنفيذها، لأن السياسات الإسرائيلية الانتحارية هى فقط القادرة على تحقيق ذلك - وإنما سياسة حماس هى طلبها المتصلب بمبدأ المعاملة بالمثل.

إن المطالبة بالمعاملة بالمثل هو أيضا رد حماس على الشرطين الآخرين المطروحين من قبل إسرائيل للتعامل مع سلطة فلسطينية تتزعمها حماس، ألا وهما قبول كافة الاتفاقيات السابقة ونبذ العنف. ولكن من المؤكد أن الإسرائيليين لا يستطيعون تصديق أن حماس لا تدرى أن إسرائيل لم تحترم اتفاقياتها السابقة مع الفلسطينيين. وعند الحديث عن قبول إسرائيل المزعوم أمام الرئيس «بوش» وزعماء عالم آخرين لخارطة الطريق، نجد أن «شارون» أضاف دائما الشرط المقيد «وفقا لقبول الحكومة الإسرائيلية» والتى أضافت عند قبول خارطة الطريق أربعة عشر شرطا أفرغتها من نصوصها الرئيسية. فعلى سبيل المثال، تطالب خارطة الطريق بوضوح أن يبدأ كلا الطرفين فورا فى تنفيذ التزاماتهما. وهى - فى حالة إسرائيل - إنهاء الإنشاءات الاستيطانية وإزالة النقط الحدودية غير الشرعية. وهى - فى حالة السلطة الفلسطينية - القضاء على الإرهاب، بغض النظر عن قيام الطرف الآخر بتنفيذ التزاماته من عدمه. وقد تعهدت الحكومة الإسرائيلية بأنها لن تتخذ أيا من التزاماتها حتى يوقف الفلسطينيون كل أشكال العنف والتحريض ضد إسرائيل ويقوموا بـ «تفكيك البنية التحتية للإرهاب».

لقد صرح الاتحاد الأوروبى - بل والولايات المتحدة - علنا بأن مصادرة إسرائيل لمساحات واسعة من الضفة الغربية هو انتهاك للقانون الدولى وخارطة الطريق وقرارات الأمم المتحدة. لقد كانت «كوندوليزا رايس» - وليس متحدثا باسم حماس - هى التى صرحت فى مؤتمر

مهمـــا تعـــددت التفســيرات لنـوايـا حمـاس بعـد توليهـا قيـادة السلطة الفلسطينية فإن الإيحاء بأن فوزها الكاســح فى الانتخـــابات يعنى «نهاية لعملية السلام» هو محض هراء



صحفي عقب لقائها الأخير في واشنطون مع وزيرة الخارجية الإسرائيلية «تسيبي ليفني» بأن «موقف الولايات المتحدة تجاه الإجراءات الأحادية الإسرائيلية واضح تماما ولم يتغير، فلا يجوز لأي طرف أن يحاول مسبقا وبصورة أحادية تحديد نتيجة اتفاق وضع نهائي. ويجب ترك ذلك للوضع النهائي». وأضافت «رايس» أن خطاب الرئيس «بوش» إلى رئيس الوزراء «ارييل شارون» الذي يؤكد الحاجة إلى مراعاة «المراكز السكانية الجديدة» في الضفة الغربية لا يمنح ترخيصا لأي طرف كي «يسعى لتغيير تلك المراكز مسبقا بوضع اليد أو بالشفعة، حيث تترك تلك القضايا لمفاوضات الوضع النهائي».

وبالنسبة لمسألة العنف، أعلنت حماس «التهدئة» منذ عام مضى، وحافظت عليها إلى حد كبير رغم استئناف إسرائيل للاغتيالات المستهدفة التي كانت قد أوقفتها استجابة لمبادرة حماس. وقد عرضت حماس الآن التقيد بهدنة طويلة الأمد، وما زالت تنتظر الرد الإسرائيلي. وسواء سرحت حماس جناحها «الإرهابي» - كتائب عز الدين القسام - أو لم تفعل، فمن المرجح أن حماس المسئولة عن حكم ورفاهية الشعب الفلسطيني ستكون كيانا مختلفا تماما عن حماس التي تعمل ضد حكومة فلسطينية. حماس الآن هي الحكومة. وهي تدرك أنها لا تستطيع الجمع بين الحكم والعمل كقوة إرهابية في الوقت نفسه.

والحقيقة أنه لو اعترفت حماس غدا بدولة إسرائيل وفككت «بنيتها التحتية للإرهاب» فلن يكون هناك أدنى احتمال لاستئناف عملية السلام بدون ممارسة الولايات المتحدة ضغط كبير على إسرائيل، ولا يوجد احتمال يذكر لأن تمارس الولايات المتحدة مثل هذا الضغط. لقد ذهبت إسرائيل بعيدا في قراراتها أحادية الجانب بحيث أصبح من الصعب عليها إعادة الدخول فجأة في عملية سلمية تتطلب موافقة فلسطينية على أي وجود إسرائيلي مستمر في الضفة الغربية. ولن توافق حماس على عملية سلمية تتخلى عن مبدأ الموافقة الفلسطينية المنصوص عليها في الاتفاقيات السابقة والتي أعاد الرئيس «بوش» والمجلس الأوروبي التأكيد عليها ومع ذلك، فللمفارقة، ونتيجة لفوز حماس بالانتخابات، فربما زاد - بدلا من أن ينقص - احتمال التوصل لتسوية مؤقتة تتحول في النهاية إلى اتفاق بين الإسرائيليين والفلسطينيين. إن كلا من حماس والحكومة الإسرائيلية يعتقد أن مصالحهم تقتضي فترة طويلة من التعايش الصامت غير المعلن، وليس عودة متعجلة إلى عملية السلام. إن التحرر من ضغوط استئناف عملية سلام سوف يسمح لإسرائيل بمواصلة نواياها المبيتة للقيام بالمزيد من عمليات فك الارتباط الأحادية من بعض مناطق الضفة الغربية الواقعة تحت سيطرة إسرائيل، لضمان أغلبية سكانية يهودية على الجانب الإسرائيلي من الحدود. أما بالنسبة لحماس، فإن المزيد من الانسحاب الإسرائيلي سيوفر متنفسا تحتاجه حماس لاستئناف بناء المؤسسات الفلسطينية وإعادة تأهيل المجتمع الفلسطيني والحياة الاقتصادية التي دمرها الاحتلال الإسرائيلي.

بالنسبة للإسرائيليين، فإن وقفا مطولا لإطلاق النار سيكون متسقا مع إصرار «شارون» على أن مفاوضات الوضع النهائي يجب أن تسبقها ترتيبات مؤقتة طويلة الأمد. وبالنسبة لحماس، فإن وقف إطلاق النار سيتوافق مع وضعها باعتبارها ليست بعد مستعدة لأن تقدم لإسرائيل ما هو أكثر من هدنة طويلة الأمد. وكما علق مؤخرا «رامي خوري»، وهو صحفي لبناني بارز، يبدو من الممكن أنه سيكون هناك «تفاهم بين إسرائيل وحماس لا يجرؤ أحد على الحديث عنه»، كما جاء في عنوان لأحد مقالاته الأخيرة.

وإذا ما صمدت تلك الترتيبات غير الرسمية، فمن الممكن أن تؤدي بمرور الوقت إلى مفاوضات ثنائية واتفاقيات أكثر علانية وربما حتى معاهدة سلام.

ولكن ذلك لن يتحقق إلا بالتزام الطرفين بشروط عديدة. فيجب على حماس أن تطبق الهدنة التي عرضتها وأن تمنع الإرهاب ليس فقط من قبل مقاتليها ولكن أيضا من قبل الجهاد الإسلامي وكتائب الأقصى والجماعات الإرهابية الأخرى. ولكن لكي تفلح حماس في تحقيق ذلك، فعلى إسرائيل أن توقف اغتيالاتها المستهدفة وغاراتها على المناطق الفلسطينية. والأهم من ذلك، على إسرائيل أن تعلن صراحة أن الخطوط التي تنسحب إليها نتيجة لعمليات فك الارتباط أحادية الجانب التي تقوم بها ليست حدودا نهائية، وأن الحدود النهائية لن تتقرر إلا أثناء المفاوضات مع الفلسطينيين. ولو كانت لمثل هذا الإعلان أية مصداقية، فعلى إسرائيل التوقف عن توسيع وجودها في الضفة الغربية كي تؤكد أن الخطوط «المؤقتة» لا يمكن التراجع عنها.

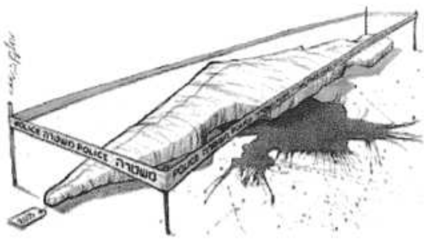
ومن المفارقة أن مثل هذه الترتيبات التي ستترك الباب مفتوحا - بعد بضع سنوات - لقرار أكثر رسمية، لن تكون - على الأرجح - ممكنة إلا في ظل سلطة فلسطينية تقودها حماس، لأن مصداقية حماس تسمح لها بتفسير قبولها لفترة تحول تتسق مع رفضها تقديم تنازلات رسمية لإسرائيل دون اعتراف الأخيرة بالحقوق الفلسطينية وبمبدأ المعاملة بالمثل. وفي الوقت نفسه، يمكن لحماس أثناء فترة التحول أن تركز على تطهير البيت الفلسطيني الذي لطخه فساد «فتح». وعلى النقيض مباشرة من إصرار «فتح» أن إصلاح مؤسسات السلطة الفلسطينية يجب أن ينتظر قيام الدولة الفلسطينية أولا، فقد أكدت حماس دائما - وكذلك الإصلاحيون الفلسطينيون غير الإسلاميين - أن وجود حكم فلسطيني نزيه ناجح هو شرط مسبق لتحقيق الأهداف القومية الفلسطينية.

ربما يتضح أن التوقعات باعتدال حماس كانت على خطأ. وإذا ما حدث ذلك فسيكون هناك من الوقت ما يكفي أمام إسرائيل والأمم الأخرى لفرض العقوبات التي - عندئذ - ستستحق تماما على حماس والسلطة الفلسطينية. ولكن التصريحات الأخيرة للعديد من قادة حماس حول أولوياتهم الجديدة تشير بقوة إلى أن هناك بالفعل تغيرات في فكرهم. فعلى سبيل المثال، صرح الدكتور نصر الدين شاعر، نائب رئيس الوزراء الفلسطيني إسماعيل هنية، لـ «هاآرتس» في ٢٧ مارس ٢٠٠٦ قائلا: «إن الحكومة الجديدة لا ترفض التنسيق والتعاون مع أي طرف - بما في ذلك إسرائيل - لحل المشاكل الروتينية». إن تسرع الحكومة الإسرائيلية في سعيها للتشكيك بمصداقية حماس وإسقاطها يقوض إمكانية معرفة الحقيقة. كما يهدد ذلك أيضا بالقضاء على أية إمكانية محتملة لتبني حماس خطا معتدلا.

وقد حذر الجنرال الإسرائيلي «شلومو بروم» الذي عمل حتى وقت قريب كنائب لمستشار الأمن القومي للتخطيط الإستراتيجي في قوات الدفاع الإسرائيلية، أنه إذا ما فشلت حكومة حماس بسبب سياسة إسرائيل لعزلها وإسقاطها، فإن الإخفاقات والصعوبات التي يعانيها السكان الفلسطينيون لن تنسب عندئذ إلى حماس بل إلى إسرائيل والغرب. والمقصود من ذلك - على الأرجح - توسيع الصدع بين الولايات المتحدة وكل من الفلسطينيين والعالم الإسلامي. ومن جهة أخرى، فإن وجود سياسة إسرائيلية وغربية للاتصال والتفاوض مع حماس قد يشجع على مزيد من التغييرات الأساسية في سياساتها و، في النهاية - في عقيدتها. وهناك ميزة كبيرة تتفوق فيها إستراتيجية الاتصال بحماس على إستراتيجية عزلها وتقويض سلطتها، ألا وهي أن إسرائيل سيكون بمقدورها - إذا ما اتضح أن سياسة الاتصال قد فشلت - أن تتحول عن تلك السياسة إلى سياسة المواجهة. أما التحرك في الاتجاه المعاكس فلن يكون ممكنا. ومن المرجح أن يكون ثمن الفشل هو القضاء على مشروع الدولتين لحل للصراع، بكل ما يحمله ذلك لمستقبل الدولة اليهودية التي تقع ضمن منطقة ربما يقع فيها «صدام للحضارات». ■

لقد عوضت الحكومات الإسرائيلية افتقـارها لمهـارة صنع السـلام بمهـارة لا تبارى في ابتكار أساليب لتحويل الانتباه بهدف خـداع مواطنيهـا وكثيـرين غيـرهم بشـأن نواياهـا الحقيقيـة





إسرائيل: خطة "الانطواء"!

صالح محمد النعامى

انهيار «الليكود» بهذا الشكل المدوى، عجل بنشوب حرب وراثة، هدفها الإطاحة بنتنياهو، إذ اتفق معظم قادة الحزب على أنه يتوجب عزل نتنياهو الذين اعتبروه المسؤول عن خسارة الحزب

على الرغم من أن نتائج الانتخابات البرلمانية الإسرائيلية الأخيرة قد أفضت إلى تغيير الخارطة الحزبية فى الدولة العبرية بشكل واضح، إلا أن هذه النتائج لم تمنح تفويضاً واضحاً وجازماً لحزب بعينه لتطبيق برنامجه السياسى، الأمر الذى ينذر بمحدودية هامش المناورة أمام أى حكومة ستشكل فى الدولة العبرية. لقد أدت هذه الانتخابات إلى دخول أحزاب لأول مرة البرلمان، فى حين تهاوت أحزاب كبيرة لتصبح أحزاباً هامشية، فى الوقت التى لم تنجح أحزاب ذات ثقل فى تجاوز نسبة الحسم. ونحن هنا سنحاول الإجابة على عدد من الأسئلة المحورية المتعلقة بنتائج هذه الانتخابات. فما الذى أدى إلى هذه الانقلابات فى الخارطة الحزبية الإسرائيلية، وما هى سيناريوهات تشكيل الحكومة القادمة فى ظل نتائج الانتخابات، وما مدى استقرار مثل هذه الحكومة؟ وكيف ستؤثر نتائج الانتخابات على مستقبل التسوية، وعلاقات إسرائيل مع الشعب الفلسطينى ومحيطها العربى والدولى؟ وكيف عكست نتائج الانتخابات الاستقطاب الاثنى فى المجتمع الإسرائيلى؟

الانقلابات الحزبية وأسبابها

من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها عادة معظم الذين يتناولون الشأن الحزبى الإسرائيلى أنهم يصنفون هذه الأحزاب كأحزاب يمين ووسط ويسار دون أن تعكس منطلقات هذه الأحزاب دلالات هذه المصطلحات المتعارف عليها فى العالم. فمثلاً، من ناحية البرامج الاقتصادية الاجتماعية نجد أن برامج أحزاب اليسار فى إسرائيل وبخلاف ما هو عليه الحال فى أحزاب اليسار فى أرجاء العالم تنادى باقتصاد السوق وغيرها من السياسات الاقتصادية الليبرالية. ومن ناحية سياسية، نجد أن أحزاب يسار الوسط واليسار تتبنى مواقف متطرفة فى تصورها للتسوية مع الشعب الفلسطينى، فحزب العمل الذى يمثل يسار الوسط ينادى بضم التجمعات الاستيطانية الكبرى فى الضفة الغربية للدولة العبرية، فى حين أن حركة «ياحد»، التى تمثل أقصى اليسار الصهيونى تنادى بالإبقاء على القدس المحتلة كعاصمة «موحدة وأبدية» للدولة العبرية. هذه المقدمة ضرورية قبل الخوض فى قراءة نتائج الانتخابات لاستيعاب دلالاتها وتداعياتها.

لقد حل حزب «كاديما» بزعامة رئيس الوزراء إيهود أولمرت فى المرتبة الأولى بين الأحزاب من حيث عدد المقاعد وحصل على (٢٩ مقعداً)، وهو عدد متدن مقارنة بما قد توقعته له استطلاعات الرأى قبل شهر من الانتخابات، حيث توقعت هذه الاستطلاعات أن يحصل هذا الحزب على ٤٠ مقعداً على الأقل. لقد خاض «كاديما» هذه الانتخابات لأول مرة بعد أن قام رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق أرئيل شارون بالانشقاق عن حزب «الليكود»، بعد أن تبين له أن معظم نواب الحزب يرفضون خطة « فك الارتباط»، وبعدما شعر أن هناك من يسعى للإطاحة به من زعامة الحزب ورئاسة الوزراء، وشكل هذا الحزب، الذى انضم له فيما بعد عدد من قادة حزب العمل أبرزهم زعيم الحزب السابق شمعون بيريس وحاييم رامون وداليا اتسيك، وعدد من الساسة المنتمين للأحزاب الأخرى. وإن كان فى حكم المؤكد أن أولمرت هو الذى سيشكل الحكومة القادمة، إلا أن مهمته ستكون شاقة وقاسية جداً، إذ أن حصول الحكومة على ثقة البرلمان يوجب أن يدعمها ٦١ نائباً على الأقل، وهذا يعنى أن «كاديما» سيحتاج للائتلاف مع عدد كبير من الأحزاب ذات الأجندة المتعارضة والمتناقضة من أجل أن تحظى الحكومة القادمة بتأييد أغلبية مستقرة فى البرلمان، الأمر الذى يعنى أن هامش المناورة أمام أولمرت سيكون محدداً للغاية. فى نفس الوقت فإن ضمان استقرار هذه الحكومة وبقائها لمدة أربع سنوات أخرى سيكون محل شك كبير بغض النظر عن الأحزاب التى ستنضم إليها، وذلك بسبب التباينات الكبيرة بين هذه الأحزاب. وواضح تماماً أن حصول حزب «كاديما» على العدد الأكبر من المقاعد يدل على تأييد قطاع كبير من الإسرائيليين للخطوات أحادية الجانب التى وعد بها الحزب على صعيد العلاقة مع الشعب الفلسطينى، سيما خطة «الانطواء» التى أعلن عنها أولمرت، لكن هذا التأييد لم يكن كبيراً كما كان يراهن أولمرت، الأمر الذى سيضطره للتحالف مع أحزاب تعارض أو تتحفظ على هذه الخطة، وهذا ما سيعقد فرص تطبيق هذه الخطة. وهناك من يعزى عدم حصول حزب «كاديما» على عدد أكبر من المقاعد، إلى قضايا الفساد التى أثيرت ضد زعيم الحزب أولمرت وعدد من قادته، سيما الوزير تساحى هنغبى.

١- من ناحية ثانية لا خلاف على أن الخاسر الأكبر فى هذه الانتخابات كان حزب «الليكود»، فهذا الحزب الذى كان الحزب الأكبر فى البرلمان السابق، ويهيمن على أربعين مقعداً (ثلث عدد مقاعد الكنيست)، تراجع ليحصل على ١١ مقعداً فقط.

ومن المؤكد أن انهيار «الليكود» بهذا الشكل المدوى، عجل بنشوب حرب وراثة، هدفها الإطاحة بنتنياهو، إذ اتفق معظم قادة الحزب على أنه يتوجب عزل نتنياهو الذين اعتبروه المسؤول عن خسارة الحزب، وقد تشكل حلف مكون من الوزراء السابقين، أبرزهم: سيلفان شالوم وليمور ليفنات ودانى نافيه ويسرائيل كاتس للعمل بشكل واضح وعلنى للإطاحة

التجربة دلت أن شاس عندما تقع ساعة الاختبار فى كل ما يتعلق بالاتفاقيات السياسية أو الخطط أحادية الجانب، فإنها تترك الحكومة بسرعة. فقد عارضت «شاس» اتفاقيات أوسلو، كما أن شاس كانت معارضة قوية لخطة «فك الارتباط»

بنتنياهو واقصائه من زعامة الحزب. النتيجة ذات الدلالة أن جمهور حزب الليكود وجمهور الناخبين الإسرائيليين بشكل عام عاقب نواب الليكود الذين عارضوا خطة «فك الارتباط»، وتحدوا زعامة شارون، وهم الذين أطلق عليه «المتمردون»، حيث أن معظم هؤلاء النواب لم ينجحوا فى الاحتفاظ بمقاعدهم فى البرلمان الجديد.

من ناحية ثانية تراجع تحالف لأحزاب اليمين المتطرف المكونة من حزب الاتحاد الوطنى وحزب «المفدال»، من عشرة مقاعد إلى تسعة مقاعد. مع العلم أن جمهور هذا التحالف محسوب عموماً على التيار الدينى الصهيونى، الذى ينتمى إليه معظم المستوطنين فى الضفة الغربية. وهذا يعنى أن المستوطنين وقيادتهم السياسية تلقوا ضربة قوية وقاسية ومحرجة، إذ أن هذه النتيجة دلت على البون الشاسع الذى يفصل قيادة المستوطنين عن أغلبية الإسرائيليين. دلت هذه النتائج على أن اليمين الإسرائيلى الكلاسيكى الذى يمثله الليكود وتحالف المفدال و«الاتحاد الوطنى»، والقائم على الرفض المطلق لإخلاء أى مستوطنة فى الضفة الغربية فشل فى إقناع الجمهور الإسرائيلى بوجهة نظره هذه فشلاً ذريعاً. وبات فى حكم المؤكد أن هناك جمهوراً إسرائيلياً واسعاً وعريضاً يؤيد القيام بخطوات أحادية الجانب تقوم على إخلاء بعض المستوطنات من أجل الاحتفاظ بأغلبية هذه المستوطنات، كما ينادى بذلك حزب «كاديما»، ويتساوق معه فى ذلك حزب «العمل»، وإن كان هذا التأييد ليس حاسماً، كما عبرت عن ذلك نتائج الانتخابات. ومقابل انخفاض قوة التيار الدينى الصهيونى، فقد عزز التيار الدينى الأرثوذكسى الذى يتكون من حركتى «شاس» و«يهدوت هتوراة»، من قوته فى البرلمان الجديد، حيث زاد تمثيل هذا التيار بنائبين. من ناحية ثانية حافظ حزب العمل على تمثيله فى البرلمان، ومع ذلك فإن هذه النتيجة تعتبر إنجازا لزعيم الحزب عمير بيريتس، حيث إن الحزب حقق هذه النتيجة على الرغم من انسحاب أحد ابرز مؤسسيه وزعيمه السابق شمعون بيريس ومعه عدد من أبرز قادته. ولا شك أن النتيجة التى حصل عليها حزب «المتقاعدين»، الذى سيمثل لأول مرة فى الكنيست قد مثلت مفاجأة كبيرة ومدوية، بعد أن فاز الحزب بسبعة مقاعد. ولا يختلف اثنان من علماء الاجتماع السياسى على أن النتيجة التى حصل عليها هذا الحزب تمثل احتجاجاً على السياسات الاقتصادية الاجتماعية التى اتبعتها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة فى العقدين الأخيرين والتى عمدت إلى تقليص مخصصات الضمان الاجتماعى للطبقات الضعيفة، وضمنها المتقاعدين، مع العلم أن مستوى الحياة المرتفع فى الدولة العبرية زاد من متوسط عمر الإسرائيليين، الأمر الذى أوجد عدداً كبيراً من المتقاعدين، حيث يصل عددهم إلى ٧٥٠ ألف متقاعد، وهذا عدد كبير جداً مقارنة بالعدد الإجمالى للإسرائيليين. وإن كان هذا الحزب قد حقق مفاجأة بدخوله بهذه الزخم إلى البرلمان الجديد، فإن حزب «شينوى» الذى يمثل التيار العلمانى الليبرالى، والذى كان يعتبر ثالث أكبر حزب فى البرلمان السابق وكان ممثلاً بخمسة عشر نائباً، قد فشل فى تجاوز نسبة الحسم، ولم يعد ممثلاً بأى نائب فى البرلمان الجديد.

أما أقصى اليسار الصهيونى الذى يمثله حزب «ياحد»، فقد تقلص من خمسة مقاعد إلى أربعة، وهذه تمثل ضربة قوية لزعيم الحزب يوسى بيلين. وهذا يعنى أن يسار الوسط واليسار الصهيونى ممثل فقط بـ ٢٣ نائباً فقط فى البرلمان، وهذا عدد نواب حزبى «العمل» و«ياحد»، الأمر الذى يعنى أن هذا اليسار لم يعد بديلاً جدياً فى التنافس على السلطة فى الدولة العبرية. بالنسبة للأحزاب العربية، فقد زادت من قوتها بشكل واضح، وارتفعت من ثمانية مقاعد إلى عشرة، وجاءت هذه النتيجة بعكس كل التوقعات، وهذا يدل على أن الأحزاب الصهيونية فشلت عملياً فى إقناع فلسطينيى ٤٨ بالتصويت لها كما كان يحدث فى الانتخابات السابقة. ومما لا شك فيه أنه كان بإمكان هذه الأحزاب أن تحصل على عدد أكبر من المقاعد لو اتحدت.

سيناريو تشكيل الحكومة

على الرغم من أن حزب «كاديما» الذى وجد من العدم قد فاز بأكبر عدد من المقاعد فى الانتخابات الأخيرة، إلا أن هذا العدد (٢٩ مقعداً) لم يكن كافياً لمساعدة زعيم الحزب إيهود أولمرت لتشكيل حكومة مستقرة، حيث إن هامش المناورة أمامه بات محدوداً جداً. فلو تحقق ما كانت تتوقع استطلاعات الرأى من حصوله على ٤٠ مقعداً لكان بالإمكان القول أن أولمرت عندها سيشكل الحكومة التى يرى أنها الأنسب لتنفيذ مخططاته السياسية ذات البعد الاستراتيجى، وبالظروف الائتلافية التى يراها مناسبة. ومع ذلك، فإن الاعتبار الأهم من بين اعتبارات هامة أخرى، الذى على أساسه يمكن لأى حزب أن يشارك فى الحكومة، هو القبول بخطة «الانطواء» التى سنناقشها لاحقاً.

يعى أولمرت أن الشريك الطبيعى له فى تنفيذ خطة الانطواء هو حزب العمل، وهنا يتوجب أن نذكر أن الشروط التى وضعها زعيم حزب العمل عمير بيريتس قبل الانتخابات لانضمامه لحكومة بزعامة أولمرت لا تتضمن اى شرط سياسى، بل يتضمن شروطاً ذات علاقة بما يزعم بيريتس أنه «ثورة اجتماعية»، ولعل أبرز هذه الشروط رفع مستوى الحد الأدنى للأجور إلى ألف دولار، وغيرها من الشروط الاقتصادية الاجتماعية. ويعتبر حزب المتقاعدين أيضاً شريكاً طبيعياً فى حكومة أولمرت القادمة، لأن هذا الحزب لا يضع اى شروط سياسية لمشاركته فى الائتلاف، وتنحصر مطالبه في المجال الاقتصادى الاجتماعى، وتحديداً حرصه على تضمين السياسة الاقتصادية للحكومة بنوداً لضمان حقوق للمتقاعدين. وواضح تماماً أن أولمرت سيكون مجبراً للاستعانة بالأحزاب الأرثوذكسية الممثلة فى البرلمان، وهى حركة «شاس» ١٢ مقعداً، وحزب «يهدوت هتوراة»(٦ مقاعد)، أو على الأقل أحدها، مع العلم أن حركة «شاس» و«يهدوت هتوراه»، ذوات توجهات يمينية متطرفة فى كل ما يتعلق بالتسوية مع الفلسطينيين، ولكن هذين الحزبين لهما مصالح خاصة، حيث إنهما بشكل تقليدى استغلا وجودهما فى الحكومات الإسرائيلية من أجل تحويل الدعم المالى لمؤسساتهما التعليمية والدينية. فى حال انضمام هذين الحزبين إلى ائتلاف يضم كاديما والعمل والمتقاعدين و«ياحد»، يصبح عدد النواب الذين يدعمون الحكومة القادمة ٧٧ نائباً، وهذا من ناحية نظرية ائتلاف مستقر. لكن هناك مشكلتين ستواجهان مثل هذا الائتلاف. فأولاً: بسبب الاختلاف على طبيعة العلاقة بين الدين والدولة بين الأحزاب الأرثوذكسية من جهة وبين حزب «ياحد»، فإنه سيكون من الصعب جداً على «ياحد» أن يسلم بعدم تضمين برنامج الحكومة بنوداً تكسر «الوضع القائم» (statuse que)، فى العلاقة بين الدين والدولة، وهذا ما لم يمكن أن تقبله الأحزاب الأرثوذكسية. الأمر الذى يعنى أنه سيكون من الصعب أن نتصور أن يكون حزب «ياحد» شريكاً فى ائتلاف مع الأحزاب الأرثوذكسية. المشكلة الثانية تكمن فى أن حزب العمل وبسبب الفارق البسيط فى عدد المقاعد بينه وبين حزب كاديما (١٠ مقاعد)، فانه سيطالب بحقيبتين سياديتين كبيرتين من الثلاث الهامة (الخارجية، المالية، الدفاع). لكن لما كان حزب كاديما يصر على الاحتفاظ بحقيبة المالية، فإن الحقيبة الكبيرة التى يبدى أولمرت استعداده لتسليمها لحزب العمل ستكون وزارة الدفاع. وفى حال قبول حزب العمل تولى وزارة الدفاع، فإنها ستكون من نصيب زعيم الحزب عمير بيريتس، وهذا يعنى أنه ستكون هذه المرة الأولى التى تتولى شخصية مدنية منصب وزير المالية. وحتى لو اكتفى حزب العمل بوزارة كبيرة واحدة، فإن هذا يعنى أن أولمرت سيجد نفسه فى مشكلة مع قادة حزبه، الذين يتطلعون إلى تبوؤ مناصب هامة فى الحكومة الجديدة.

وتبقى هناك مشكلة أمام أولمرت فى ضم حزب شاس، إذ أن التجربة دلت أن شاس عندما تقع ساعة الاختبار فى كل ما يتعلق بالاتفاقيات السياسية أو الخطط أحادية

المتحمسون لخطة «الانطواء» يرون أن فوز حماس يمثل حدثا إيجابيا لإسرائيل لأن الدولة العبرية أصبحت حرة فى أن تحدد حدودها وحدها، كما فعلت فى قطاع غزة



إسرائيل: خطة "انطواء"!

الجانب، فإنها تترك الحكومة بسرعة، فقد عارضت «شاس» اتفاقيات أوسلو، كما أن شاس كانت معارضة قوية لخطة «فك الارتباط». من هنا فإن العديد من مقربى أولمرت يحذرون من ضمها للحكومة، ويوصون بدلاً منها بضم حزب «إسرائيل بيتنا» بقيادة افيجدور ليبرمان. لكن أولمرت من ناحيته لا يريد المجازفة بالاستغناء عن أى حزب سياسى وذلك من أجل ضمان استقرار ائتلافه الحاكم. من هنا فإنه أصبح فى شبه المؤكد أن حكومة أولمرت ستضم أيضاً حزب «إسرائيل بيتنا» الذى يعتبر أكثر الأحزاب اليمينية تطرفاً، وهو الذى يطالب بالتخلص من فلسطينيى ٤٨ عن طريق مبادلة الأراضى التى يعيشون عليها فى إسرائيل بالتجمعات الاستيطانية، بحيث تحول الأراضى التى يعيشون عليها إلى الكيان الفلسطينى المستقبلى، مقابل ضم التجمعات الاستيطانية فى الضفة لإسرائيل. صحيح أن هذا الحزب يعارض خطة «الانطواء»، لكن بسبب توجهات هذا الحزب الاثنية فإنه سيقبل بالتعايش مع هذه الخطة، فى حال منح زعيمه ليبرمان ما يمكن أن يقدمه لليهود الروس كإنجاز.

خطوات أحادية

وواضح تماماً أن أى ائتلاف حاكم بزعامة إيهود أولمرت سيكون ملزماً بتنفيذ خطة «الانطواء» التى أعلن عنها أولمرت عشية الانتخابات. وتنص الخطة على ضم معظم المستوطنات اليهودية التى أقيمت بعد العام ١٩٦٧، والتى تنتظم فيما يعرف بالتجمعات الاستيطانية الكبرى رسمياً للدولة العبرية، وإسدال الستار على أى فرصة للتباحث حولها فى أى تسوية سياسية مستقبلية. إلى جانب ضم منطقة «غور الأردن» التى تمثل حوالى ٢٥٪ من مساحة الضفة الغربية، وضم المناطق التى تحتوى على مصادر المياه العذبة، سيما فى جنوب الضفة الغربية، ناهيك عن استكمال تهويد القدس المحتلة ومضاعفة مساحتها عبر ربطها بالمستوطنات اليهودية المجاورة، سيما مستوطنة «معاليه أدوميم» التى تعتبر أكبر مستوطنة فى الضفة الغربية. وقد وعد أولمرت بأن تكون أول مرحلة من مراحل هذه الخطة بناء ٣٥٠٠ وحدة سكنية فى المنطقة التى تفصل القدس المحتلة عن «معاليه أدوميم». الأمر الأكثر خطورة فى هذه الخطة هو أن أولمرت لا يكتفى بالأراضى الفلسطينية الشاسعة التى التهمها جدار الفصل العنصرى، بل يؤكد أن هناك حاجة لزحزحة مساره نحو الشرق ليضم المزيد من الأراضى الفلسطينية، وجنوباً ليضم ما تبقى من مناطق تحتوى على مصادر المياه العذبة. أولمرت أعد ما يعتبره مسوغات منطقية لتنفيذ هذه الخطة. فهو يدعى أنه يقدم على تنفيذ هذه الخطة لأنه بعد فوز حركة حماس لم يعد هناك ثمة شريك فلسطينى يمكن التوصل معه إلى تسوية سياسية. وهذا الزعم يثير سخرية حتى جميع المعلقين فى الدولة العبرية، الذين يؤكدون أن خطة «الانطواء» كانت جزءاً من الخطوات أحادية الجانب التى اتفق عليها كل من أولمرت وسلفه أرئيل شارون فى منتصف العام ٢٠٠٣، حتى قبل أن يخطر على بال أحد فى الساحة الفلسطينية تنظيم انتخابات تشريعية. وأعلن أولمرت بشكل لا يقبل التأويل أن انضمام الأحزاب الأخرى للحكومة سيعتمد على موقفها من خطة «الانطواء». أولمرت وبمعزل عن المتغيرات فى الساحة الفلسطينية توصل إلى قناعة مفادها أن على الدولة العبرية أن تستعيض عن التسوية الثنائية مع السلطة الفلسطينية بخطوات أحادية الجانب لضمان تحقيق خارطة مصالحها الإستراتيجية، وكان هذا المنطق وراء قيام اولمرت بحث ارئيل شارون على تنفيذ خطة «فك الارتباط» فى قطاع غزة، وشمال الضفة الغربية.

إن هذه الخطة قد أحدثت انقسامات داخل النخب الحاكمة فى الدولة العبرية، فهناك من أثنى على توجهات أولمرت وحثه على المزيد من الخطوات أحادية الجانب، وهناك من اعتبرها تضر بإسرائيل. فالمتحمسون لخطة «الانطواء» يرون أن فوز حماس يمثل حدثاً إيجابيا لإسرائيل لأن الدولة العبرية أصبحت حرة فى أن تحدد حدودها وحدها، كما فعلت فى قطاع غزة، من غير أن تعالج قضية اللاجئين، أو القدس أو قضايا أخرى، لأن أحداً فى العالم لا يمكن أن يعتقد أن إسرائيل بإمكانها مناقشة هذه القضايا مع حكومة بقيادة حركة حماس. ويحث هؤلاء أولمرت على تسريع وتيرة الفصل الديموغرافى بين الفلسطينيين واليهود، كما تنص خطة «الانطواء»، حيث إن الدولة العبرية ستكون قادرة على إغلاق حدودها إغلاقا تاماً، أمام العمال الفلسطينيين. لكن هناك من الدوائر المرتبطة بصنع القرار من يتحفظ على هذه الخطة، على اعتبار أن الخطوات أحادية الجانب تعنى أن مستقبل الصراع سيظل مفتوحاً على كل الاحتمالات. وينصح هؤلاء ومن ضمنهم متان شتينبرغ كبير المستشرقين فى جهاز المخابرات الإسرائيلية العامة، الذى يرى أن إسرائيل بدلاً من الخطوات أحادية الجانب بإمكانها القيام بخطوة كبيرة تمثل دق إسفين بين حركة حماس والشعب الفلسطينى. وحسب رأيه فإن إسرائيل بإمكانها وضع الحكومة والمجتمع الفلسطينى أمام اختيار صعب فى حال قامت ببلورة خطة إسرائيلية للتسوية تقوم على خطة الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون. ويرى أن مثل هذه الخطوة ستسمح بدق إسفين بين حماس وفتح وبين حماس وبين الشعب الفلسطينى. ويضيف أن مثل هذه الخطة ستدفع أزمة انتصار حماس إلى السطح. ويشدد شتينبرغ على أن إسرائيل مطالبة بالعمل على توضيح الفوارق والتباينات فى المجتمع الفلسطينى وليس طمسها، منوهاً إلى أن ذلك سيتيح لأبو مازن إبداء المرونة ويوفر الشروط لإحداث تغيير فى نتائج الانتخابات القادمة الفلسطينية القادمة. بالطبع واضح تماماً أن الخطة التى تنوى الحكومة القادمة تطبيقها تهدف إلى تصفية القضية الوطنية الفلسطينية بكل ما تعنى هذه الكلمة، وإصرار أولمرت على جعل خطة «الانطواء» الهدف الرئيسى لحكومته القادمة يعنى أن إسرائيل تسارع إلى حسم الحقائق بزعم غياب الشريك الفلسطينى.

مناورات إسرائيلية

واضح تماماً أن الائتلاف الحاكم القادم فى إسرائيل سيستفيد فى المناورة أمام الفلسطينيين من الآتى:

١- فوز حركة حماس فى الانتخابات التشريعية، وتشكيل الحركة للحكومة الفلسطينية سيساعد الحكومة الإسرائيلية القادمة فى القيام بمناوراتها السياسية وعملياتها العسكرية ضد الفلسطينيين. فالحكومة الإسرائيلية القادمة، وكما تفعل الحكومة الحالية، ستدعى أنه بفوز حماس وتشكيلها الحكومة لم يعد هناك شريك لإسرائيل فى الجانب الفلسطينى، الأمر الذى يعتبر مسوغاً لتنفيذ المزيد من الخطوات أحادية الجانب، وعلى رأسها خطة «الانطواء». مع العلم أن الدولة العبرية شرعت فى الخطوات أحادية الجانب قبل فوز حماس. لكن الذى يساعد إسرائيل فى استغلال فوز حماس، هو الحساسية الكبيرة التى قابلت بها معظم دول العالم فوز حماس، ومن ضمنها العديد من الدول العربية ذات الدور المحورى فى المنطقة. والشروط التعجيزية التى تضعها حكومة أولمرت على حكومة حماس مقبولة حتى على العديد من الدول العربية. لكن أكثر من ذلك فأنها مقبولة على العديد من الأطراف الفلسطينية، وضمنها الرئيس محمود عباس، الأمر الذى يعى أن قدرة الحكومة القادمة على المناورة فى العلاقة مع الفلسطينيين ستكون سهلة.

٢- ستصعد الحكومة الجديدة من قمعها للشعب الفلسطينى، وذلك بفعل طبيعة الأحزاب المشاركة فيها، إلى جانب وجود مناخ دولى متعاطف ومؤيد لإسرائيل فى ردها على عمليات المقاومة المنطلقة من قطاع غزة، حيث إن العمل المقاوم انطلاقا من غزة لا يحظى بالتفهم الدولى بعد تنفيذ خطة «فك الارتباط»، وتفكيك المستوطنات هناك.

٣- لا شك أن انضمام حزب العمل لحكومة أولمرت ووجود شمعون بيريس فى هذه الحكومة تحديداً سيساعدها فى إحداث المزيد من الاختراقات فى الساحتين الدولية والعربية، فى ظل تشتت المواقف الفلسطينية والعربية والإسلامية. وليس من المستبعد أن تشهد عملية التطبيع بين دولة الاحتلال والعديد من الدول العربية انطلاقة، بفعل وجود حزب العمل وبيريس.

ستُصعِّد الحكومة الجديدة من قمعها للشعب الفلسطينى، وذلك بفعل طبيعة الأحزاب المشاركة فيها، إلى جانب وجود مناخ دولى عاطف ومؤيد لإسرائيل فى ردها على عمليات المقاومة المنطلقة من قطاع غزة

مجرمو الحرب فى الكنيست

تميزت الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة بشكل خاص بنجاح عدد من أشهر الجنرالات فى مجال قمع الشعب الفلسطينى فى دخول البرلمان الجديد. ولعل ابرز هؤلاء كان بلا شك افى دختر الذى حل فى المكانة الرابعة فى قائمة حزب «كاديما»، وهو رئيس جهاز المخابرات الإسرائيلية «الشاباك» السابق، وهو مرشح لتولى منصب وزير الأمن الداخلى فى الحكومة الإسرائيلية القادمة. ديختر لا يفوت فرصة دون التباهى بما يعتبره أهم «إنجازاته»، وهو تكريس عمليات الاغتيال لتكون أهم مركب فى الجهد الأمنى الصهيونى فى مواجهة حركات المقاومة. بل إن ديختر يحرص على تذكير كل من يستمع إليه بدوره فى تطوير الوسائل المعتمدة فى تنفيذ عمليات الاغتيال، سيما توظيف الطائرات بدون طيار فى تنفيذ عمليات الاغتيال. ليس هذا فحسب، بل إن ديختر لا يتردد فى الاعتراف بأنه يتلذذ برؤية الأطفال الفلسطينيين وهم يعانون من القمع الإسرائيلى. وكان شارون قبل مرضه قد «طمأن جمهوره إلى أن ديختر هذا سيكون وزير الدفاع فى الحكومة التى سيشكلها بعد الانتخابات. ويذكر أن محكمة أمريكية تدرس طلباً لإلقاء القبض على ديختر بسبب سجله فى عمليات القتل والإعدام بدون محاكمة. وإلى جانب ديختر، نجح جدعون عيزرا النائب الأسبق لرئيس «الشاباك»، والذى شغل فى حكومة اولمرت السابقة منصب وزير الأمن الداخلى، فى دخول البرلمان. وكان يطلق على عيزرا هذا فى إسرائيل «رئيس محكمة العالم السفلى» بسبب ارتباطه بعمليات الإعدام الميدانى التى قامت بها المخابرات الإسرائيلية ضد نشطاء حركات المقاومة الفلسطينية بعد وقوعهم فى الأسر. وعيزرا هو الذى نادى بقتل ذوى منفذى العمليات الاستشهادية على اعتبار أن هذا عامل ردع يمكن أن يساهم فى وقف العمليات الاستشهادية. وسيضم الكنيست الجديد شاؤول موفاز وزير الحرب الذى يؤكد للجمهور الإسرائيلى أنه بإمكانه أن يركن إليه فى «تأديب» الفلسطينيين والعرب، وهو متحمس كبير لعمليات القمع، ومن المتوقع أن يواصل الإمساك بحقيبة الدفاع فى الحكومة الجديدة. ويعتبر الجنرال رافى ايتان رئيس حزب المتقاعدين الذى فاز بسبعة مقاعد فى الانتخابات الأخيرة أحد ابرز مهندسى عمليات الاغتيال فى تاريخ الدولة العبرية. فقد شغل فى السابق منصب رئيس شعبة العمليات فى جهاز «الموساد»، وهو مسئول عن معظم عمليات التصفية التى قام بها الموساد ضد قادة منظمة التحرير، وهو الذى شارك فى اختطاف ادولف رايخمان مساعد هتلر من الأرجنتين فى العام ١٩٦٤، وهو الذى جند الجاسوس الأمريكى اليهودى جونثان بولارد لصالح إسرائيل. وفى حزب العمل هناك الجنرال عامى ايالون القائد السابق لكل من جهاز المخابرات الداخلية «الشاباك»، وسلاح البحرية فى جيش الاحتلال، وهو من قادة حزب العمل، الذى تباهى مؤخراً بأنه قتل بيده من الفلسطينيين أكثر مما قتلت حركة حماس من اليهود منذ انطلاقتها وحتى الآن. وإلى جانب ايالون، هناك الجنرال دانى ياتوم، من نواب حزب العمل، وهو الرئيس الأسبق لجهاز «الموساد»، الذى فى عهده تمت محاولة اغتيال خالد مشعل رئيس المكتب السياسى لحركة حماس فى العام ١٩٩٧، إلى جانب المئات من الجرائم التى قام بها «الموساد»، مع العلم أن دانى ياتوم كان يشغل قبل ترؤسه «الموساد» منصب قائد المنطقة الوسطى فى جيش الاحتلال. وبحكم موقعه هذا قام ياتوم فى العام ١٩٩٤ بالرد على مجزرة الحرم الإبراهيمى الشريف التى نفذها المجرم باروخ جولدشتاين وراح ضحيتها ٢٩ فلسطينياً أثناء أدائهم صلاة الفجر فى الحرم، بسجن عشرات الآلاف من المواطنين الفلسطينيين فى المدينة فى منازلهم لأكثر من أربعين يوماً، فى حين ترك سوائب المستوطنين يعيثون فسادا فى شوارعها، وكأنه يكافئهم على المجزرة. وهناك الجنرالان بنيامين بن اليعاز وافرايم سنيه، من قادة حزب العمل، وهما من الذين تعاقبوا على قيادة قوات الاحتلال فى الضفة الغربية، وهما يتباهيان بأنهما كانا صاحبى الدور الأكبر فى تدمير بيوت المواطنين الفلسطينيين، ويقران أنهما كانا يتواطآن مع المستوطنين فى مصادرة أراضى الفلسطينيين لبناء المستوطنات فى أرجاء الضفة الغربية. وفى حزب «إسرائيل بيتنا»، هناك الجنرال يسرائيل حسون، وهو نائب سابق لرئيس جهاز «الشاباك»، وأشار الحزب إلى دور حسون هذا فى تنفيذ مئات العمليات الخاصة ضد الفلسطينيين والعرب والتى قتل فيها الكثيرون. إلى جانب الجنرال ايفى ايتام نائب عن حزب «الاتحاد الوطنى»، و كان قائداً للواء المشاة «جفعاتى» خلال الانتفاضة الأولى، وأدين فى محكمة عسكرية بتحطيم أطراف شابين من مخيم «البريج» للاجئين وسط قطاع غزة بالحجارة. ■

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

عبدالله النديم

فى ١٠ أكتوبر من عام ١٨٩٦ رحل عن عالمنا عبدالله النديم خطيب الثورة العرابية وأحد أبرز الكتاب والصحفيين والخطباء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ولد النديم عام ١٨٤٢ لأسرة فقيرة ودرس فى الكُتّاب ثم المسجد ولم يستمر فى دراسته لعدم موافقتها لطبعه فبدأ يتردد على مجالس الأدباء يسمع شعراً وزجلاً ونوادر، وكان لهذه المجالس أثر كبير فى حياته الأدبية.

تنقل فى عدة أعمال وعندما اشتدت المقاومة ضد الخديو إسماعيل انضم إلى جمعية مصر الفتاة السرية ثم تفرغ للصحافة فأنشأ جريدة التبكيت وصار ينشر مقالات اجتماعية نقدية هزلية، ولما قامت الثورة العرابية انخرط فى صفوفها وأصبح الناطق باسمها وداعيتها وقد غير اسم جريدته إلى الطائف بناء على طلب من أحمد عرابى. وحينما فشلت الثورة اختفى النديم ٩ سنوات وبعد أن ألقى القبض عليه عفا عنه الخديو توفيق ونفاه إلى يافا ثم عاد إلى مصر بعد وفاة توفيق ١٨٩٢ وأنشأ جريدة الأستاذ وجعلها منبراً وطنياً يناهض الإنجليز ثم انتقل إلى تركيا حيث مكث حتى توفى بمرض الدرن عن ٥٤ عاماً.

وتنشر «وجهات نظر» مقتطفات مما نشرته مجلة الأستاذ واعتمدنا فيها على كتاب الأعداد الكاملة لمجلة الأستاذ «الجزء الثانى» الصادر عن مكتبة الأسرة بمصر عام ٢٠٠٥.

الزمان: مساء الثلاثاء ١١ أبريل ٢٠٠٦.

المكان: مدينة قم المقدسة

المناسبة: خطاب للرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد جرى التنويه عنه طيلة نهار ذلك اليوم، وقد بشر التليفزيون الرسمى المواطنين الإيرانيين بأن نجاد سيعلن فيه عن «نبأ سار».

لم يخيب نجاد ظن الإيرانيين وأعلن فى خطابه ما كان متوقعًا على نطاق واسع وما كان الإيرانيون ينتظرون سماعه. فقد أكد نجاد انضمام بلاده للنادى النووى بعد تمكنها من تخصيب كمية من اليورانيوم لأول مرة. لقد كانت المعادلة بشأن البرنامج النووى الإيرانى كالتالى: طهران تسابق الزمن لخلق حقائق على الأرض متمثلة فى تمكنها من التخصيب بحيث يتركز الحديث مع الدول الغربية والوكالة الدولية للطاقة الذرية حول الضمانات المحيطة بعملية التخصيب وليس حول التخصيب ذاته.. أما الطرف الآخر وعلى رأسه الولايات المتحدة فكان يضغط بشتى السبل لعدم وصول إيران إلى عتبة التخصيب. ولذلك جاء إعلان نجاد ليكون بمثابة مرحلة جديدة فى تلك الأزمة النووية ليس معروفًا بالضبط كيف ستتعامل الأطراف الفاعلة معها.. وهل ستكون بمثابة محفز لواشنطن حتى تسارع بضرب إيران قبل أن تقترب من مرحلة التفجير النووى أم أن الحقائق الجديدة ستفرض عليها تعاملاً أكثر واقعية مع إيران؟

المقال التالى الذى كتبه كريستوفر دوبيلايجو الصحفى البريطانى المقيم معظم الوقت فى إيران يقدم خلفية موثقة للملابسات والأحداث التى سبقت الإعلان الإيرانى.. ويجتهد فى تقديم قراءة للسيناريوهات المستقبلية المحتملة للأزمة.

«وجهات نظر»

إيـــران القنبـلة



كريستوفر دوبيلايجو

■ ■ ميز الإجماع مواقف الكثير من الدول، خلال الأشهر القليلة الماضية، إزاء التهديد الذى يمثله برنامج إيران النووى للأمن الدولى. وقبل ثلاث سنوات جنب هذا الإجماع الدول نفسها عند بحث قضية «غزو عراق صدام حسين». وفى الثامن من مارس (الماضى) أحالت الوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA) فى فيينا، الملف الإيرانى إلى مجلس الأمن الدولى. وفى السر كما فى العلن، والعلن أكثر، وفى العديد من الدول، بما فى ذلك الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوروبى التى شهدت معارضة قوية لغزو العراق، إضافة إلى الهند واليابان، يتحدث كبار المسئولين هناك عن سعى إيران الظاهرى وراء الأسلحة النووية حديث إدانة يوحى وكأنهم يعتبرونه حقيقة مسلماً بها. وبرصد سلسلة من التصريحات المؤسفة المعادية لإسرائيل، والتى أدلى بها الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد، يعرب بعض المسئولين، فى الدول ذاتها، عن تخوفه من أن إيران، إذا ما امتلكت القنابل التى يفترض أنها تسعى إلى امتلاكها، سوف تهدد إسرائيل بقوة مغامرة جديدة.

إجماع أقل يحظى به زعم الولايات المتحدة بأن مواطنى الجمهورية الإسلامية هم أسرى النخبة الدينية الحاكمة فى إيران، وإن على دول العالم مساندة المنظمات الإيرانية الديمقراطية وتمكين شعب إيران من التمتع، وحسب كلمات جورج بوش بـ «حق اختيار مستقبلهم». يبدو أن هذه الرؤية تنتشر حيث أعلن جاك سترو، وزير خارجية بريطانيا عن مساندته لطموحات الإيرانيين «إلى مستقبل أكثر حرية وأكثر ديمقراطية».

فى الوقت الذى يعقد فيه مجلس الأمن جلسات سرية مغلقة، خلال الأشهر المقبلة، لبحث ما يجب اتخاذه بشأن إيران، سوف تزداد العلاقات سوءاً ما بين العديد من الدول وإيران ما لم تستجب قيادات (الأخيرة) إلى الضغوط الدولية وتعطل خطط تحولها إلى منتج للوقود النووى عبر تخصيب اليورانيوم، الذى يمكن استخدامه فى صناعة قنابل «نووية». وما بين ٢٣ أكتوبر ٢٠٠٤، ويناير من هذا العام، أوقفت إيران النشاط الهادف إلى إنجاز دورة وقود نووى باستخدام اليورانيوم المخصب. ثم عادت وبدأت من جديد فى عمليات التخصيب، وردت على الإدانة القوية التى وجهتها إليها الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن أعلنت رفضها التفتيش، من قبل الوكالة، إلا على المواقع التى تحددها «طهران» كمواقع نشاط نووى. وفى ٢٩ مارس أصدر مجلس الأمن قراراً يطالب بما طالبت به «الوكالة»، وهو أن على إيران وقف العمل فى تخصيب اليورانيوم والسماح للوكالة بالتفتيش فى المواقع المشكوك فى استخدامها فى أنشطة نووية.

ومن المرجح أن ترفض إيران الاستجابة إلى هذه المطالب وتستمر فى برنامج التخصيب الذى بدأته فى شهر يناير الماضى. ويتوقع مسئول بريطانى مرموق أن تتمكن إيران مع نهاية هذا العام، من التوصل إلى التقنية التى تمكنها من تطوير سلاح نووى، وما لم تتراجع طهران، ينتظر أن تقوم الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بإقناع روسيا والصين بمساندة قرار يصدر عن مجلس الأمن ويعلن انتهاك إيران للقانون الدولى.

ورغم موافقتهما على إحالة الملف الإيرانى إلى مجلس الأمن، تعارض روسيا والصين ممارسة ضغوط دبلوماسية «ثقيلة» على الإيرانيين. ومن المتوقع أن تصرا على ضرورة أن تكون للوكالة الدولية للطاقة المسئولية الأكبر فى التعامل مع البرنامج الإيرانى، وتطالبان بتأجيل ما قد يصدر عن الأمم المتحدة من قرارات. ولروسيا والصين مصالح كبيرة فى إيران. وقد وافقت الصين، فى وقت لاحق، على شراء شحنات كبيرة من النفط والغاز الإيرانيين خلال العقود الثلاثة المقبلة. وتنظر روسيا إلى إيران كحليف لها فى مقاومة النفوذ الأمريكى فى الشرق الأوسط. وباعت موسكو إلى طهران تقنية نووية للاستخدامات المدنية، نظام دفاع جوى، وطائرات مدنية.

ولا شك أن السياسة الإيرانية المراوغة لاقتراح روسيا نقل نشاطات التخصيب الإيرانية إلى الأراضى الروسية قد أزعجت موسكو، لكن روسيا ورغم ذلك لا تزال متمسكة بأن الضغوط على إيران قد تدفعها إلى الانسحاب من اتفاقية حظر انتشار الأسلحة النووية، وإغلاق الطريق ـ المواربة ـ أمام عمليات التفتيش الدولية للمواقع الإيرانية. ولا يستبعد الإيرانيون مثل هذه التوقعات. ومن الوارد انضمام روسيا والصين إلى سياسة فرض عقوبات تأمل الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تبنيها من قبل تحالف من الدول، إذا ما رفضت إيران الاستجابة إلى قرار مفترض يطالبها بوقف برنامج تخصيب اليورانيوم والقبول بالتفتيش الدولى المفاجئ.

يبدو محمد البرادعى، المدير العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية، متعاطفاً مع الموقفين الروسى والصينى، وذلك من خلال تعليقاته فى مؤتمره الصحفى الذى عقده فى الثامن من مارس (الماضى)، والذى دعا فيه الأطراف إلى تجنب التصعيد والدخول فى مزيد من المحادثات.

ومن الدبلوماسيين من يرى أن البرادعى يشعر بإحباط شديد لأنه، وبعد ثلاث سنوات من التفتيش الدقيق، والمراسلات مع السلطات الإيرانية، لا يستطيع القول بأن البرنامج الإيرانى هو برنامج سلمى. وكان اعترف فى أحدث تقاريره يوم ٢٧ فبراير الماضى، بأن «الوكالة، لم تلحظ فى إيران ما يشير إلى نشاط تحويل لمادة اليورانيوم إلى أسلحة نووية. لكن ما أزعج البرادعى هو أن إيران قدمت معلومات ناقصة حول برنامجها الخاص بتطوير آليات طاردة لتخصيب اليورانيوم. وقال إنه يبدى اهتماماً بالدور العسكرى الغامض فى البرنامج. وقد أشار إلى وثيقة أرسلت إلى الإيرانيين من مصدر أمدهم بتقنية نووية وصفت بأنها «ملائمة لتصنيع مكونات الأسلحة النووية». لكن الإيرانيين قالوا إنه هذه الوثيقة غير مدققة. ولدى «الوكالة» التى يديرها البرادعى الكثير الذى نفقده إذا ما حققت إيران دورة وقود تمكنها من تصنيع قنبلة «نووية» فى فترة قصيرة. كما أن اتفاقية حظر الانتشار النووى الموقعة من ١٨٨ دولة، تم تقويضها من قبل دول مثل الهند وباكستان وإسرائيل التى رفضت التوقيع عليها وتمتلك مفجرات نووية. كذلك انسحبت كوريا الشمالية من الاتفاقية فى عام ٢٠٠٣، ثم أعلنت امتلاكها لمفجرات نووية. وسوف تفقد الاتفاقية ما تبقى لها من مصداقية ضئيلة إذا ما انسحبت إيران أو سمح لها بالبقاء كعضو بين الأعضاء الموقعين عليها، مع استمرارها فى المراوغة بشأن برنامجها النووى. وإذا ما انهارت اتفاقية حظر الانتشار النووى، سوف يدخل الشرق الأوسط فى سباق تسلح نووى تشارك فيه المملكة العربية السعودية ودول أخرى. ويبدو أن المفاوضات التى خاضها البرادعى مع مسئولين إيرانيين يرجعون إلى مرشدهم الأعلى آية الله على خامنئى، يبدو أنها أقنعته بأن الحل الوحيد هو التوصل إلى اتفاق مع الإيرانيين، وبمشاركة الولايات المتحدة. وكان البرادعى قد دعا الولايات المتحدة، فى الثامن من مارس الماضى، إلى التفاوض مع الإيرانيين، مؤكداً الحاجة إلى «تسوية سياسية شاملة تضع فى اعتبارها كل القضايا المطروحة».

و«القضية المطروحة»، فى رأى إدارة بوش، هى أن النظام الإيرانى المتشدد وغير المحبوب يحاول سراً تصنيع قنبلة من شأنها تهديد إسرائيل ودول أخرى، وأن السبيل الوحيد لحل هذه القضية هو تأكيد احتمال فرض العقوبات، أو الحرب المانعة، لكى تتمكن الولايات المتحدة والدول المؤثرة الأخرى من وقف ما يحدث. هذه القراءة لموقف الجمهورية الإسلامية تعد قراءة مضللة لسببين: الأول أنها تسبغ على دولة مشتتة وكتومة ما لا تملكه من شفافية فى القصد وصرامة فى العقيدة، والثانى هذه القراءة تعفى الولايات المتحدة من مسئوليتها عن رفض إيران التخلى عن طموحاتها فى التوصل إلى دورة وقود نووى، وتجعلها فى حل من الالتزام باستخدام الوسائل الدبلوماسية لإقناع قادة إيران بتغيير مواقفهم.

ويملك الإيرانيون قدرة على التعامل ببراجماتية مذهلة تبدت أول مرة خلال فضيحة إيران ـ كونترا فى عام ١٩٨٦، عندما انكشف تعاونهم مع أعدائهم الأمريكيين لشراء أسلحة من إسرائيل التى يرفضون حقها فى الوجود. وبعد ثلاث سنوات من وفاة آية الله الخمينى، طورت إيران علاقاتها مع السعودية التى كان الخمينى نفسه يمقتها وأعلنت إيران أيضاً أنها لن تسعى أو تطالب بتنفيذ حكم الإعدام الذى أقره الخمينى ضد سلمان رشدى «الكاتب البريطانى من أصل هندى صاحب كتاب آيات شيطانية». وبعد اعتداءات الحادى عشر من سبتمبر قدمت إيران إلى الولايات المتحدة دعماً حيوياً عند غزوها لأفغانستان وإقامة حكومة أفغانية جديدة.

للعداوة الإيرانية تجاه إسرائيل من المعانى ما هو أكثر دقة من تلك التى توحى بها تصريحات أحمدى نجاد التى طالب فيها بـ «محوها من على الخريطة»، وقوله: إن الهولوكوست مجرد «أسطورة»، والتى أثارت مخاوف ـ مفهومة ـ من احتمال تفكير إيران فى

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: جمال إسماعيل

إيران
القنبلة

مهاجمة إسرائيل. لكن كبار المسئولين المدنيين والعسكريين فى إيران أكدوا أن مثل هذا الهجوم لن يحدث إلا إذا بدأت إسرائيل به. والأكثر دلالة ـ فى هذا السياق ـ أن الرئيس الإيرانى، والقيادة العليا فى طهران، كررا المطلب الإيرانى الدائم باستفتاء شعبى فى إسرائيل حول حق عودة اللاجئين الفلسطينيين. ومثل هذا المطلب، أو الموقف الرسمى لا يبدو متسقاً مع «طموحات تدمير إسرائيل، بالقوة أو باستخدام أسلحة نووية من شأنها أن تحميهم. لم يخف العديد من كبار المسئولين الإيرانيين انزعاجهم من تصريحات رئيسهم «نجاد» بما فى ذلك أكبر هاشمى رفسنجانى، الرئيس السابق الذى يرأس مجلس تشخيص مصلحة النظام فى إيران. لكن أحمدى نجاد استفاد من «الغضب» الذى قوى من صورته بين المتشددين فى العالم الإسلامى فى مواجهة معارضيه داخل إيران، وفى مقدمتهم رفسنجانى.

وتتمركز أزمة إيران النووية حول مخاوف وطموحات الجمهورية الإسلامية، والتى من الصعوبة بمكان تعريفها عندما نضع فى الاعتبار خفايا عمليات صنع القرار المتضخمة فى إيران حيث الرئيس والبرلمان، المنتخبين، يتبعان قيادة عليا غير منتخبة، -وهيئات أخرى تشكل بالتعيين، والجميع فى حالة تنافس يصعب معها معرفة كيفية صناعة القرار.

وإذا ما بحثنا عن مفاتيح ما، يمكن للمرء أن يفعل ما هو أسوأ من استعراض مسلسل تدهور العلاقات بين إيران والولايات المتحدة، منذ بداية عام ٢٠٠٢، عندما وضع بوش الجمهورية الإسلامية ضمن ما أسماه بـ «محور الشر». وقتها أخبرنى إيرانيون على علاقة وثيقة بالنخبة الدينية أن هذا الخطاب أقنع القيادة الإيرانية بأن بوش يعتزم إسقاط الجمهورية الإسلامية. وزادت حدة المخاوف الإيرانية مع الغزو الأمريكى للعراق، رغم خلاصها من أسوأ أعدائها «صدام حسين»، زادت المخاوف حدة أيضاً بسبب الطموح المعلن للولايات المتحدة حول «دمقرطة» الشرق الأوسط.

لم يكن فى إعاقة إيران، لدعوة جورج بوش للتغيير فى الإقليم، ما يثير الدهشة. أخذت إيران تؤكد نفوذها داخل جارها العراق، ولا تفعل شيئاً يساعد الولايات المتحدة فى مأزقها هناك. سهلت إيران مرور الأموال والسلاح إلى شيعة العراق، وشجعت عمل المدنيين الإيرانيين فى التجارة والأعمال الخيرية فى العراق. ورغم الضغوط الغربية لم تغير إيران من دعمها للمعارضين الإقليميين للولايات المتحدة، بما فى ذلك سوريا وجماعات مثل حزب الله، الذى أسسته بالتعاون مع سوريا، وحماس. كما سعى بعض الإيرانيين إلى تأجيج الغضب الدينى ضد الغرب خلال أزمة الرسوم الدنماركية. «الهدف الإيرانى»، وكما يحدده محلل سياسى فى طهران، هو ضمان بقاء الولايات المتحدة فى حالة انزعاج لا تمكنها من تهديد إيران. والتوصل إلى دورة وقود و قدرة على تصنيع قنبلة نووية يعطى قادة إيران درجة مختلفة من الحماية تكون معها فى وضع يسمح لها بصد هجمات معادية. لكن هذا المشروع محفوف بالمخاطر. وفى خطاب ألقاه أمام عدد من كبار المسئولين، فى نهاية عام ٢٠٠٤ وكشف النقاب عن محتواه فيما بعد، تحدث حسن روحانى وكان وقتها رئيس المفاوضين النوويين عن الضغوط الدبلوماسية المكثفة التى تتعرض لها إيران وقال: «إن الموقف سيتغير لو أننا استطعنا، فى يوم ما، إكمال دورة تخصيب اليورانيوم ووضعنا العالم أمام أمر واقع.. إن العالم لم يكن يريد لباكستان أو البرازيل التوصل إلى دورة الوقود. لكن البرازيل فعلتها وأصبح لباكستان قنبلة. وتأقلم العالم مع الوضع، لكننا لم نحقق بعد دورة الوقود. وهذا هو الحاصل، وهو لب المشكلة».

ليس وارداً إلغاء إيران لخططها الخاصة بدورة الوقود النووى ما لم يقر فى وجدان قادتها أن المستقبل أكثر أمناً بدون هذه الخطط. وفى الخامس عشر من فبراير الماضى، وبعد أن طالبت كوندوليزا رايس، وزيرة الخارجية الأمريكية، الكونجرس بتخصيص ٧٥ مليون دولار لتشجيع الديمقراطية فى إيران، تنبأ مسئول أمريكى كبير لم يشأ ذكر اسمه للصحفيين، أن هذه الأموال «لمساعدة الإيرانيين الراغبين فى رؤية نموذج آخر لإيران»، وأشار مسئول آخر إلى «رغبة الإيرانيين للعيش فى ظل نظام مختلف». وبالنسبة للقادة الإيرانيين هناك قضيتان رئيسيتان هما: أمن إيران، واستعداد أمريكا للتعايش مع حكومة دينية إسلامية تراها ثقيلة الظل خبيثة. ويبدو واضحاً أن إدارة بوش تبنت سياسة «تغيير النظام»، رغم صعوبة تحقيق ذلك بالقوة العسكرية. وفى الوقت نفسه لا تزال الإدارة الأمريكية تتحدث عن لقاءات محتملة مع الإيرانيين لبحث استقرار العراق. ولا يبدو أن الإدارة الأمريكية تملك فكرة متناسقة إزاء ما يجب فعله إذا ما تعلق الأمر بإيران.

[٢]

خصص الكونجرس ١٩ مليون دولار، أقل مما طلبته رايس، من أجل تشجيع الديمقراطية فى إيران. وإذا ما وضعنا فى الحسبان ١٥ مليون دولار، كانت ـ بالفعل ـ من ميزانية هذا العام ولم تصرف بعد، يكون لدى الإدارة الأمريكية ٣٦ مليون دولار لتحسين وتكثيف الدعاية الموجهة إلى إيران، و٢٠ مليوناً لصالح منظمات حقوق الإنسان، المنظمات غير الحكومية، واتحادات العمال، ومساعدة من يرغب من الإيرانيين فى الدراسة بالولايات المتحدة. وتعنى هذه المخصصات زيادة كبيرة بالمقارنة مع ٣,٥ مليون دولار كانت ميزانية العام الماضى للصرف على الأهداف ذاتها. كما أن وزارة الخارجية زادت أيضاً من أعداد موظفيها العاملين فى إيران. ولأول مرة فى عمر إدارته، خص الرئيس بوش الجماعات الإيرانية المعارضة فى المنفى، والعديد منها يتخذ الولايات المتحدة مقراً، بمزيد من الاهتمام، حسب ما جاء فى التقرير الشامل حول هذه الجماعات ونشرته connie Bruck فى مجلة The New Yorker فى الثانى من مارس الماضى. ويعد رضا بهلوى، نجل الشاه الراحل والبالغ من العمر ٤٥ عاماً، متلقياً رئيسياً للأموال.

وهو من الذين يرون أن استفتاء شعبياً لو جرى يمكن أن يؤدى إلى إقامة عرش دستورى يجلس هو عليه باعتباره الشاه، ولا يمانع فى إقامة جمهورية علمانية. وهناك ٢٥ محطة إذاعة تليفزيونية تستفيد من أموال الحكومة الأمريكية وتوجه بثها إلى إيران فى لوس أنجلوس، موطن ٦٠٠ ألف إيرانى فى المنفى. ويمارس أنصار جماعة أخرى، هى منظمة «مجاهدى خلق إيران»، ضغوطهم على الخارجية الأمريكية لرفع اسم المنظمة من قائمة المنظمات الإرهابية الأجنبية. وهى خطوة ـ لو حدثت ـ تجعل إدارة بوش حرة فى منحها المساعدات المالية.

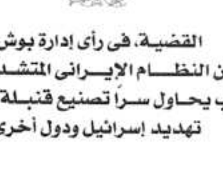
وتجد المنظمات الأمريكية، بما فى ذلك المنظمات الخاصة، صعوبة جمة فى إقامة علاقات مباشرة مع الإيرانيين داخل إيران. وقد تجلت هذه الصعوبة خلال محاكمة «عباس عبدى» الإصلاحى البارز فى طهران عام ٢٠٠٢، بتهمة الجاسوسية. وكانت «جريمة» عبدى هى تنظيم استطلاعات رأى لحساب منظمة «جالوب».

أشار أحدها إلى أن ٧٤ بالمائة من المقيمين فى طهران يرغبون فى أن تبدأ إيران حواراً رسمياً مع الولايات المتحدة. فى المحاكمة، ونتيجة تهديدات ذكر فيما بعد أنها وجهت إلى زوجته، اعترف «عبدى» بذنبه وحكم عليه بالسجن.

وورد فى حديث لمسئول إيرانى، فى ١٢ مارس الماضى، أن إدارة بوش تعتزم توظيف المنظمات غير الحكومية، وغيرها، كبدائل ووسائط. وهذا القول الصريح من شأنه أن يصعب حياة وأعمال المنظمات الأهلية غير الإيرانية التى لها روابط فى إيران، ويزيد من المخاطر التى يواجهها الإيرانيون الذين على اتصال معها.

قبل الغزو الأمريكى للعراق ضللت بعض جماعات المعارضة العراقية وأنصارها من الأمريكيين العديد من المسئولين الحكوميين الأمريكيين الذين اعتقدوا أن تلك الجماعات تحظى بدعم شعبى داخل العراق ولديها معلومات جيدة عن أحوال الداخل. التضليل نفسه هو الحاصل الآن بالنسبة لجماعات المعارضة الإيرانية فى المنفى. وفى تقريرها المنشور The New Yorker، تحدثت Raymond Tanter العضو السابق فى مجلس الأمن القومى

القضية، فى رأى إدارة بوش، هى أن النظام الإيرانى المتشدد وغير المحبوب يحاول سراً تصنيع قنبلة من شأنها تهديد إسرائيل ودول أخرى



إيران القنبلة

للولايات المتحدة، والأستاذ الزائر في جامعة جورج تاون، والذي يتولى الآن عملية إقناع الإدارة الأمريكية برفع اسم جماعة «المجاهدين» من قائمة المنظمات الإرهابية ويؤمن الرجل، كما تقول Bruck أن هذه الجماعة هي «الوحيدة القادرة على الإطاحة بالنظام». هذا خبر جديد. لقد فقد «المجاهدون» مصداقيتهم كقوة عسكرية عندما اتخذوا من العراق مركزًا لشن هجمات انتحارية على إيران في نهاية حربها مع العراق في عام ١٩٨٨. توقع «المجاهدون» أن تثير هجماتهم تمردًا شعبيًا لكن القوات الإيرانية سحقتهم، ونزعت الولايات المتحدة سلاح من تبقى من أعضائهم (٣٥٠٠ عضو) اسكنتهم معسكرًا قرب الحدود الإيرانية. ولا شك أن تحالف هذه الجماعة مع صدام حسين قد أدى إلى انقلاب الإيرانيين ضدهم. وخلال أكثر من ٥ سنوات عشتها في إيران لم أسمع إيرانيا واحدًا يتحدث مادحًا هذه الجماعة.

استبعاد رضا بهلوى يبدو أقل سهولة من استبعاد جماعة «مجاهدين». وقد يشعر بعض الإيرانيين بحنين إلى عصر الشاه ينعكس في صورة ولاء لنجله. لكن هذا الحنين لا ينتشر بين الأجيال الشابة التي تمثل أغلبية السكان، والعديد من الذين التقيتهم من الشباب يفضل جمهورية علمانية. هناك قلة تريد عودة الملكية لكن ارتباط رضا بهلوى بأكثر حلفاء والده بشاعة، واعتماده على السخاء الأمريكي، أساءا إلى سمعته. كما أن عجزه الرئيسي، وهو عجز المعارضة الخارجية ككل، يتمثل في أنه لم ير إيران لما يقرب من ٢٧ عامًا، وهي فترة شهدت فيها إيران الكثير من التغيرات.

يشوب الكثير من الوهم فهم الكثير من الإيرانيين المنفيين لبلادهم. مثال ذلك أن رئيس مستشاري رضا بهلوى، وهو رجل أعمال إيراني يدعى شاهريار أهى، يخطط الآن لعقد مؤتمر لجماعات المعارضة، صيف هذا العام، في الولايات المتحدة. وينتظر أن يتعاون الجميع من أجل إسقاط النظام. وقد أبلغ Bruck أنهم سيكون لديهم خمس أو ست أو سبع خلايا في الداخل من أجل توحيد الأداء والبدء في حملة عصيان مدني حيث يقوم عمال النفط بإعلان إضراب، ويقوم الأكراد بالفعل نفسه، فيتوقف الذئاب عن الجري وراء الحمير الوحشية المخططة المختلفة.

يرسم خيال «أهى» الفجوة الواسعة ما بين الواقع في إيران، ومفاهيم الإيرانيين المقيمين في الولايات المتحدة ويعتقد الكثير منهم أن شروط تغيير النظام متوفرة الآن أكثر من أي وقت مضى.

ويقول أديب منشق بارز في طهران إن إيران، ولأول مرة في تاريخها منذ عام ١٩٤١، خالية من أي معارضة مؤثرة، شرعية أو غير شرعية.

اليوم، وبعد ثمانية أشهر من خروج خاتمي كرئيس، ووصول حركته الإصلاحية إلى نقطة النهاية، لا توجد حركة سياسية تقدمية تحل محلها. وهذا أمر لا يثير الدهشة لأن الحركة الإسلامية جذبت إليها شخصيات عامة متميزة من الرسميين الذين عملوا مع خاتمي، ومن الكتاب والصحفيين وقادة الطلبة وجميعهم يلتزم الصمت إلى اليوم بعد أن سجن أو طرد إلى المنافي. والحركة الطلابية التي كانت نشطة أصبحت تحتضر. وقد ساهم بوش في السبات والتشاؤم اللذين أصابا العديد من السياسيين الإيرانيين البارعين عندما وضع إيران ضمن «محور الشر» وراح يكيل المديح للنشطاء الداعين إلى الديمقراطية خلال الأحداث التي شهدتها إيران «أيام خاتمي» وأعطى الذريعة للقضاة المحافظين وأنصارهم المتشددين في الصحف والتليفزيون لوصم الإصلاحيين بأنهم خونة وأتباع لأمريكا. وتعد محاكمة «عباس عبدي» نموذجًا واحدًا من بين نماذج كثيرة. ولقد قال خاتمي وبوضوح، إنه يعتبر بوش مسئولاً إلى حد كبير عن فشله في إصلاح إيران. ومنذ انتخاب أحمدي نجاد والتدهور اللاحق لعلاقات إيران الدبلوماسية مع العديد من الدول ازدادت صعوبة تعبير الإيرانيين عن وجهات نظر مؤيدة لمزيد من حرية التعبير. رسمت الإدارة الأمريكية صورا متعارضة للجمهورية الإسلامية ومواطنيها. ومرة أخرى هذه الرؤية غير صحيحة. لقد عبر قادة إيران عن رفضهم وقف برنامج التوصل إلى دورة وقود نووي كفعل مقاومة مضادة للجهود الخارجية الرامية إلى سلب حقوق إيران. وكان نجاح هذا الرفض واضحا في الحادي عشر من فبراير الماضي عندما خاطب الرئيس أحمدي نجاد حشدًا قدرته وكالات الأنباء الأجنبية بمئات الآلاف من الإيرانيين الذين تجمعوا للاحتفال بذكرى الثورة في أكبر حشد شهدته إيران منذ سنوات. والمشاعر المؤيدة للنظام، والمعارضة بقوة للولايات المتحدة تزداد الآن قوة عن أي وقت مضى منذ زيارتي إلى إيران في عام ١٩٩٩.

[٣]

من المرجح أن تفرض بعض الدول، بما في ذلك دول الاتحاد الأوروبي، عقوبات على الجمهورية الإسلامية مالم يغير قادة إيران من خططهم النووية. هدف هذه العقوبات، والمنتظرة في وقت لاحق من هذا العام، هو، في البداية، ضمان وقف المساعدة الخارجية لبرنامج إيران النووي المدني وخاصة في المفاعل الذري الوحيد الذي بنته روسيا وكذلك منع المسئولين الإيرانيين من السفر إلى خارج إيران. وقد يتبع ذلك وضع قيود أوروبية على الاستثمار داخل إيران. وكان التهديد بفرض العقوبات قد بدأ يقلص بالفعل من حركة الاستثمار في إيران، وخاصة في صناعتي النفط والغاز، العمود الفقري للاقتصاد الإيراني. أجلت بعض شركات الطاقة الأجنبية خططها لتطوير صناعة الغاز الطبيعي السائل في إيران. ويخشى المسئولون في وزارة النفط أن يحد انخفاض الاستثمار في هذا القطاع من فرص وفاء إيران بالتزاماتها تجاه منظمة الدول المصدرة للنفط «أوبيك». وتخطط للبدء قريبًا في مشروع للحد من استهلاك الوقود. لقد طمأنت السلطات الإيرانية الرأي العام في إيران بأن العقوبات لن تهدد معدلات النمو التي يشهدها الاقتصاد منذ الزيادة الملحوظة في أسعار النفط عام ١٩٩٩. وقد صادق البرلمان الإيراني في الرابع عشر من مارس «الماضي» على ميزانية أحمدي نجاد للعام الإيراني المقبل وهي ميزانية تعرضت لانتقادات فيما يتعلق بما تقدمه للفقراء، وخاصة في الأقاليم. وذكر خامنئي الإيرانيين بأن العقوبات التي فرضت من قبل على إيران، وشملت مقاطعة النفط، قد حفزت البلاد على تحقيق اكتفاء ذاتي في العديد من المجالات. وإذا ما تكررت هذه المقاطعة قد يهدد الانهيار المحتمل للعائدات بقاء الجمهورية الإسلامية، وارتفاع أسعار النفط والمحتمل أيضًا، وبشكل ملحوظ، سوف يهدد العديد من اقتصاديات العالم. وقد ألمحت إيران إلى أنها ربما تعيق الملاحة في خليج هرمز، على ساحلها الجنوبي، كرد فعل للعقوبات، وتسبب بذلك المزيد من عدم الاستقرار للاقتصاد العالمي.

معارضة بعض الدول، بما في ذلك روسيا والصين، لفرض مثل هذه المقاطعة للنفط الإيراني، واستمرار تطوير إيران لقدراتها النووية، قد يؤديان إلى احتمال توجيه ضربات عسكرية أمريكية أو إسرائيلية إلى المواقع الإيرانية المعروفة والمشكوك في وجود نشاط نووي يمارس فيها. وتتوقع «مجموعة الأزمات الدولية» ICG أن حملة جوية رئيسية، تتجنب وقوع العديد من الخسائر بين المدنيين، يمكنها إحداث تدمير دائم للمواقع النووية الإيرانية. وقد ترد إيران باستخدام صواريخ يمكن أن تطال إسرائيل. وسوف تشجع، بالتأكيد، حلفاءها الإقليميين، بما في ذلك زعماء الشيعة في العراق، أصدقاؤها في سوريا ولبنان، لإحداث قلاقل في العراق وإسرائيل. (حزب الله وحماس طالب بالرد نيابة عن إيران حال تعرضها لهجوم). وإذا شعر قادة إيران أن الولايات المتحدة مصرة على تحطيم الجمهورية الإسلامية لن يترددوا في إحداث الاضطرابات.

التوصل إلى حل مبتكر للورطة الدبلوماسية الراهنة ليس مستبعدًا، وتقترح مجموعة الأزمات - على سبيل المثال - أن يسمح لإيران بتسهيلات محدودة، لتخصيب اليورانيوم، تخضع لرقابة مشددة، ولكن بعد سنوات من إعادة بناء الثقة ما بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية ودول الاتحاد الأوروبي، وهذا الحل ربما يعد من الأنباء السارة المحتملة، لكن القضية الأساسية تبقى في حاجة إلى بحث: ما الذي يجب على قادة إيران المحافظين أن يفعلوه كي ينأوا بأنفسهم بعيدًا عن تسلط إدارة جورج بوش، التي لا يوجد في خطتها الخاصة بالتغيير في الشرق الأوسط مكان لآيات الله غير الديمقراطيين؟ ■

وضع بوش إيران ضمن «محور الشر» وأقنع النخبة الدينية أن الإدارة الأمريكية تعتزم إسقاط الجمهورية الإسلامية



السنة والشيعة محاولة تقريب «أزهرية»

بشير موسى نافع

منذ أدارت تركيا مصطفى كمال ظهرها للعالم الإسلامي، برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيراً، سواء في الحقل الثقافي أو السياسي

Islamic Ecumenism in the 20Th Century: The Azhar and Shiism between Rapprochement and Restraint

(التقريب المذهبي الإسلامي في القرن العشرين: الأزهر والتشيع بين التفاهم والتحفظ)

Rainer Brunner

Translated from German by Joseph Greenman. Revised and Updated by the Author (Leiden: Brill, 2004), 423 pp.

■ ■ يعالج هذا الكتاب، بالغ الأهمية، موضوعا لم يلق عناية كافية من قبل، لا من الباحثين المسلمين ولا غير المسلمين، لا في اللغة العربية ولا في غيرها. فبالرغم من المحاولات السنية - الشيعية المستمرة طوال القرن العشرين للتقارب وإيجاد ارضية مشتركة، ليس هناك عمل واحد كرس لدراسة هذه المحاولات والنتائج التي نجمت عنها. لهذا، فإن كتاب برونر يملأ فراغا طال امده في حقل دراسة الإسلام الحديث. ولكن هذا الكتاب لا يعالج العلاقات السنية مع كل الطوائف الشيعية، بل يقتصر على الطائفة الشيعية الإثنى عشرية، التي تشكل أغلبية المسلمين الشيعة.

يستند كتاب برونر، الذي هو في الأصل دراسة أكاديمية لنيل درجة الدكتوراة، إلى عمل بحثي مكثف وواسع. وقد تمت مراجعة النص الألماني الأساسي وتحديثه قبل ترجمته إلى الإنجليزية. ينقسم الكتاب إلى مقدمة، عشرة فصول، خاتمة، وينتهي بقائمة شاملة ومفيدة للمصادر الأولية والثانوية. وبالرغم من أن الجزء الأكبر من الكتاب قد كرس لدراسة تاريخ جمعية التقريب الإسلامية، التي اسست في القاهرة على يد مجموعة من العلماء وأهل الرأي السنة والشيعة في الأربعينيات، فإنه لا يقتصر على تتبع جمعية التقريب.

كما كل المواريث الدينية، تمتد جذور العلاقات السنية - الشيعية إلى التصور الجمعي للتاريخ. ومن هنا، فإن كتاب برونر يبدأ بفصل تقديمي طويل، يعيد بناء تاريخ الحقبة المبكرة للاسلام وسياق الاختلاف السني - الشيعي. ويبدو واضحاً في معالجة برونر، أن هذا الخلاف لم يبدأ (كما هو حال الانقسامات الطائفية المسيحية، مثلا) من نزاع حول التصور الصحيح للأنظمة العقدية، بل من نزاع حول أحداث معينة، هي في جوهرها ذات طبيعة سياسية، وحول التصور الصحيح للماضي. ولذا، فيما يتعلق بالمسائل العقدية، بالعبادات والطقوس، والمفاهيم... إلخ، فإن الخلافات السنية - الشيعية وليدة عملية إنشاء تاريخي لاحقة.

بيد أن ما تتجاهله معالجة برونر للسياق التاريخي للخلافات السنية - الشيعية هو الفارق بين رؤيتي السنة والشيعة وتصورهم لأنفسهم. منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وما أسماه مارشال هدجسون بـ«انتصار العالمية السنية»، أخذ الشيعة يسلكون مسلك الطائفة، مسلك المجموعة الخاصة، بينما رأى السنة أنفسهم كجسم جامع للإسلام، الأمة الإسلامية. وقد وصل التطور الطائفي للشيعة اكتماله في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في أعقاب الغزو المغولي للمشرق والعراق وتدمير بغداد والخلافة العباسية. في الفترة التكوينية للتشيع، كانت الرواية الشيعية الاثنى عشرية في جلها موجهة ضد الفرق الشيعية الأخرى. ولكن مع بروز الصفويين في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، اكتسب التشيع نزعة مناهضة للسنة بالغة التطرف والعنف، عززتها مصالح الدولة الصفوية وقادها الحكام الصفويون والعلماء الاثنا عشريين المرتبطون بهم. تعهد الصفويون سلسلة من الإجراءات البشعة للقضاء على التسنن في البلاد الواقعة تحت سيطرتهم، استمرت حتى بعد سقوط السلالة الصفوية في ١٧٢٢ ميلادية. ولكن نجاح الصفويين في القضاء على السنة اقتصر على المنطقة المركزية من الإمبراطورية، المنطقة التي يقطنها الفرس والتركمان - الأذريون؛ أما في أطراف الدولة، في مناطق الأكراد والبلوش والأفغان، فقد استمر الوجود السني مهيمناً.

كانت هذه الخلفية هي ما أطلق المحاولة الأولى لتحقيق مصالحة وتقارب سني - شيعي. فخلال العقود القليلة التالية لانهيار الصفويين، نجح نادر خان الأفشاري (الذي عرف بعد ذلك بنادر شاه)، الزعيم القبلي بالغ الشراسة والعنف، في توحيد الإمبراطورية الصفوية المتناحرة، بما في ذلك المناطق ذات الأكثرية الشيعية والسنية. ولوعيه بالعداء الطائفي العميق بين الشعوب الواقعة تحت حكمه وعواقب هذا العداء على الاستقرار الداخلي، إضافة إلى إدراكه للارتباط الأسطوري بين التشيع وشرعية السلالة الصفوية، وسعيه إلى منع الصفويين استعادة الحكم، عمل نادر شاه على وضع نهاية للانقسام السني - الشيعي. في ١٧٤٣، عسكر نادر شاه بقواته قرب مقام الإمام علي في النجف، حيث استدعى عدداً من العلماء السنة والشيعة الممثلين لمختلف الشعوب الواقعة في نطاق سيطرته. كما أرسل للوالي العثماني في بغداد يطلب إرسال أحد كبار علماء الولاية كي يشهد الاجتماع التاريخي. ولأن نادر شاه كان يأمل في أن ينعكس مشروعه التقريبي على التوتر المزمن في العلاقات الفارسية - العثمانية، فإن دعوته لأحد علماء بغداد لم تكن دعوة بريئة. وقد أوفدت بغداد بالفعل الشيخ عبدالله السويدي، القاضي الحنفي للولاية، وهو الذي ترك لنا في مذكرات قصيرة لرحلته المصدر الرئيس لأحداث ومناقشات لقاء النجف.

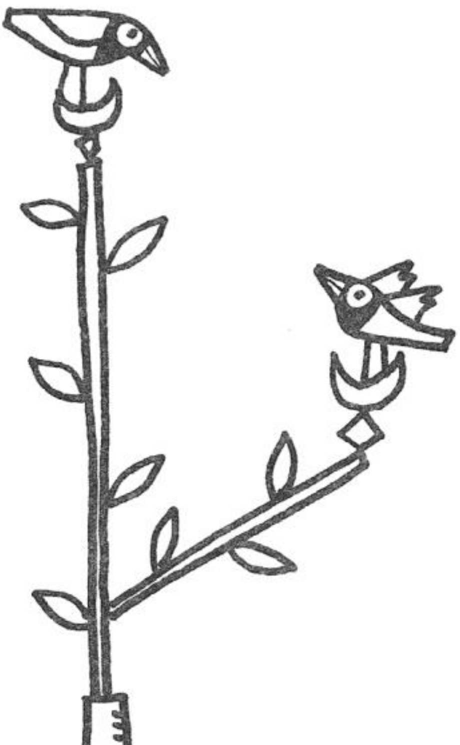
كان نادر شاه حاكماً مخيفاً، ولم يجرؤ أحد من العلماء المتواجدين في اللقاء على مخالفته. ولكن مشروع نادر شاه كان أبعد طموحاً مما يمكن تحقيقه. إذ بدلاً من أن يحاول التقريب بين السنة والشيعة بالتعامل مع القضايا محل الخلاف، قضية قضية، استهدف نادر شاه توحيد أتباع الطائفتين مرة واحدة. شهد اللقاء بالفعل بعض المبادرات الإيجابية من علماء كلا الطرفين، كما انتهى إلى اتفاق مكتوب. ولكن اغتيال نادر شاه اللاحق، وعودة الفوضى إلى ملكه، ترك مشروعه التوحيدي في سجلات التاريخ. لا السلطات العثمانية كانت على استعداد لأخذ مساعي نادر شاه مأخذ الجد، ولا العلماء الذين جمعهم في لقاء النجف كانوا ممثلين كافين للطائفتين، لا على مستوى العدد ولا على مستوى الموقع العلمي، أو حتى أنهم أظهروا من الصدقية ما يكفي للاتفاق مع الطرف الأخر. الخلافات الطائفية المتجذرة في التاريخ ما كان يمكن حلها بإرادة حاكم طاغية. ولكن القضية الرئيسية التي تمحورت حولها مساعي الاتفاق في لقاء النجف، والتي يمكن تلخيصها في توقف الشيعة عن ممارسة الطقوس والتقاليد التي يراها السنة منافية للشرائع الإسلامية، بينما يقبل السنة الشيعة باعتبارهم مذهباً خامساً من المذاهب الإسلامية، أصبحت الهدف الرئيس لجهود التقريب الإسلامي في القرن العشرين.

لم تسجل أية محاولة جادة للتقريب خلال القرن ونصف القرن التالي لنادر شاه. ولكن برونر يخطئ في تقديره لأثر التهديد الإمبريالي الذي أخذ العالم الإسلامي في مواجهته في القرن التاسع عشر ومطلع العشرين. فعلى خلاف ما يسجله برونر، شهدت تلك الحقبة تقارباً ملموساً بين السنة والشيعة، بما في ذلك التفاف المسلمين السنة والشيعة في البلاد العثمانية حول الدولة ومعاركها ضد القوى الغربية، سواء في البلقان أو في ليبيا والعراق. وقد ساهم صعود حركة الجامعة الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في إحداث تقارب مطرد في العلاقات العثمانية - القاجارية. وكلما اشتدت وتيرة الاختراقات الغربية الإمبريالية لبلاد المسلمين، تصاعد الإحساس لدى السنة والشيعة بالتهديد الغربي للدين ونمط الحياة. هذا الشعور المشترك بالخطر وحد بين العراقيين، سنة وشيعة، في مواجهة الغزو البريطاني للعراق

العثمانى فى الحرب العالمية الأولى، كما فى الثورة العراقية الكبرى ضد الاحتلال البريطانى فى ١٩٢٠. بعد انتهاء الحرب الأولى، وانهيار السلطنة العثمانية، ومن ثم قيام الحاكم التركى الجديد مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة. تنافس عدد من الحكام المسلمين على الخلافة. وقد شهد عقد العشرينيات من القرن الماضى تدافعاً حاداً لإحياء الخلافة فى هذا البلد الإسلامى أو ذاك؛ وأصبح كسب تأييد المسلمين الشيعة جزءاً من استراتيجيات المتنافسين الرئيسيين على المكانة التاريخية والقوة الرمزية المرتبطة بمقعد الخلافة. ولكن حتى عقد الثلاثينيات لم تكن بدأت بالفعل جهود ملموسة للتقريب.

قبل التطرق إلى مناقشة هذه الجهود، يكرس برونر فصلاً كاملاً لمناقشة واحد من أكثر الكتب إشكالاً فى تاريخ العلاقة بين السنة والشيعة فى العصر الحديث: «المراجعات». احتل هذا الكتاب، ولا يزال، حيزاً هاماً فى الجدل السنى - الشيعى؛ فمن ناحية، يتكون «المراجعات» من نص جدلى يستهدف الانتصار للرؤية الشيعية لتاريخ الإسلام، ومن ناحية أخرى، شكك كثير من المسلمين السنة بمصداقية الإطار الذى وضع فيه الكتاب. صاحب «المراجعات» هو المرجع الشيعى اللبنانى عبد الحسين شرف الدين (١٨٧٣ - ١٩٥٧)، الذى نشر كتابه للمرة الأولى فى ١٩٣٦. ويظهر الكتاب فى شكل أجوبة توضيحية، كتبها شرف الدين رداً على أسئلة وجهت إليه من عالم سنى كبير. ومن المفترض أن كلاً من الأسئلة والأجوبة حملتها رسائل متبادلة بين العالمين، السنى والشيعى. وبالرغم من أن الإصدار الأول للكتاب لم يوضح هوية العالم السنى، فقد شاع فى الأوساط الشيعية اللبنانية القريبة من شرف الدين أن المقصود هو شيخ الأزهر فى مطلع القرن العشرين الشيخ سليم البشرى (١٨٣٢ - ١٩١٧). ثم عاد شرف الدين فى كتابه «النص والاجتهاد»، الصادر فى ١٩٥٦، ليسجل صراحة أن العالم السنى فى «المراجعات» هو بالفعل سليم البشرى.

يميل برونر إلى وجهة النظر المشككة فى حقيقة بناء «المراجعات» على أساس أسئلة من البشرى وإجابات من شرف الدين، وذلك بعد تحليل تاريخى تفصيلى لحياة الأخير وتحليل نصى لكتابه. الزيارة التى يفترض أن شرف الدين قام بها إلى مصر وقابل أثناءها سليم البشرى جرت بين أكتوبر/ تشرين أول ١٩١١ وأبريل/نيسان ١٩١٢. وطبقاً لكتاب شرف الدين، شهدت هذه الشهور الستة ١١٢ رسالة بين الطرفين، كان آخرها قبل قليل من عودة شرف الدين



إلى بلاده. وما يعكسه «المراجعات» ليس فى الحقيقة حواراً بين الطرفين، بل أسئلة قصيرة موجهة من السنى، كتبت بصيغة خضوع كامل واستعداد للتلقى من «المعلم» الشيعى، وتقبل مقولاته. بل إن الكتاب ينتهى، بدون جدل فعلى، بموافقة العالم السنى على الرواية التاريخية التى يقدمها شرف الدين للإسلام بأكملها. المشكلة أن سليم البشرى يعتبر واحداً من أكثر شيوخ الأزهر محافظة فى القرن العشرين. وكان قد تولى المشيخة للمرة الأولى بين ١٨٩٩ و١٩٠٣، وتركها لاعتراضه على الإصلاحات التى كان معسكر محمد عبده يريد إدخالها على الأزهر. ثم عاد البشرى لتولى المشيخة فى ١٩٠٩، بعد أن خفت الجدل حول قضية الإصلاح. فى ١٩١١، عندما جرت المراسلات التعليمية المفترضة بينه وبين شرف الدين، كان البشرى فى الثمانين من عمره. فكيف يعقل لهذا العالم السنى، التقليدى، المحافظ، أن يقبل الوقوف موقف المتلقى من عالم شيعى شاب نسبياً (كان شرف الدين عندها فى الثلاثينيات من عمره وغير معروف بعد)، ثم ينتهى إلى الموافقة على مقولاته كلها؟

بيد أن هنالك ما هو أكثر إشكالية. فبالإضافة إلى أن أسرة البشرى أعلنت مراراً أنها لم تجد فى أوراق الشيخ سليم ما يشير إلى مراسلات بينه وبين شرف الدين، فإن سيرة الأخير تثير أسئلة حول الأصل الذى ارتكز إليه نص «المراجعات». إذ إن بيت شرف الدين ومكتبته بمدينة صور تعرضا للنهب والتدمير على يد الجنود الفرنسيين فى ١٩٢٠، عقاباً له على معارضته الاحتلال الفرنسى، وذلك فى وقت كان شرف الدين قد فر إلى دمشق (قبل معركة ميسلون). وطبقاً لشرف الدين، فإن عشرين كتاباً مخطوطاً من كتبه قد أحرقت فى تلك الحادثة. وبالرغم من أن مصادر حياة شرف الدين لم تشر قبل الثلاثينيات إلى وجود مخطوط باسم «المراجعات» بين أعماله، فالواضح أن «المراجعات» لم يستند إلى أصل مكتوب (لا فى شكل رسائل أو نسخة مخطوطة) بل إلى ذاكرة مؤلفه، وهو ما اعترف به شرف الدين. إعادة البناء المفترضة هذه جاءت بعد مرور ربع قرن على زيارة شرف الدين للقاهرة، وعقدين كاملين على وفاة الشيخ البشرى. كل هذا بالطبع يثير شكوكاً قوية حول مصداقية رواية شرف الدين للسياق الذى ولد فيه الكتاب؛ وما يزيد هذه الشكوك أن «المراجعات» كتب فى صيغة مشابهة تماماً لكتاب العالم الشيعى المعاصر لسقوط بغداد فى يد المغول، على بن موسى بن طاووس (ت ١٢٦٦)، «كشف المحجة»، ولذات الهدف.

فى ١٩٣١، دعا الزعيم الفلسطينى (الدينى والسياسى) الحاج أمين الحسينى، مفتى القدس، إلى عقد مؤتمر إسلامى

السنّة والشيعة

جامع لمناقشة القضية الفلسطينية والصراع المتصاعد على فلسطين. وقد التأم المؤتمر، الذى يعتبر الأول من نوعه فى تاريخ الجامعة الإسلامية، فى نهاية العام نفسه بمدينة القدس، حيث التحق به ما يزيد على مائة من العلماء وقادة الرأى من أنحاء العالم الإسلامى كافة. وقد شهد المؤتمر تمثيلاً شيعياً قوياً بحضور المرجع الشيعى العراقى محمد حسين آل كاشف الغطاء، ورئيس وزراء إيران السابق ضياء الدين طباطبائى. وفى استعراض قوى ومؤثر للوحدة دعى كاشف الغطاء لقيادة صلاة الجمعة الحاشدة فى المسجد الأقصى، حيث ألقى المرجع الشيعى خطبة الصلاة الجامعة.

بيد أن القاهرة، لا مؤتمر القدس، هى التى ستشهد انطلاق حركة التقريب. فمنذ أدارت تركيا مصطفى كمال ظهرها للعالم الإسلامى، برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيراً، سواء فى الحقل الثقافى أو السياسى. فى أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦، وصل إلى القاهرة فى زيارة قصيرة عبد الكريم زنجانى، العالم الشيعى من أصل إيرانى المقيم فى مدينة النجف العراقية. حظى الزنجانى بلقاء شيخ الأزهر فى ذلك الوقت، الشيخ محمد مصطفى المراغى، أحد تلاميذ عبده وأكثر علماء الأزهر نفوذاً وتأثيراً منذ فترة طويلة من الزمن. كان زنجانى مهتماً باستكشاف طرق ووسائل للتقريب بين السنة والشيعة، بينما كان المراغى، طبقاً لبرونر، يحاول من جديد توسيع نفوذ مصر العربى والإسلامى وإحياء مؤسسة الخلافة فى القاهرة. ولكن بالرغم من أن مراسلات زنجانى والمراغى استمرت بعد عودة الأول إلى النجف، لم يسفر هذا الجهد المبكر عن نتائج ملموسة. لم يكن زنجانى يعتبر من العلماء الكبار فى المؤسسة العلمائية الشيعية، وليس ثمة من مؤشر على أن نشاطه فى حقل التقريب كان مدعوماً من أى من المراجع الرئيسيين آنذاك.

بعد سنوات قليلة، فى ١٩٣٩، حضر إلى القاهرة عالم إيرانى آخر هو الشيخ محمد تقى القمى، ضمن عداد الوفد الإيرانى الكبير المرافق لولى عهد إيران محمد رضا بهلوى. وقد جاءت زيارة ولى العهد بمناسبة زواجه من الأميرة فوزية، شقيقة ملك مصر، فاروق الأول. خلال وجوده فى القاهرة، سعى القمى أيضاً لمقابلة الشيخ المراغى، كما قابل عدداً آخر من علماء الجناح الإصلاحى فى الأزهر. وحتى بعد وفاة الشيخ المراغى، حافظ القمى على صلاته بمجموعة من العلماء المصريين الكبار، مثل عبد المجيد سليم، محمود شلتوت، وعبد المتعال الصعيدى، باحثاً معهم فكرة التقريب بين السنة والشيعة. أخيراً، وفى يناير/ كانون الثانى ١٩٤٧، أثناء ولاية الشيخ مصطفى عبد الرازق لمشيخة الأزهر، أسست جمعية التقريب الإسلامية بمدينة القاهرة، وأعلن الشيخ القمى رئيساً للجمعية. كان مفهوماً ضمنياً أن القمى تلقى التأييد والدعم من آية الله حسين بروجردى، المرجع الإيرانى الشيعى الكبير آنذاك. ومع تأسيس الجمعية، أصبحت لمساعى التقريب مؤسسة دائمة للمرة الأولى، مؤيدة ليس فقط من عالم كـ «بروجردى»، بل أيضاً من أهم وأكثر مراكز الإسلام السنى احتراماً، الأزهر الشريف، ممثلاً بشيخه مصطفى عبد الرازق وآخرين من كبار علمائه.



ليس هناك من عالم سنى، ناهيك أن يكون هذا العالم شيخا للأزهر، قد ذهب إلى الحد الذى ذهبه شلتوت فى اعترافه بالشيعة الاثنى عشرية

استهدفت جمعية التقريب تشجيع تبادل الأفكار بين العلماء السنة والشيعة، ودعم تدريس الفقه الجعفرى فى أقسام جامعة الأزهر، وتطوير مناخ من التعارف والمصالحة بين السنة والشيعة فى عمومهم. وبالرغم من أن الجمعية وضعت فى حسبانها توظيف وسائل متعددة لتحقيق غاياتها، كانت مجلة «رسالة الإسلام» هى أهم هذه الوسائل. فى الحقيقة، ارتبط تاريخ الجمعية ومسارها، إلى حد كبير، بتاريخ المجلة ومصيرها. أقامت الجمعية علاقات متفاوتة القوة مع عدد من العلماء والكتاب وأهل الرأى، السنة منهم والشيعة، لاسيما فى مصر ولبنان والعراق، وقد ساهم أغلب هؤلاء فى الكتابة لمجلة «رسالة الإسلام». ولكن ما إن تولى مشيخة الأزهر الشيخ المحافظ محمد الخضر حسين حتى فترت علاقة الجمعية بالأزهر. قام الشيخ محمد الخضر حسين بتعيين الكاتب والصحافى محب الدين الخطيب، المعروف بتوجهاته السلفية وعدائه للشيعة، رئيساً لتحرير مجلة الأزهر الرسمية، الذى سرعان ما حول المجلة إلى منبر مناهض ومعارض لمشروع جمعية التقريب كله.

فى ١٩٥٨، أصبح الشيخ محمود شلتوت، أحد العلماء المرتبطين بفكرة التقريب منذ انطلاقها، شيخاً للأزهر. وقد بادر شلتوت مباشرة إلى استبدال أحمد حسن الزيات بمحب الدين الخطيب فى تحرير مجلة الأزهر؛ وكان الزيات معروفاً بتأييده فكرة التقريب. وهكذا، ومرة أخرى، تغيرت حظوظ الجمعية إلى الأفضل. وقد استطاعت الجمعية، عبر الشيخ شلتوت، تحقيق واحد من أهم إنجازاتها على الإطلاق. ففى عدد من المقابلات الصحفية التى أجريت مع شيخ الأزهر فى النصف الأول من ١٩٥٩، أكد الشيخ شلتوت على وجهة النظر التقريبية بين السنة والشيعة. ولكن الخطوة الهامة أخذت فى مقابلة أعطاها شلتوت لصحيفة «الحياة» اللبنانية، نشرت فى ٧ يوليو/ تموز ١٩٥٩. وقد تناولت الفقرة الأبرز من حديث الشيخ شلتوت: ١- أن الإسلام لا يجبر مسلماً على الالتزام بمذهب معين. فلكل مسلم الحق فى اتباع أى من المذاهب الفقهية التى انتقلت إلى المسلمين بالطرق الصحيحة، والتى سجلت قواعدها الفقهية كتابة. ويمكن للمسلم الذى يتبع أياً من هذه المذاهب الانتقال إلى اتباع مذهب آخر، بدون أن يتعرض للوم. ٢- فيما يتعلق بشئون الشريعة الإسلامية، يجوز للمسلم التعبد طبقاً للمذهب الجعفرى، المعروف بالمذهب الشيعى الإمامى، تماماً كما يتعبد طبقاً لأى من المذاهب السنية.

استبطن موقف شلتوت مؤثرات سلفية. إصلاحية وقناعة عميقة بمشروع التقريب. والحقيقة أن الأغلبية العظمى من العلماء السنة المؤيدين لفكرة التقريب، من المراغى إلى مصطفى عبد الرازق، كانوا علماء سلفيين. إصلاحيين. ومن جهة أخرى، فإن أشد الأصوات المناهضة للتقريب، مثل محب الدين الخطيب، كانت هى الأخرى أصواتاً ذات خلفية سلفية. وتدلل هذه الظاهرة على التعقيد والتعدد المتزايد فى الساحة

الإسلامية السلفية الحديثة. فكما يلاحظ برونر، محقاً، أن ليس هناك من عالم سنى، ناهيك أن يكون هذا العالم شيخاً للأزهر، قد ذهب إلى الحد الذى ذهبه شلتوت فى اعترافه بالشيعة الاثنى عشرية. كان واحداً من الأهداف الأساسية لجمعية التقريب العمل على نقل التشيع من وضع الطائفة إلى وضع المذهب الفقهى الإسلامى. وقد بدا شلتوت وكأنه يمد يد عون قوية ومؤثرة لتحقيق هذا الهدف الكبير. ولكن الأزهر ليس فاتيكان، كما أن الإسلام السنى لا يعترف بسلطة دينية واحدة. وهكذا، فبالرغم من أن موقف شلتوت استقبل بحماس واسع فى أوساط العلماء الشيعة، لم يكن هذا الموقف ملزماً لكل السنة. ولم يكن لهذا الموقف، بالتالى، أن يبدد شكوك العديد من الدوائر السنية تجاه الشيعة الاثنى عشرية.

يضع برونر تركيزاً فائضاً على السياق السياسى (والدوافع السياسية للشخصيات الرئيسية) لحركة التقريب. بالنسبة لبرونر، ارتبطت مبادرات المراغى التقريبية بسعيه لتأمين مقعد الخلافة لمصر؛ وكان جهد القمى التقريبى فى أربعينيات القرن العشرين نتيجة للتطور السريع فى العلاقات بين الأسرتين المالكتين فى مصر وإيران. أما موقف شلتوت غير المسبوق فى تاريخ العلاقات السنية - الشيعية فيقرأه برونر فى سياق الصراع المتصاعد بين مصر الجمهورية (الناصرية) ونظام عبد الكريم قاسم فى العراق، ومحاولة الرئيس عبد الناصر جلب شيعة العراق إلى دائرة التأثير والنفوذ المصرى. وعندما تدهورت العلاقات بين القاهرة وطهران على خلفية من اعتراف شاه إيران بالدولة العبرية فى ١٩٦٠، انهارت جمعية التقريب، كما انهارت مجلتها، وتوقف نشاط الجمعية كلياً تقريباً طوال العامين التاليين. استأنفت الجمعية عملها بعد ذلك، ولكن فى شكل متقطع. ثم بذلت بعض الجهود لإحياء الجمعية من جديد فى مطلع السبعينيات، فى ظل العلاقات الدافئة التى ربطت الرئيس السادات بشاه إيران.

الحقيقة أن تحليل برونر لا يمكن اعتباره صحيحاً إلا فى شكل جزئى؛ إذ أن السياق السياسى لا يوفر تفسيراً لانحدار علاقات جمعية التقريب بالأزهر طوال معظم الخمسينيات، بالرغم من أن الضباط الحاكمين فى القاهرة كانوا (ولأسباب عديدة) مؤيدين لفكرة التقريب. والسؤال الهام الذى كان على برونر أن يسأله هو ما إن كان عبد الناصر سيتمكن من دفع شيخ الأزهر إلى إصدار تصريح يتعلق بالعلاقات السنية - الشيعية، كذلك الذى أصدره شلتوت، لو أن شيخ الأزهر لم يكن مؤيداً لجهود التقريب وعلى اقتناع عميق وحقيقى بها. ليس هناك من شك فى أن السياسة كانت عاملاً مؤثراً فى تاريخ التقريب كله (كما كانت فى عهد نادر شاه)، ولكن المؤكد أن السياسة لم تكن العامل الوحيد؛ بل إنها فى كثير من المناسبات لم تكن العامل الرئيس. عندما لم يتوفر المؤيدون للتقريب لم تستطع السياسة التقدم بالمشروع أو حتى المحافظة عليه.

مع نهاية السبعينيات، وصلت جمعية التقريب إلى اخر الطريق، ولم يعد أحد يسمع بها أو يكترث لتلاشى نشاطاتها. وقد ارتبط معظم الجهد المتعلق بالتقريب بالنظام الإسلامى الشيعى الثورى فى إيران، الذى لم يستطع التقدم بفكرة التقريب، فى شقها الدينى على الأقل، أية خطوات ملموسة، حتى بالمقارنة بإنجازات جمعية التقريب المتواضعة. فى الواقع، أصبحت العلاقات السنية - الشيعية مشروطة، إلى حد كبير، بالكيفية التى رؤيت بها الجمهورية الإسلامية الإيرانية من قبل الدوائر المختلفة فى العالم الإسلامى. ولكن المهم أنه وبالرغم من النكهة الساخرة التى تصبغ تقييم برونر لسعى التقريب، فالحقيقة أن التقريب الإسلامى لم يكن ليحقق أكثر مما حققته جهود التقريب المشابهة بين الكنائس المسيحية، أو المشاريع المتعددة للحوار الإسلامى - المسيحى. فرضية برونر الأولية هى، ربما، الأكثر فائدة فى مجال تقييم فكرة التقريب: أن الميراث التاريخى للسرديات الدينية أثقل بكثير مما يمكن للمتحدثين باسم الدين التفاوض عليه. وربما كانت التجارب والآمال المشتركة فى الواقع والحياة المعاشة أكثر تأثيراً وأمضى فعالية من جدل العلماء المتخصصين، فى قدرتها على تقريب الطوائف من بعضها البعض. ■

كتـــاب الزاويـــة

مجلة الأستاذ

المسلمون والأقباط

هـم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم لا يعرفون غير بلدهم ولا يرحلون لغيرها إلا زيارة. قلبتهم الأيام على جمر التقلبات الدولية وقامت الدنيا وقعدت وهم هم إخوان الوطنية يعضد بعضهم بعضًا ويشد آزره فى مهماته. يتزاورون تزاور أهل البيت ويشارك الجار جاره فى أفراحه وأتراحه علمًا منهم أن البلاد تطالبهم بصرف حياتهم فى أحيائها، بالمحافظة على وحدة الاجتماع الوطنى الذى يشمله اسم مصرى من غير نظر إلى الاختلاف الدينى، وقد كانوا كذلك أيام الجهالة والهمجية وأيام التقدم الأول وهم الآن أحوج للالتئام وتوحيد السير من أيام الجهالة، فقد عمتهم المعارف وتحلوا بالآداب ووجد فى الفريقين أعداد كثيرة من الفضلاء وأرباب الأقلام والملاعب الدولية تشخص أمامهم أدوارًا توجب عليهم مجاراة الأمم فى البحث عن حوافظ الوطنية والتمسك بما يؤيد سيرهم المصرى تحت رعاية وعناية أميرهم المفخم السالك بهم سبل الخير والإصلاح وإنا وإن رأينا الألفة والمحبة على ما كانتا عليه من عهد دخول الإسلام فى مصر إلى الآن ونعلم أن ذكاء نبهاء الفريقين يبعثهم على التمسك بحبل الارتباط الوطنى ولكننا نحب أن تزداد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية موضوعها البحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته ولا تخرج فى هذا كله عن الأدبيات والمحافظة على ما بين المصريين وغيرهم من روابط المحبة فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية ونحن لا جمعية لنا تبحث فى الوطنية.

اطوار بهجت:
التقرير الأخير





بغداد: صحفيون تحت الحصار

أورفيل شيل

■■ «سيداتي وسادتي» أعلن الطيار الجنوب افريقي بنبرة واقعية من خلال الانتركم «إننا نبدأ هبوطنا اللولبي في بغداد حيث الحرارة ١٩ درجة مئوية». لقد انتهى عند نهر دجلة ذلك الامتداد الشاسع والذي يأخذ بالألباب للصحراء المتدة مثل ورق الزجاج تحت الطائرة. ومن اجل تفادي هبوط عادي خطر فوق منطقة معادية والصواريخ ونيران الأسلحة الآلية، انحدرت الطائرة بشدة ثم وكما لو كانت قد وقعت في سورة مالية، غطست وهي تحوم باتجاه الأرض في حركة لولبية مثل فتاحة الفلين.

عند الوصول إلى عمان وهي البوابة المدنية الرئيسية إلى بغداد ينتاب المرء شعور من يقترب نحو مفاعل نووي في حالة انصهار. حتى في الأردن هنالك إحساس واضح كأنك في آخر دائرة آمنة في منطقة إشعاع ينشر موجات تلوث لا يمكن التحكم بها.

وتقريبا لم يحدث في عالمنا المتجانس ان يقذف عبور حدود دولية بالمسافر إلى ارض متفردة حقا. ولكن على أية حال، هل هناك مكان مثل العراق؟ وحتى في مطار الملكة عالية الدولي في عمان، يجد المرء تلميحات حول تلك البلاد المرعبة القادمة. على الجدار فوق سير الحقائب إعلان ملصق عن «شركة أي اس بيك، بون، ألمانيا: سيارات مدرعة مرخصة، وشعار الشركة عبارة عن سيارة سيدان مثبت على حاجز الريح الزجاجي بجانب السائق منظار بندقية قناص. ويقول الإعلان بمرح: «عند الذهاب إلى العراق، تأكد آن تكون السيارة مدرعة». وعند بوابة المغادرة هناك لافتة قرمزية تحذر من حمل مواد ممنوعة: «بارود ومضارب جولف وقنابل يدوية وفؤوس جليد ومناخس أغنام وعصي هوكي وسواطير لحوم وبنادق كبيرة، مما يجعل المرء يتساءل ما إذا كانت البنادق الصغيرة مقبولة.

كانت الطائرة الأردنية الملكية الصغيرة من نوع فوكر اف ٢٨-٤٠٠٠، التي تقوم برحلات يومية إلى بغداد، تقف على الاسفلت بعيدا عن طريق النفاثات وكأن بعض مسئولي المطار كانوا يخشون ان تكون عبوة ناسفة بدائية محمولة جوا (عبوة ناسفة بدائية هو مصطلح عسكري امريكي). وهؤلاء الذين يقومون برحلة الحج هذه إلى مركز الصراع المناهض للغرب والإسلامي الطائفي هم خليط غريب من حراس أمنيين أهليين ومقاولين عسكريين وموظفين امريكان ورجال أعمال عراقيين وصحفيين، وشاب يرتدي قميصا أعلن انه من «فريق الشرطة العسكرية K-٩».

مطار بغداد الدولي يمتلئ بالحراس المسلحين وتحيطه مركبات مدرعة. لم أر حافلات أو سيارات أجرة تنتظر وصول المسافرين. فكل مسافر تقريبا يجد في انتظاره أحدا ما. وكان في انتظاري رئيس أمن صحيفة نيويورك تايمز البريطاني والذي يعمل طوال الوقت والذي جاء بموكب مصغر من السيارات (المصفحة) أي ضد الرصاص ويرافقه عدد من الحراس العراقيين المسلحين يتصلون ببعضهم البعض بأجهزة الراديو.

وبحلول الذكرى الثالثة لتورط أمريكا في العراق، ذهبت إلى العراق ليس لملاحظة الحرب ذاتها وإنما لمراقبة كيف تغطى إعلاميا. ولكن بطبيعة الحال لا يمكن تفادي الحرب. فليس هناك خطوط قتال او جبهات أو حتى فاصل بين القروي والحضري مما كان يميز حروب العصابات دائما. بدلا من ذلك تجد القتال في كل مكان ولا مكان في نفس الوقت.

بدأت الحرب بالنسبة لي في الطريق إلى بغداد، وهو الطريق الذي يبلغ طوله ٧ اميال وصار يسمى الطريق الايرلندي على اسم اللواء ٦٩ الايرلندي من الحرس الوطني لنيويورك والذي كان يسير دورياته فيه بعد الغزو. والبعض يسميه أيضا طريق الموت لأن الكثير من الهجمات حدثت على امتداده. والآن تشارك القوات العراقية في حراسته ولم يعد الطريق ميدانا للقتال كما السابق ولكن مازالت الرحلة من المطار هي الاكثر تلفا لأعصاب اي مسافر.

ورغم أن عراق ما قبل الحرب كان لديه نظام طرق خارجية حديث نوعا ما. حيث الطرق مقسمة إلى حارات ومعابر علوية وتقاطعات وحتى لافتات دولية خضراء وبيضاء باللغتين العربية والإنجليزية، ولكن كل ذلك محي بالإهمال والقتال والتفجيرات ووطأة الدبابات التي لها شكالم ومقسمات وسطية. ففي كل مكان تجد الشارع مقلوبا تملأه مخلفات وقمامة واسلاك شائكة تتعلق بها أكياس بلاستيكية قذرة وأشجار نخيل مقطوعة الرؤوس ومعدات مدمرة ومصابيح شوارع مكسورة وقطيع من الكلاب الصفراء الضالة تتشمم أكوام القمامة وهي أماكن مثالية لإخفاء العبوات الناسفة التي تفجر بواسطة الهواتف النقالة لتحية ارتال القوات الأمريكية التي تحرس الطريق. يبدو العديد من جوانب الطريق وكأنها مناطق قتال حتى لو لم تكن قد تعرضت لهجوم.

وقد اصبح الكثير من طرق بغداد الرئيسية كابوسا للمرور المختنق. وحين تظهر على الطريق دوريات أمريكية أو عراقية في مركبات الهمفي المزودة بالرشاشات ذات عيار ٥٠ ودبابات ابرامز ام-١ ومركبات برادلي المقاتلة، تتباطأ حركة كل شيء إلى درجة الزحف. فهناك لافتات مربوطة على نهايات المركبات تحذر باللغتين العربية والإنجليزية (خطر، ابق بعيدا) وكل سائق يفهم الرسالة. فالفشل في الاحتفاظ بمسافة يمكن ان يتسبب في إطلاق النار (١) وهكذا مثل قطيع من الحيوانات الباردة والجائعة والخائفة من الاقتراب الى نار المعسكر، تنكمش السيارات خلف مثل هذه الدوريات وفي حين يضطر سائقوها الغاضبون إلى الانتظار، يتنفسون عادم السيارات وهم يلعنون الاحتلال.

ورغم انه بعد الاحتلال توقفت تقريبا كل انشطة الحكومة العادية - مثل تسجيل السيارات وإصدار رخص القيادة - فقد تدفقت على أسواق العراق آلاف المركبات من دول أخرى. والإشارات الضوئية نادرا ما تعمل الآن بسبب انقطاع الكهرباء لساعات كثيرة. والسيطرة الوحيدة تأتي من بضعة رجال شرطة مرور وضعوا في التقاطعات المهمة من أجل توجيه تدفق المركبات الذي لا ينتهي. ومما زاد الطين بلة، انه بعد عدة هجمات أو تفجيرات، يرفع الجيش الامريكي او الحكومة العراقية لافتة في وسط شريان رئيسي للتحذير «شارع حيفا خطر، لا تستخدمه». واكثر من ذلك، فإنه مع ازدياد العنف والفوضى في المدينة، بدأ الناس يغلقون شوارعهم بمحض إرادتهم من اجل خلق مناطق آمنة وطالما لاوجود لسلطة القانون فلا أحد يمنع هذا التعديل الخاص لفضاء عام.

في البداية وبعد الاحتلال، تدبر الناس أمنهم بوضع أكياس الرمل على طول الشوارع أو أمام بيوتهم ومكاتبهم. ولكن حين انتشرت التفجيرات (الانتحارية) وصارت الشحنات الناسفة اكبر واكثر تدميرا وتأثيرا، اصبحت جهود الدفاع الذاتي اكثر تطورا. وبدخول (الجدران المضادة للانفجار) تغيرت خارطة بغداد.

وكان الإسرائيليون قد استخدموا هذه الجدران من اجل وضع حاجز نفسي بينهم وبين الفلسطينيين. ولكن نسخة العراق من هذه الجدران العازلة تتكون من آلاف قطع الكونكريت المسلح المتنقلة والتي يبلغ ارتفاعها ١٢ قدمًا. وهذه (الجدران ذات الشكل T) تبدو مثل شواهد قبور عملاقة او ربما طواطم معدلة من الإرث الثقافي المنقرض في ايستر ايسلاند Easter Island (جزيرة في جنوب الباسيفيك تبعد ٢٠٠٠ ميل عن تاهيتي وتتميز بتماثيل ضخمة منحوتة حولها ولا احد يعرف تاريخها او اصلها - المترجمة). وحين يوضع أحدها إلى جانب الآخر كجدران مضادة للانفجار فهي تشكل تموجات رمادية هي الملمح الأكثر شهرة الآن لبغداد. ولأنها انتشرت

بترتيب مع مجلة
New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصري

بغداد

صحفيون تحت الحصار

خلال إدارة بول بريمر الثالث، فقد أصبحت تسمى (حيطان بريمر).

على سبيل المثال، حين ازداد قلق مؤسسة صحفية رئيسية من تدهور الوضع الأمنى فى المدينة وكان مقرها فى جزء من أبو نواس وهو الشارع الرئيسى المحاذى لنهر دجلة وضع الجيش الأمريكى حواجز أمام الفندقين المجاورين بشكل متاهة من الجدران المضادة للانفجار وأبراج حراسة ومرافق أخرى. وهكذا ففى حين كان هذا فى السابق شارعا رئيسيا تظلله الأشجار الممتدة فى وسطه اصبح الآن مثل ساحة تشبه الحديقة لإيواء سيارات وتحيطها جدران كونكريتية حامية بارتفاع ١٢ قدما.

ومع ازدياد البحث عن أمن خاص اكثر فاعلية، نما شعور عام جديد وغير متوقع من عدم الأمان. فمع تغيير مسار المرور إلى شوارع مفتوحة تتناقص باستمرار، اصبح ازدحام المرور اكثر حدوثا معرضا الأجانب والبغداديين الأغنياء وأى شخص لا يتفق مع هذه الجماعة أو تلك من (المتمردين) إلى أخطار الاختطاف أو إطلاق النار أو التفجير. ومما يثير الأعصاب (وهو اقل ما يمكن قوله) أن تحشر فى زحمة مرور، محصورا فى خضم سيارات خاصة ونصف نقل وشاحنات وعراقيين مسلحين بأسلحة ثقيلة يحدقون بصفاقة من خلال نوافذ سيارتك المصفحة فى حين يجلس حراسك الامنيون إلى جوارك يحتضنون رشاشاتهم. وبانعدام أى فرصة للهرب فلا يسعك إلا التساؤل متى تأتى لحظتك المنحوسة. وحين يتوقف المرور كليا ويبدأ السائقون يخرجون عن الخط، أو يصعدون على الرصيف أو يعبرون الفاصل الوسطى للشارع أو يندفعون إلى الحارة العكسية للطريق، فمن الصعب البقاء هادئا.

أسوأ المخالفين هم الحراس الأمنيون الخصوصيون الملتزمون بحماية من فى مسئوليتهم بأى طريقة ممكنة، وافراد الشرطة العراقية الذين يركبون الآن اسطولا جديدا من سيارات كروزر الخضراء والبيضاء ذات الصفارات الصاخبة التى تسمح لهم بشق طريقهم خلال الشوارع المقفلة بالمرور وكأنهم أطفال فى سيارات مدينة الملاهى.

ومما يزيد من العربدة الشاملة والإحساس العام بالقلق حقيقة انه من الصعب أن تعرف إذا كانت أصوات الصفارات التى لا تتوقف ودفقات أسلحة الرشاشات المتقطعة أو الانفجارات بين حين وآخر والتى تسمع طوال اليوم تعنى شيئا أو لا أهمية لها. فهناك ميادين تدريب الشرطة داخل المدينة وأحيانا يقوم حارس ضجر بإطلاق عدة عيارات نارية على سبيل التحذير. وكما أوضح بورزو دراجاهى من لوس انجليس تايمز: «إن إطلاق عدة أعيرة نارية من الأسلحة الآلية هنا فى بغداد مرادف لاستخدام بوق سيارتك فى أمريكا».

وهكذا ما لم يكن صوت الانفجار قويا فإن الناس عادة لا يرمشون جفنا. وأقصى ما يمكن للصحفى عمله إذا كان الصوت قويا جدا، هو أن يصعد إلى سطح المكتب ليرى من أين يأتى الدخان.

بدون شك هناك شىء مثل بليد رانر Blade Runner فى هذه المدينة (بليد رانر هو اسم فيلم من الخيال العلمى انتج عام ١٩٨٢ واصبح من أشهر الأفلام فى هذا المضمار وهى يقدم رؤية قاتمة للمستقبل - المترجمة). فالعنف مبهم وغير مفهوم حتى انك تتساءل: ما الذى يظن الناس انهم يموتون من اجله. ومع ذلك ورغم حقيقة أن العنف اليومى رهيب فالأمر لا يأخذ الكثير من الوقت قبل أن تصبح الأصوات القاتلة والدمار فى كل مكان جزءا من المشهد العادى. وسرعان ما تجد، بشكل يفاجئك تماما انك لم تعد تولى اهتماما لأصوات الرصاص اكثر مما يفعل ساكن نيويورك تجاه أبواق السيارات التى تنطلق كل ليلة.. اقصد، إلى أن يفجر شخص تعرفه، أو جار أو مجرد شخص سمعت به أو تطلق عليه دورية النار أو يخطفه المتمردون[٢].

بعد أيام قليلة من مغادرتى بغداد نشرت صحيفة عراقية خبرا صغيرا يقول إن مصرفيا عراقيا غنيا هو غالب عبد الحسين قد اختطف من منزله المحصن، من قبل مسلحين يرتدون ملابس الجيش العراقى. خمسة من حراسه الشخصيين قتلوا بطريقة الإعدام. هذه واحدة من آلاف الحوادث المتشابهة. ولكن ماعدا خضوعك لأوامر حراسك الأمنيين المسئولين عنك (إذا كان لديك مثلهم) فليس هناك الكثير الذى تستطيع أن تفعله.

عند التجول فى شوارع بغداد بالسيارة، تستطيع أن ترى رجال الشرطة العراقية الجديدة ذوى الملابس الزرقاء والتى تفتخر بها إدارة بوش على أنها مؤشر واعد عن (العرقنة). ولكن لأن محطات تجنيد الشرطة ومدارس التدريب ومراكزها هى أهداف مفضلة للمتمردين، فإن الكثير من هؤلاء الشرطة الجديدة يخافون من التعرف عليهم بصفتهم متعاونين مع الأمريكان أو مع الحكومة العراقية الجديدة. وعلاجهم لهذا هو وضع أقنعة سوداء فيها فتحات للعينين والأنف والفم وهكذا يماثلون فى الشكل الكثير من لصوص البنوك. والمرء يرى حماة السلام هؤلاء بهذا الشكل المخيف فى تقاطع المرور أو يلوحون بأسلحة آلية فى خلفية سيارات نصف نقل اشتراها لهم الأمريكان، مما يجعل منظرهم مهددا وليس مطمئنا.

المكاتب الجديدة

زيارة أى من المكاتب الجديدة تعطيك انطباعا فوريا عن كيفية تحصن الصحفيين الأجانب الآن وكيف اصبح من العسير عليهم القيام بواجباتهم. وكل من تحدثت معه اشتكى من أن الحالة الأمنية المتدهورة قد حولتهم إلى سجناء فى مكاتبهم.

كتبت فرناز فصيحى مراسلة وول ستريت جورنال فى فبراير هذا العام تقريرا فى الصفحة الأولى حول الأوضاع فى بداية وصولها عام ٢٠٠٣: «كنا نستطيع أن نذهب الى أى مكان فى العراق بسيارة عادية ومن غير حماية. كنت وأنا بملابس غربية - بنطلون وتى شيرت وحذاء مفتوح - أتجول بحرية فى بغداد أثرثر مع أصحاب المحلات واتغدى أو أتعشى مع أناس التقى بهم، ولكن فى ربيع ٢٠٠٤ كتبت: «انتشر (التمرد) وازداد قوة أسرع مما تخيلناه ممكنا. ولأول مرة استأجرت حراسا مسلحين وبدأت أتنقل بسيارات مصفحة، وكان الخروج محددا ومقيدا وكانت الرحلات البرية قليلة ومتباعدة.. وكلما ازداد التدهور الأمنى فى أنحاء البلاد تتقلص المناطق التى يمكن لنا العمل فيها بأمان».

مكاتب الأخبار الأجنبية إما فى أو قرب بعض الفنادق العاملة مثل الحمراء والرشيد وفلسطين. ومثل سفن حربية متضررة ولكنها مازالت فى البحر، نجت هذه الفنادق من هجمات القنابل المتكررة ولكنها استطاعت أن تظل مفتوحة. وأصبحت قلة من الفنادق مثل الرشيد، حيث كان هناك صورة لجورج بوش الأب من الموزاييك على عتبة الفندق، داخل حمى المنطقة الخضراء. وهناك مكاتب أخرى قليلة لها مقراتها المستقلة وهى عادة فيلات متهالكة ميزتها أنها داخل محيط الدفاع الجماعى الذى جعل من الجوار مثل مدينة من القرون الوسطى محاطة بالأسوار.

وحيثما تكون مكاتب الأخبار فى المدينة تصبح هى أيضا مناطق محصنة بحراسها الخاصين قليلى العدد والذين يعملون أربعا وعشرين ساعة فى اليوم عند البوابات وأبراج الحراسة وحول المحيط. وللوصول إلى هذه المكاتب يجب أن يمر المرء بمتاهة من نقاط التفتيش والحراس المسلحين وتحصينات الجدران المضادة للانفجار والأسوار التى تحيط بأرض الأخطار هذه حيث يتكرر تفتيش كل الزوار وسياراتهم.

الحقيقة المرة هى ان القيام بأى مهمة خارج هذه المناطق المحمية من الامريكان اصبح من الخطورة للأجانب الى حد اعتبارها انتحارا. ويتصاعد عدد الصحفيين الذين يجدون أنفسهم محجوزين داخل أى فقاعة ملاذ خلقوها لعزل انفسهم من الخارج المارق. (فى ملحق صدر فى يناير من USAID خاصا بتطبيق عقود الحكومة يحذر من ان «غياب سيطرة الدولة وعدم وجود قوة شرطة مؤثرة اطلق العنان للعناصر الاجرامية داخل المجتمع العراقى).

وقد شعرت كل مجموعة أجنبية تعمل فى العراق انه من الضرورى أن تستأجر عنصر أمن شخصى PSD من اكثر من ستين شركة عسكرية خاصة PMF - وهكذا فإن شركات تريبل كانوبى، وايرنيز انترناشينال لمتد، وبلاكووتر - تجنى أرباحا طائلة من العراق. وفى الواقع يقال الآن إن هناك على الأقل ٢٥ ألف رجل مسلح من هذه الشركات الخاصة يعملون فى العراق اليوم. وتحت قيادة بريطانية وافريقية جنوبية وأمريكية يشكل عناصر الأمن شبه العسكريين الخفيون عالما موازيا لقوات الاحتلال الأمريكية وحتى



زيارة أى من المكاتب الجديدة تعطيك انطباعا فوريا عن كيفية تحصن الصحفيين الأجانب الآن وكيف اصبح من العسير عليهم القيام بواجباتهم

بغداد

صحفيون تحت الحصار

انهم يملكون منظمتهم الخاصة بهم وهى رابطة شركات الأمن الخاصة فى العراق.

ولم يغب عن أذهان احتياط الحرس الوطنى الأمريكيين وجنود الجيش النظاميين والمارينز بأن نظراءهم المرتزقة يحصلون أربع أو خمس مرات ضعف ما يحصلون هم عليه وأحيانا يصل الأجر إلى ١٠٠٠ دولار فى اليوم. ولابد أن هناك الكثير من السخط بسبب اللامساواة هذه والكثير من الجنود الأمريكان يطمحون إلى الاستقالة من وظائفهم العسكرية ذات الأجور المنخفضة للانضمام إلى إحدى هذه الشركات.

وقد اخبرنى مارينز شاب سابق: «انا انظر اليها من هذه الزاوية. ان الوحدة العسكرية كانت بالنسبة لى مثل دورة تدريبية مدفوعة التكاليف تؤهلنى للانضمام الى القطاع الخاص».

ولكن عمل الحارس الخاص محفوف بالمخاطر كما أدرك الحراس الأربعة من شركة بلاكووتر الذين كانوا فى مهمة عام ٢٠٠٤ لنقل بعض معدات المطابخ من قاعدة الفرقة ٨٢ المحمولة جوا فى الفلوجة وقد هوجمت مركباتهم واحرقت وقتل الأربعة ومثل بهم حيث علقوا على جسر على نهر الفرات. (وفى الوقت الذى دفعت بهذا التقرير الى النشر أذيع خبر اختطاف ٥٠ موظفا من شركة عراقية أمنية خاصة فى بغداد).

وقد انتهت الحكومة الأمريكية إلى استئجار آلاف من الحراس الخاصين لحماية مقاوليها وموظفيها الكبار مثل بول بريمر. فى الواقع تبين من مراجعة حسابات الحكومة الأمريكية فى ٢٠٠٥ انه بين ١٦ و٢٢٪ من ميزانية مشاريع إعادة الإعمار فى العراق يذهب الآن إلى نفقات الأمن وهو تقريبا ١٠٪ اكثر مما كان متوقعا. وكما قال حارس شركة خاصة لمراسل برنامج (الجبهة الأمامية) فى البى بى س PBS مارتن سمث «نحن شركة تأجير سيارات ونحن مجهزون للدفاع عن أنفسنا إذا هوجمنا».

إن الأمن عمل مكلف جدا، مما يعنى ان المراسلين والصحفيين الذين يعملون بشكل حر والذين لا يقدرون على تكاليف مثل هذه الحماية، قد اضطروا لمغادرة بغداد. أما مكاتب الصحف الكبيرة مثل نيويورك تايمز والتى تستطيع دفع تكاليف الأمن والتى مازالت فى بغداد فهى تملك وثائق تأمين مكلفة تتطلب أن تكون كل رحلات الذهاب والإياب - وكل نواحى الحياة خارج المجمع بضمنها الرحلات إلى المطار - تحت سيطرة رئيس الأمن الذى يعمل بدوام كامل ويقوم فى المكتب بدور شبيه بما يقوم به الموجه الأرضى للمرور الجوى. ومهمته هو اختيار الأوقات والطرق لرحلات الصحفيين ثم الحفاظ على اتصال مستمر بسياراتهم حتى يرجعوا سالمين. إذا كنت تريد القيام بحوار خارج المكتب فهناك احتمال كبير أن يلغى أو يؤخر لأسباب أمنية. ورؤساء الأمن مسئولون أيضا عن عناصر الأمن المسلحين الذين يحمون المكتب ليلا ونهارا. ولا أحد يخاطر بالخروج بدون خطة مرسومة مقدما ثم يفضل ان تستخدم سيارة مصفحة تتبعها سيارة (مطاردة) فيها عدد من الحراس العراقيين الموثوق بهم والجاهزين لإطلاق النار إذا تطلب الأمر.

حتى إذا أراد صحفى أن يجرى لقاء فى منطقة محمية أخرى فقد أصبح من الغباء عدم تنسيق المقابلة مسبقا. إذا كان المصور خارجا لتغطية تفجير انتحارى أو صحفى يحاور عراقيا مثلا فهو ينصح /او هى تنصح بعدم إطالة اللقاء اكثر من دقائق لأن ذلك قد يغرى أى شخص بالاتصال بجماعة جهادية لابلاغهم مقابل اجر.

وقد كتب روبرت فيسك مراسل الاندبيندنت اللندنية حول كيفية تحول الصحفيين الغربيين إلى «صحافة الفنادق» أو ما يصفها رئيس مكتب واشنطن بوست السابق راجيف تشادرسكاران «صحافة الريموت كونترول» اما مراسلة الجارديان الحربية ماجى اوكين فقد كانت اكثر تأكيدا «اننا لا نعلم ماذا يجرى ولكننا نتظاهر بأننا تعلم».

والواشنطن بوست التى اضطرت لأسباب أمنية إلى تغيير مقرها اكثر من مرة تقيم الآن فى منزل كبير يجاور فندق الحمراء. وحين توقفت هناك للغداء مع مجموعة من صحفيين اخرين اخبرنى جوناثان فاينر مراسل البوست ان القلق على حياة الصحفيين «غير تماما طريقة التحرك فى ارجاء المدينة».

وقال لى بورزو دراجاهى مراسل لوس انجيليس تايمز ومكتبه فى الحمراء انه فى صيف ٢٠٠٣ كنت تستطيع ان تخرج خارج الفندق وتوقف سيارة اجرة او تقود بنفسك الى الفلوجة لتناول العشاء هناك اوتستنشق الهواء او تذهب الى محل لبيع السيديهات. اما الآن فإن الاسوشيتد برس تمنع موظفيها حتى من مغادرة المدينة».

«من المدهش الآن عندما أفكر فى نوفمبر ٢٠٠٣ حين بدأ (التمرد) يستجمع قواه وكل ماكان لدينا هو بضعة أكياس رمل أمام منزلنا وبضعة حراس» والحديث لأيد وونج الذى يعمل الان للمرة السابعة فى مكتب نيويورك تايمز ببغداد. فى ذلك الحين كنت تصادف بضعة اشخاص غاضبين ولكنك لم تكن تشعر بالخوف على حياتك. ثم بدأت الأمور تتغير. فى البداية اصبح بعض المدنيين أهدافا ولكن ليس الصحفيون. ثم فى ربيع ٢٠٠٤ بدأنا نغير انظمة الأمن باستخدام موكب من سيارتين وحراس. وكان شعورى رهيبا. فلأول مرة أواجه حاجزا بينى وبين الناس الذين يفترض ان انقل اخبارهم».

وابلغنى ديكستر فلكنز من نيويورك تايمز والذى كان فى أفغانستان قبل العراق: «حين جئت لأول مرة هنا فى مارس ٢٠٠٣ كانت مثل اى منطقة حرب غطيتها: خطرة ولكن الخطوط كانت واضحة. كنا نتجول فى كل المثلث السنى فى الليل. وذهبت الى جنازة عدى وقصى (ابنى صدام حسين). حملقت عائلة صدام بنا ولكنى لم اشعر بأى ذعر. الآن لايفعل شيئا من ذلك إلا مجنون!».

لقد بدأت الامور فى التغير فى خريف ٢٠٠٣ حين بدأنا كلنا نواجه تهديدات. لقد اطلق على الرصاص وهاجمنى حشد من الناس ورميت احجار على سيارتى واطلق الرصاص على سيارة من سياراتنا.

ثم تغير كل شيئا تماما بعد ابريل ٢٠٠٤ والفلوجة وانتفاضة جيش المهدى (الميليشيا التى يقودها مقتدى الصدر). احتجز جون برنز وربطت عيناه ودفع للسير فى حقل. لقد تصور فى حينها انه ميت لامحالة. ثم فى اواخر ٢٠٠٤ بدأ قطع الرؤوس. وطبقا لفلكنز: لقد اصاب الوضع جوهر كونك صحفيا ولكننا مانزال نستطيع ان نتحدث للعراقيين ونقوم بمهامنا الصحفية ولكن الاوضاع خطرة ولا يمكن التكهن بها». وكما يقول لارى كابلو من صحف كوكس: «من المحبط عدم التمكن من الحديث للمتمردين، وكذلك عدم التمكن من معرفة مايحدث فى اجزاء اخرى من بغداد. إن ثمن البقاء فى بغداد هو ان تتخذ بدلاء عراقيين لانجاز المزيد والمزيد من المهام من قيادة السيارات الى التبضع الى الحصول على تأشيرات مغادرة وبطاقات السفر و.. كتابة التقارير الصحفية. وهذا الوضع يحبط الصحفيين الاجانب تماما وهم الذى يفخرون باستقلاليتهم. ولكنهم يدركون كما ذكرت لجنة حماية الصحفيين ان ٦١ صحفيا (العديد منهم عراقيون) قتلوا هنا وكثيرا آخرين اصيبوا منذ غزو ٢٠٠٣.

وتقول سابرينا تافيرنيس مراسلة نيويورك تايمز والتى قضت عدة سنوات كمراسلة فى روسيا ثم زارت بغداد عدة مرات قبل استبدالها الاخير:

احيانا اعتقد ان كل ما اعرفه هو قطع متناهية الصغر من لغز كبير. اذا كنت تستطيع ان تدخل منزل احدهم فإنك تستطيع ان تنقل الوجه الاخر من القصة ولكن العقبات امامك هائلة. حتى لو كانت مجرد زيارة الى مستشفى بعد قصف. اثناء عيد للمسلمين صادف مؤخرا. ذهبت الى منتزه للحديث مع الاشخاص والاطفال ولكن كان معى مترجم ومصور وثلاثة حراس وسائقان. وتضيف «كان منظرنا مخيفا، فى التاريخ الحديث لم يكن هناك الكثير من الحروب اصعب فى التغطية من الحرب على العراق اليوم. حين كنت اغطى الحرب فى الهند الصينية. كان المراسلون يخرجون الى الميدان وحتى فى داخل مناطق القتال عالمين بأننا فى النهاية سوف نستطيع الرجوع الى سايغون او فنوم بنه او فين تيان حيث نستطيع ملاقاة اصدقائنا المحليين او نذهب للعشاء فى مطعم مع رفاقنا. ومع انه كان يحدث بين حين وآخر ان يرمى واحد من الفيت كونج قنبلة يدوية على حانة ما ولكن الحرب كانت اساسا تدور خارج المدينة.

لقد وصلت هنا فى بغداد وانا اتوقع بسذاجة انه كرد



إن الأمن عمل مكلف جدا، مما يعنى أن المراسلين والصحفيين الذين يعملون بشكل حر والذين لا يقدرون على تكاليف مثل هذه الحماية، قد اضطروا لمغادرة بغداد

بغداد

صحفيون تحت الحصار

فعل لعزلتهم من المجتمع العراقى فإن الصحفيين قد يكونون شكلوا نوعا من التآخى بينهم ولكن ما اكتشفته هو انه حتى اقل التعاملات الاجتماعية بينهم قد أصبحت عسيرة. والحق يقال ان بعض المكاتب الجديدة الاكبر والاكثر امكانية (مع مطابخ وطهاة) قد حاولوا تنظيم امسيات عشاء غير رسمية مع زملائهم ولكن فى حين ان الضيوف كانوا قادرين على الوصول الى دعوة عشاء مبكرة كانت هناك مشاكل فى العودة ثانية الى مساكنهم او فنادقهم حين يحل الظلام حيث تزداد احتمالات الهجمات. البديل الوحيد كان قضاء الليلة لدى المضيف وهذا يسبب مشاكل للجميع خاصة للسواقين والحراس العراقيين.

كانت النتيجة أن يجد المراسلون انفسهم يعيشون حياة متخلفة حيث تنتهى أيامهم قبل غروب الشمس. وانهم يسحبون إلى مكاتبهم للعشاء مثل عائلة امريكية فى الخمسينيات من القرن الماضى. ولهذا لا عجب أن وجد العديد منهم السلوى فى الطبخ بأنفسهم.

فى مساء أحد الأيام حين كنت فى بغداد ذكر حارس امن بريطانى ان فوكس للانباء تقيم «حفلة» فى فندق فلسطين القريب الذى كان سابقا فندق مريديان فلسطين الراقى ذا الخمسة نجوم والذى يقع على ضفة نهر دجلة.

وكان يحدونى الفضول لرؤية ماال اليه هذا الفندق الاسطورى وكذلك كيف هو شكل اللقاء الاجتماعى بين الصحفيين الاجانب هنا الان. وهكذا فعند المغيب وبصحبة حارسين مسلحين تمشيت الى فندق فلسطين عابرا متاهة الجدران العازلة.

اول شيء لاحظته هو ان الفندق الذى اصبح اسما يعرفه كل بيت فى امريكا حين فتحت الدبابات الامريكية النار عليه فى ابريل ٢٠٠٣ وقتلت ثلاثة صحفيين، كان مظلما تقريبا الان. ومن بين المكاتب الرئيسية لم يعد هنا غير مكاتب فوكس للاخبار واى بى تى ان YPTN . ان فندق فلسطين وتوامه فى الشهرة عشتار شيراتون واللذين يسميان (مغناطيس الصواريخ) هما اعلى مبنيين فى بغداد. وهما يقعان مجاورين لمحيط ساحة الفردوس التى شهرها تمثال صدام حسين حين اسقطته دبابة أمريكية فى ٢٠٠٣. ورغم ان علاقة فندق عشتار بسلسلة فنادق شيراتون العالمية كانت قد قطعت منذ زمن طويل ولكن الفندق مايزال يسمى نفسه شيراتون مثل مطلقة عجوز لا تستطيع ان تتحمل فكرة التخلى عن لقب زوجها السابق.

فى اكتوبر ٢٠٠٥ كان كلا الفندقين هدفا لهجمات ثلاث سيارات مفخخة يقودها (انتحاريون). آخرها كانت خلاطة أسمنت محملة بالمتفجرات واخترقت ثقبا هائلا سببته مفخخة اخرى، وكان يمكن ان يدمر الفندقان لو لم يشتبك محور الخلاطة بحاجز من الأسلاك الشائكة وهنا فتح القناصون فوق سطح فندق فلسطين نيرانهم على الشاحنة مما فجرها بشكل اطاح - من بين اشياء اخرى- بنوافذ مكاتب رويترز ونيويورك تايمز وبى بى سى الى مسافة بعيدة جدا. وقد تضرر عشتار شيراتون الى حد انه لم يفتتح مرة اخرى فى حين ان فندق فلسطين الذى دمرت ردهة الاستقبال فيه، استطاع بشكل ما ان يستمر فى حالة من الحركة المؤجلة.

فى داخل ردهته المظلمة كان هناك عراقى وحيد يغفو على مكتب خشبى متهالك تحت سقف محفور تتدلى منه الاسلاك وتثبيتات الكهرباء والسباكة، ولافتة باهتة مازالت معلقة على مطعم قطار الشرق السريع المغلق والذى كان يوما مكان لقاء كل المراسلين الذين اقاموا هنا.

فى بحثنا عن حفلة فوكس المزعومة، سألنا الحاجب فى الردهة عن كيفية الوصول اليها، فقال لى ولحراسى ان نذهب الى الطابق الخامس ولكنه اضاف انه من اجل الوصول إلى فوق يجب اولا ان ننزل إلى تحت وهى كما يبدو استراتيجية لمنع (الانتحاريين) من الوصول مباشرة إلى اهدافهم. فى السرداب وبين صفوف من الصناديق الكارتونية المهملة واكوام زجاج النوافذ المكسور، وجدنا عراقيا يركع على سجادة امام جدار عازل اسمنتى؛ ويفترض بالمصلى ان يتوجه فى قبلته نحو مكة.

حين وصلنا اخيرا الى الطابق الخامس كان علينا ان نترك حراسنا فى نقطة تفتيش محصنة بباب من الفولاذ. فى الداخل يستقبلنا هواء ثقيل معبأ برائحة مطهر حشرات وكارى ودخان سجائر. وفى نهاية ممر تغطيه سجادة مزيتة وجدت غرفة صغيرة مفروشة بأثاث رث وتلفزيون يعرض لعبة كرة قدم. وكان السرور ظاهرا على موظفى فوكس الذين كانوا يدخنون ويشربون، لرؤية أى شخص. والمشهد يذكرنى بمجموعة من العجائز المتقاعدين يتشبثون بمبنى سكنى تقرر هدمه.

سألت احدهم وهو يلقى فى يدى زجاجة بيرة، «اين الضيوف الآخرون؟». يسحب زوران كوسوفاك رئيس مكتب فوكس، وهو ضخم الجسم وغير حليق الذقن، نفسا عميقا من سيجارته ويوضح بلهجته الكرواتية وهو يضحك: «الكل عاد الى بيته. اليوم السبت. وقد اردنا ان نمرح قليلا. اعتدنا من قبل ان نقيم حفلات الى وقت متأخر بالليل. ولكن الان جماعة الامن يقولون لنا اذا اردتم اقامة حفلة، فيجب ان تنتهى قبل الساعة ٦ مساء حتى يستطيع كل شخص العودة قبل الظلام. وقد بدأنا فى الساعة الثالثة».

وقال اخر: «الحال مثل تلاميذ السنة الثالثة حيث الكل يعود قبل الظلام» وضحك الجميع.

وحين سألت كوسوفاك كيف تعمل فوكس فى تغطية الأخبار قال إن التليفزيون يعنى ان تكون قريبا من الحدث «لأنه يجب ان تلتقط الصور وهذا شيء ضرورى. لو كنت صحفيا فى مطبوعة وخرجت فى مركبة همفى فأنت تستطيع ان تنظر من خلال النافذة ولكن كمراسل تليفزيون يجب عليك ان تخرج وتلتقط فيلما». كان الجميع يهزون رؤوسهم تصديقا لكلامه وهم يفكرون بلا شك بمراسل الاى بى سى، بوب وودرف ومصوره دوج فوكت اللذين اصيبا حين كانا فى دورية. قال كوسوفاك «لكنا نعتمد على بدائلنا العراقيين الذين تعلمنا ان نثق بهم. انهم «نسخنا الاصلية» ولكن مع ذلك فهم فلترات (مرشحات)».

يقع مكتب بغداد لهيئة الاذاعة البريطانية بى بى سى فى الجوار فى فيلا قديمة كانت فى ثلاثينيات القرن الماضى مدرسة يهودية ومازالت نجمة داود فى تشكيلات بلاط الارضية وفى سور الشرفة الحديدى. ويقول رئيس المكتب الكندى المولد اوين لويد: «التحدى الذى نواجهه هنا هو كيفية الذهاب لتغطية الاخبار، ثم حين نذهب لانستطيع البقاء اكثر من ١٥ الى ٣٠ دقيقة. وفى النهاية يكون محور اهتمامنا على أمننا بقدر اهتمامنا بالحدث».

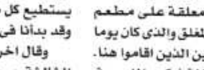
وسألت لويد كيف تتعامل البى بى سى مع هذه المشاكل فقال: «عندنا موظفون فى غرفة الأخبار مع أربعة عراقيين يسهلون عملنا. انهم من مذاهب إسلامية مختلفة ويعطوننا فكرة عما يجول بخاطر الناس فى مناطقهم. اننا لانستطيع ان نعمل بدونهم».

لقد مضت الأيام التى كان فيها الصحفيون يستطيعون التجول فى أنحاء العراق بعدم جلب الانتباه إليهم كأن يتنقلون بسيارات قديمة أو يطلقون شاربا مثل العراقيين أو يصبغون شعورهم الشقراء أو حين كانت الصحفيات ينشدن السلامة بارتداء عباءات سوداء وحجاب. حين ارادت جيل كارول مراسلة كريستيان ساينس مونيتور اتباع هذه التكتيكات فى يناير اختطفت بينما كانت تحاول ان تجرى حوارا مع السياسى السنى عدنان الدليمى.

الدرس الذى تعلمه الصحفيون فى هذه الاوضاع غير المسبوقة هو الاعتماد بشكل متزايد على الموظفين العراقيين - لقراءة الصحف العربية وقيادة السيارات وتسهيل الامور والبحث والترجمة وكتابة التقارير الصحفية وقد عينتهم المكاتب الكبرى فى انحاء البلاد او فى الوزارات الحكومية المهمة.

كتبت فرناز فصيحى كيف انها فى وول ستريت جورنال بدأت «الاعتماد بشدة على موظفينا لاجراء المقابلات وتغطية الاحداث فى الشارع والقيام بدور عيوننا وآذاننا فى بغداد».

فى المناسبات استطاع الفريق المحلى للواشنطن بوست «اقناع العراقيين للمجيء الى الفندق واجراء الحوارات مما يعطينى فرصة للتفاعل الشخصى مع المصادر، كان هذا ماكتبته جاكى سبنر رئيسة مكتب بغداد للواشنطن بوست السابقة فى كتابها الذى سينشر قريبا بعنوان (قل لهم اننى لم ابك) وقد روت كيف انها «قضت ليالى تكتب تقارير ملفقة من اخبار جمعها الفريق العراقى، سبيلى الوحيد للحرب.. خارج نافذتى». ■



ثمن البقاء فى بغداد هو ان تتخذ بدلاء عراقيين لانجاز المزيد من المهام من قيادة السيارات الى التبضع الى الحصول على تأشيرات مغادرة وبطاقات السفر و.. كتابة التقارير الصحفية

قنـــاة تحـــدّت العـــالم

■■ آخر ما كنت أظن أن أفعله هو أن أكتب عن الإعلام أو الفضائيات العربية بصفة خاصة. فقد أسقطت هذا الموضوع من دائرة اهتمامى بعد أن سقط من دائرة احترامى منذ فترة طويلة. كنت فى نفس الوقت أحسد أو بالأحرى أغبط قطاعاً من الصحافة والإعلام الغربى خصوصاً الـ «بى بى سى»... وكنت فى فترة من الزمن حريصاً على متابعة ما تبثه القناة وما تنشره الصحف عن حرب البوسنة ثم حرب كوسوفا.

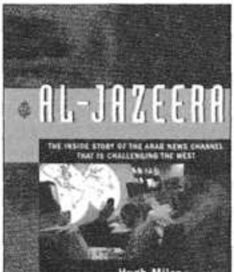
لطالما كنت معجباً بجرأة بعض الصحفيين الإنجليز والأمريكيين الذين غامروا بحياتهم فى حرب البوسنة بحثاً عن الحقيقة ونشرها فى العالم. ولازلت أذكر اسم الصحفى الأمريكى «جوتمان» الذى تمكن من الكشف عن معسكرات الإبادة الصربية للمسلمين وصور ضحاياهم، ورأينا هياكل آدمية جلداً على عظم، تتحرك خلف الأسلاك الشائكة كأنها أشباح من عالم آخر.. ولولا هؤلاء الصحفيين والمصورين الشجعان ما عرفنا حقيقة ما يدور فى أعماق البوسنة المنكوبة.

فى نفس الوقت كنت أتحسر على أنه لا يوجد صحفى عربى واحد لديه من الشجاعة والدربة والرجولة لكى يذهب إلى البوسنة وينقل إلينا أخبارها، ولا توجد مؤسسة صحفية أو إعلامية عربية واحدة لديها الجرأة والمبادرة ولا حتى الرغبة فى معرفة حقيقة ما يجرى هناك بنفسها.

من أجل ذلك اقتنعت أو أقنعت نفسى بأنه لا شىء فى هذا الإعلام العربى جدير بالاهتمام أو الاحترام.. وأنه لا أمل هناك. حتى جاء الغزو الأمريكى لأفغانستان وهبط علينا شىء اسمه «الجزيرة» من حيث لا ندرى. فقد كانت كل صور الحرب تظهر على شاشة الـ «بى بى سى» والـ «سى إن إن» وعليها شعار عربى فى ركنها الأسفل باسم «الجزيرة»... فما معنى هذا؟.. معناه أولاً أن الفضائيتين البريطانية والأمريكية على شهرتهما وضخامتهما ليس لهما مراسلون فى الحرب الأفغانية. وأن مصدرهما الوحيد للأخبار هو فضائية جديدة تصادف أنها عربية واسمها الجزيرة، وأنها سبقت وانفردت دون فضائيات العالم كله بتصوير وبث أخبار هذه الحرب، والمعنى الثانى هو أن هذه الجزيرة موضع ثقة ملحوظة من

Al Gazeera: How Arab TV News Challenges The West
(الجزيرة: كيف تحدى تليفزيون عربى الغرب؟)

Hugh Miles
Grove Press, 448PP, $15.60, 2005





الفضائيتين العالميتين المذكورتين وإلا ما بثتا عنها صورها وأخبارها.

تعزز هذا الموقف عندى بعد لقاء جمعنى بالصدفة مع أحد الوزراء المخضرمين، كنت قد عرفته والتقيت به كثيراً فى جامعة قطر خلال عقد الثمانينيات. أما المناسبة فكانت حفل عشاء فى فرح ابن صديق آخر كان أستاذاً فى كلية الهندسة بنفس الجامعة هو الدكتور شاهين، ثم أصبح اللورد شاهين بعد ذلك، ولهذا قصة أخرى.. كنا ثمانية جمعنا لورد شاهين على مائدة واحدة لعلنا نسترجع ذكريات طيبة فى جامعة قطر.. كانوا أساتذة فى كلية الهندسة فيما عدا واحد أصبح وزيراً، وكنت فى ذلك الوقت منتدباً من منظمة اليونسكو للمساهمة فى تصميم وتجهيز مكتبات جديدة لجامعة قطر ثم إدارتها بعد ذلك..

عهدى بالسيد الوزير أنه كان أكاديمياً متميزاً له مؤلفات مرموقة ويتمتع بسمعة جيدة.. تطرقنا فى الحديث إلى موضوعات شتى حتى طفت على السطح سيرة قناة الجزيرة، فإذا به يشكك فى نوايا القناة ومصادر تمويلها.

فى الحقيقة كان هذا اللقاء نقطة تحول فى اهتمامى بالجزيرة فبدأت أجمع عنها معلومات وأتابع فى نفس الوقت برامجها وأساليب صحفييها فى الحوار واختيار الشخصيات والموضوعات.

وعدت أبحث عن أمر «قناة الجزيرة» فى كل ما هو متاح من مصادر المعرفة.. وكانت حصيلتى المبدئية ١٤٠ مقالة فى صحف أوروبية وأمريكية وثلاثة كتب باللغة الإنجليزية.. عجيب هذا الاهتمام العالمى بأمر قناة عربية فى بلد لا يزيد عدد سكانه على نصف مليون نسمة! هل يستطيع أحد أن يدلنى على مقالة واحدة ذات قيمة عن قنواتنا الفضائية الأخرى.

لقد عشت فى بلاد كثيرة مثل بريطانيا واستراليا وبلاد أخرى مثل الفلبين و«الواق واق» فلم أر تليفزيوناتهم تهتم فى نشراتها الإخبارية بصاحبة الجلالة ولا صاحب المعالى رئيس الوزراء وهم يمارسون أنشطتهم الروتينية، لأن هذه لا تشكل خبراً يستحق الاهتمام، اللهم إلا فى حالتين: أن يكون لقاءً بعد خصومة وقطيعة، أو ما يسمونه فى مجلس العموم البريطانى «ساعة الأسئلة»... وما تشاهده فى هذه الساعة عملية جلد حقيقية لرئيس الوزراء ومحاسبته من قبل المعارضة على كل صغيرة وكبيرة.

الجزيرة إذن ظاهرة فريدة فى الإعلام العربى ولم أشعر بندم أو خيبة أمل أننى قضيت بضعة أشهر أقرأ وأقلب فى الوثائق والكتب والمقالات بحثاً عن سر قوة هذه القناة.

محمد يوسف عدس

ربما أفضل ما قرأت فى هذا المجال هو كتاب بعنوان: «الجزيرة ـ كيف تحدت قناة إخبارية عربية الغرب» مؤلفه «هيو مايلز» نشر سنة ٢٠٠٥م ويحتوى على ٤٣٨ صفحة.. والمؤلف صحفى إنجليزى يكتب مقالاً أسبوعياً لإحدى المجلات المتخصصة فى بريطانيا، ولكنه يعمل فى نفس الوقت فى شبكة «سكاى نيوز» الإخبارية بلندن.. يقول عن وظيفته إنه كان يشاهد ويراقب القنوات المنافسة الأخرى، ويرصد كل صورة تنطوى على خبر مهم، ويتأكد أن سكاى نيوز لم تهمل أو تفتقد الحصول على هذه الصورة الهامة.

عندما بدأت الحرب الأمريكية على العراق تغيرت نوبته فى المراقبة فأصبحت ١٢ ساعة تبدأ الساعة السابعة مساء وتنتهى الساعة السابعة صباحاً، يسجل فيها صور الجزيرة لبثها فى نشرات أخبار قناة «سكاى نيوز».. يقول مايلز: كانت مشاهدة هذه الصور على مدار ١٢ ساعة متواصلة كل ليلة حتى الصباح عملية مرهقة خلفت طنيناً دائماً فى رأسى واستغرقت جهازى العصبى استغراقاً كاملاً، لدرجة أننى لم أعد قادراً على متابعة واجباتى الأخرى فى الكتابة للصحيفة التى كنت مرتبطاً بها.. فقد كان على أن أكتب مقالاً أسبوعياً لمجلة «لندن ريفيو أوف بوكس»، ولكننى كلما جلست للكتابة لا أرى أمامى سوى صور الحرب فى العراق.. كنت كمن يدور حول نفسه.. حتى النوم أصبح متعذراً على رغم طول السهر.. فإذا حل فجأة استلقيت كالمغشى عليه.. وعندئذ تهاجمنى أحلام كالكوابيس منسوجة بصور ومشاهد الحرب التى رأيتها فى الليلة السابقة. فلما علم رئيس التحرير بحالى اقترح على أن أطرح الموضوع الأصلى وأن أكتب عن تجربتى فى مشاهدة الحرب على قناة الجزيرة.

يقول مايلز: «هكذا بدأ اهتمامى ومنطلق بحثى حول هذه القناة.. انحصرت مقالتى الأولى عن الجزيرة فى كيفية تغطية هذه القناة للحرب فى العراق وعندما انتهيت من كتابة المقالة وجدت نفسى أمام أسئلة أكثر من الإجابات: من الذى بدأ هذه القناة؟ ولم ظهرت الآن بالذات؟ كيف يتم تمويلها؟ ما هى حقيقة علاقة الجزيرة بأسامة بن لادن؟ ما هى علاقتها بالمقاومة العراقية؟.. كثير من الصحفيين فى الغرب اعتبروا ظهور الجزيرة وما تقوم به فى المجتمعات العربية والإسلامية مثل ظهور كتاب جورباتشوف فى الاتحاد السوفيتى بعنوان «المصارحة»، ولذلك أطلقوا عليها «المصارحة العربية»، فهل هذا صحيح؟.. وماذا يعتقد العرب أنفسهم فى وضع الجزيرة عندهم؟.. هل حقيقة تحرك هذه الفضائية البلاد العربية نحو الديمقراطية كما يزعم البعض؟.. أم أنها مجرد تنفيس بديل عن الديمقراطية؟

أسئلة تبدو سهلة ولكن من يعرف طبيعة البلاد العربية وإمكاناتها الإعلامية يدرك أن المسألة ليست بهذه السهولة.. ففى العالم الغربى تستطيع وأنت جالس أمام جهاز الحاسب الآلى أن تحصل ـ بضغط بعض المفاتيح ـ على معلومات وإحصاءات عن أى موضوع تريد بحثه، أما فى العالم العربى فليس هناك دراسات ولا إحصاءات عن أى جانب من جوانب الإعلام.. مثلاً هل تستطيع أن تجد أى دراسة أو أرقام عن بدو سيناء فيما يتعلق بمشاهداتهم التليفزيونية؟ أى قنوات يفضلون.. وكم ساعة يقضونها أمام برامج فضائية معينة؟ وما رأيهم فيها؟.. لا شىء!

يقول هيو مايلز: إن توجيه مثل هذه الأسئلة إلى الناس فى العالم العربى تعتبرها السلطات جريمة يمكن أن تؤدى بك إلى السجن.. فالمجتمعات العربية مجتمعات غير شفافة والإحصاءات والدراسات السكانية كالأسرار ليست جزءاً من الحياة العادية.. والطريقة الوحيدة لكى أعرف كيف تُستقبل الجزيرة وما تأثيرها على الناس؟ هو أن أذهب بنفسى إلى العالم العربى.. ومن هنا بدأت مهمتى الاستطلاعية حول العالم التقيت فيها إلى جانب موظفى الجزيرة بعشرات من الشخصيات من مختلف المهن من المثقفين والسياسيين.. والصحفيين والإعلاميين.. ومن الناس العاديين فى أماكن تجمعاتهم وأنشطتهم الاجتماعية مؤيدين ومعارضين ولا مبالين.

فماذا وصل إليه مايلز فى دراسته وبحثه من حقائق عن قناة الجزيرة؟

فى مارس سنة ١٩٨٨ ألغى أمير قطر وزارة الإعلام وألغى الرقابة نهائياً على الإذاعة والتليفزيون والصحافة والنشر.. فبين عشية وضحاها لم تعد ملكاً خاصاً للدولة وإنما مؤسسات حرة مستقلة من حقها تعيين من تشاء وتفعل ما تريد دون الحصول على إذن من السلطات الحكومية.

منح الأمير قناة الجزيرة الناشئة ١٣٧ مليون دولار على شكل سلفة تنفق منها خلال خمس سنوات.. بدون فوائد.. على أمل أن تستطيع الجزيرة بعد هذه المدة أن تقوم بتمويل نفسها بنفسها من الإعلانات ومن عوائد بيع منتجاتها الإعلامية.

ولكى يحسم شبهة التمويل من البداية يقول هيو مايلز: إن قناة الـ «بى بى سى» تعتمد فى جزء كبير من ميزانيتها على منحة من الحكومة البريطانية ولكن لا سلطان لهذه الحكومة على المؤسسة إطلاقاً.. بل فى واقع الأمر هناك خلافات سياسية وإدارية كثيرة بين المؤسسة وبين الحكومة.. ويمكن أن تصبح العلاقة بين الجزيرة وبين حكومة قطر على غرار العلاقة بين الـ «بى بى سى» والحكومة البريطانية.

كنت أتحسر على أنه لا يوجد صحفى عربى واحد لديه من الشجاعة والدربة والرجولة لكى يذهب إلى البوسنة وينقل إلينا أخبارها

ولكن هناك.. فى نشأة الجزيرة وقصة تشكيلها شق غير معروف بدأ فى زمن آخر ومكان آخر.

أما الزمن فهو مارس ١٩٩٤م وأما المكان فهو لندن.. فى هذا التاريخ تم التوقيع على عقد اتفاق بين أمير سعودى وإدارة الـ «بى بى سى» على إنشاء قناة فضائية ناطقة باللغة العربية يمولها هو ممثلاً عن شركة أوربيت.. تبث من مكاتب الـ «بى بى سى» فى لندن، وتكون على نفس المستوى من الأداء المهنى بشرط مراعاة الحساسية الثقافية للمنطقة العربية.. ومن هنا بدأ الخلاف يدب حول من تكون له السيطرة على تحرير المواد.. و انطلقت أولى شرارات هذا الخلاف مع ظهور أستاذ جامعى سعودى اسمه «محمد المسعرى» كان يرأس لجنة حقوق الإنسان.. قامت السلطات السعودية بإلغائها فلجأ إلى لندن ليتخذها مقراً للجنته.. كان يصدر بيانات معادية للأسرة الحاكمة فى السعودية، مطالباً بحكم إسلامى حقيقى.. فى أثناء حواره فى القناة حدث إظلام تام وانقطع الاتصال.. فغضبت الـ «بى بى سى».. وازداد الخلاف حول التحرير وتفجرت الخلافات بين الحكومتين السعودية والبريطانية حيث طالب السفير السعودى بطرد الدكتور المسعرى من بريطانيا فوراً وإلا ستقوم حكومته بإلغاء عقود أسلحة بمليارات الجنيهات الاسترلينية.. استطاعت الحكومة البريطانية احتواء الموضوع.. ثم جاءت الضربة القاضية بعد ذلك ببضعة شهور، عندما أذاعت قناة «أوربيت» فيلماً وثائقياً بعنوان «موت مبدأ»: ظهرت فيه امرأة فلبينية تحكى قصة جلدها فى السعودية لخروجها مع أصدقاء من الرجال.. ثم ظهر رجل على وشك أن ينفذ فيه حكم الإعدام بقطع الرأس.. وقبل هبوط السيف على رقبة الرجل قطع الإرسال مرة أخرى وماتت القناة بالسكتة الدماغية بعد ثمانية عشر شهراً فقط من بداية إرسالها.. وحل محلها قناة دزنى.

فى ذلك الوقت كانت قطر تبحث عن إعلاميين على مستوى متميز لفضائية جديدة تحت الإنشاء اسمها «الجزيرة».. وهكذا وقع ١٢٠ إعلامياً من هؤلاء عقوداً مع الجزيرة.. بدأ إرسالها فى يناير ١٩٩٧ لمدة ست ساعات يومياً واليوم أصبحت الجزيرة تبث ٢٤ ساعة فى اليوم، وصاحب ذلك انتشار هائل لأطباق الاستقبال فى العالم العربى ولم تعد الجزيرة وحدها هى الفضائية العربية على الساحة بل صحبها ولحق بها فضائيات عربية كثيرة.. ولكن تبقى الجزيرة شيئاً متميزاً بين كل هذه الفضائيات.

هيو مايلز يتحدث تفصيلاً عن برامج الجزيرة ومذيعيها الذين صاروا نجوماً.. ثم يتوقف طويلاً عند برنامج «الاتجاه المعاكس» الذى أحدث هزة عنيفة فى الأوساط الفكرية والسياسية، وتسبب فى قطع العلاقات الدبلوماسية بين قطر ودول الجوار.. فالبرنامج شديد التطرف شديد الصراحة بدرجة غير مألوفة فى بلاد العرب.. ولذلك استقبله الناس بمزيج من الدهشة والصدمة.

لم تمض إلا فترة قصيرة على البرنامج حتى اعتاده الناس.. وإن كان البعض يفضل الحوار الأكاديمى الهادئ على هذا الصدام الهائج، وكان طبيعياً أن يختلف المشاهدون حول البرنامج، فمنهم من رأى أن ما يحدث فى هذا البرنامج إفراز طبيعى لمجتمعات فكرية عاشت قروناً يرفض

بعضها البعض الآخر.. وظاهرة لنوع من المثقفين لم يعتادوا على الحوار الديمقراطي، كل واحد يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة وأن خصمه ليس على شيء.. فريق من المشاهدين يرى أنها خطوة نحو الديمقراطية.. وفريق آخر لا يرى فى هذا البرنامج إلا «ماتش» شتائم ومهاترات بلا هدف.

الآن وقد أصبح لهذا البرنامج شعبية كاسحة بدأت بعض الفضائيات العربية تقلده على استحياء.

يقول هيو مايلز: فى الحقيقة إن ما يقال فى البرنامج كان يدور بين العرب خلف الأبواب المغلقة لسنوات عديدة.. والجديد الذى حدث فى الجزيرة هو أن ما كان يدور خلف الأبواب أصبح يقال بصراحة على شاشات التليفزيون، وهذا ما لم يكن معتاداً فى حياة العرب السياسية التى تحفل بقدر كبير من المحرمات والمقدسات التى لا تمس.. بقدوم الجزيرة لم يعد هناك - فى هذا المجال - شىء مقدس.. كل شىء أصبح قابلاً للنقاش والأخذ والرد فيه على الملأ.. فقد ناقش ضيوف الاتجاه المعاكس: هل الكويت فعلاً جزء من العراق؟.. هل إنشاء دولة الأردن كان جزءاً من المشروع الصهيوني في المنطقة؟ هل تعانى الأسرة الحاكمة السعودية من فساد؟ هل يصح أن تمنح الدول العربية قواعد عسكرية للأجانب على أراضيها؟.. هل هناك نظم ديمقراطية فى العالم العربى أم أن كل الحكومات فيه مستبدة بدرجات متفاوتة؟

ويلاحظ الكاتب البريطانى أن سجل القنوات العربية رسمية كانت أو مستقلة جميعها بلا استثناء لم تعر الشيخ أحمد ياسين - رغم مكانته فى النضال الفلسطينى - أى اهتمام حتى جاءت الجزيرة فظهر فيها لأول مرة فى عدة برامج. ارتفع فى الجزيرة صوت الأقليات المسكوت عنها.. وظهر أصلان مسخادوف رئيس جمهورية الشيشان الذى أهملته كل الفضائيات العربية وأصدر نداء للأمم المتحدة وأمريكا للتدخل لدى روسيا لإنقاذ الشعب الشيشانى من العدوان الروسى..

الغرب يستمع:

مع مرور الوقت واتساع شهرة الجزيرة بدا لبعض القيادات العربية أن الظهور على شاشتها يكسبهم ثقة الجماهير.

وفى سنة ١٩٩٧ بدأت الجزيرة علاقاتها مع شعب العراق المحاصر الذى أهمله العرب إهمالاً تاماً وأسقطوه من حسابهم، بينما كان يعانى ويلات الحصار الاقتصادى والقصف المتواصل والأمراض المتفشية بسبب التلوث وسوء التغذية.

وفى ١٦ ديسمبر سنة ١٩٩٨ وفى بداية شهر رمضان الكريم شنت أمريكا غارة مكثفة باسم «ثعلب الصحراء»... وكانت الجزيرة هى القناة الفضائية الوحيدة فى قلب بغداد شاهدة على موجات لصواريخ كروز الموجهة بأشعة الليزر إلى مئات الأهداف فى العاصمة العربية.. وفى غضون ١٥ دقيقة فقط من بدء الهجوم الأمريكى كانت صور الجزيرة تبث على شاشات التلفزة العالمية، ولم تلبث التايمز اللندنية أن نشرت فى ١٨ ديسمبر على صفحتها الأولى صور الجزيرة.. وكان هذا السبق الصحفى أول خطوة نحو الشهرة العالمية.

قبل ذلك لم يكن الغرب يسمع عن هذه الجزيرة شيئاً. فلما ظهر فيها صدام حسين فى خطاب موجه إلى العالم فى يناير سنة ٢٠٠٠ اعتبرها الغرب محطة صدام ثم بعد ذلك محطة بن لادن عندما بدأت تبث بياناته ورسائله.

وحقيقة الأمر أن «الجزيرة» لم تكن أول محطة تلتقى مع بن لادن وإنما سبقتها الـ ABC الأمريكية فى يناير ١٩٩٩، ولكن لم ينتقدها أحد أو يلتفت إليها. فلما أعلنت الجزيرة أنها سجلت مقابلة خاصة مع أسامة بن لادن وسوف تبثها اعتبر العالم أن هذه جريمة منكرة.

ثم جاء اليوم الموعود لبث تسجيل بن لادن فى الجزيرة واحتشد ملايين المشاهدين أمام شاشات التليفزيون لسماع خطاب بن لادن كان بن لادن معارضاً قوياً للوجود العسكرى فى أراضى الجزيرة العربية ومن ثم أعلن فى خطابه الجهاد ضد أمريكا واستشاطت الكويت والسعودية غضباً، واعتبرت أن خطاب بن لادن جريمة لا تغتفر.

كان الإعلام القطرى محرماً عليه دخول السعودية إلا فى حالتين: عند زيارة أميرها إلى السعودية أو فى موسم الحج لبث شعائره.. ولكن بعد إذاعة الشريط المشئوم أصبح دخول الجزيرة إلى السعودية محرماً قطعياً.

لم تكن إذاعة شرائط بن لادن وحدها هى السبب فى القطيعة بل هناك أسباب أخرى.. فقد استنكر وزير الإعلام السعودى أيامها ظهور صدام حسين فى الجزيرة وقال إن هذه القناة تقدم السم على طبق من فضة.. ثم حاول التشكيك فى نشأتها ومقاصدها فقال: إننا نعلم أن هذه المحطة وليدة الإذاعة البريطانية.. ونعلم من يقف وراءها ويمولها.. وفى مايو ١٩٩٩ ظهرت مقالات صحفية فى السعودية تتهم الجزيرة بأنها تفبرك الأخبار وتتدخل فى الشئون الداخلية للدول.. وشن أئمة المساجد حملة على الجزيرة لأنها تفسد أخلاق العرب! وأصدروا فتوى بتحريم ظهور السعوديين فى هذه القناة.

وأبداً لم يكن بين الحكومات العربية من هو على استعداد لأن يصدق الموقف القطرى الدائم والمعلن «أن هذه مؤسسة حرة وهى مسئولة عن أفعالها ولا تتدخل فى شئونها» والسبب على الأرجح هو أن الأنظمة العربية تسيطر على الإعلام فيها وتتدخل فى شئون القنوات المستقلة وتمنع ظهور شخصيات بعينها فى هذه القنوات.

ومن هذا المنطلق لم يصدق أحد حكومة قطر واعتبروها مسئولة عن كل كلمة تبث فى الجزيرة.. وبدا أن جميع القادة العرب قد شعروا بخطورة هذه القناة وبهذا القدر الهائل من الحرية والصراحة التى يتحدث بها الناس عن استبدادهم وفسادهم.. لذلك حمل على الجزيرة قادة العرب وأشاروا إليها بأصابع الشك واتهموها بتبنى أيديولوجيات مختلفة فتارة هى بعثية صدامية وتارة أخرى هى إسلامية متطرفة عميلة لابن لادن.. وتارة ثالثة هى إسرائيلية صهيونية.. وظلت الشكاوى تنهال على الجزيرة بشكل متواصل من الحكومات العربية.. وبلغ الغضب من الرئيس القذافى أن سحب سفيره من قطر بعد أن اتهمه أحد الليبيين الضيوف بأنه ديكتاتور!

يقول هيو مايلز: الحقيقة أن كل هذه الاتهامات على فداحتها لا يوجد دليل واحد عند أصحابها يؤكدها.. ولكن المشكلة الحقيقية فى عقول هؤلاء لأنهم لم يتصوروا ولا يريدون أن يتصوروا أنه من الممكن أن توجد قناة عربية أو مؤسسة إخبارية مهنية على أى مستوى من الحرية الحقيقية والاستقلال فى العالم العربى.

لقد حاولت الحكومات العربية تكتيف الجزيرة ومحاصرتها وإعاقة الإرسال فيها إلى حد دفع بعضها إلى اللجوء إلى إجراءات شديدة التطرف شديدة الغرابة.. ففى يناير ١٩٩٩ كان برنامج الاتجاه المعاكس يستضيف صحفياً جزائرياً منفياً وكان الموضوع يدور حول الحرب الأهلية فى الجزائر التى ذهب ضحيتها مائة ألف إنسان.. وكان معروفاً مسبقاً أن هذا الصحفى يتهم الحكومة الجزائرية وجنرالات جيشها بانتهاك حقوق الإنسان فى الجزائر على نطاق واسع، وأن معظم القتلى ضحايا لإرهاب الدولة وأن رجال الأمن هم المسئولون عن هذه الجرائم البشعة.. وخوفاً من أن يتطرق البرنامج فى مناقشاته إلى تفاصيل وحقائق تراها الحكومة الجزائرية مسائل حساسة قامت بقطع التيار الكهربائى عن العاصمة وعن مدن الجزائر الأخرى(!)

كذلك كانت الجزيرة تأمل فى الحصول على شطر من كعكة الإعلانات العربية التى بلغت مئات الملايين من الدولارات لتغطى نفقاتها وتستغنى بذلك نهائياً عن أى مساعدات مالية تأتيها من أمير قطر.. ولكن الدول العربية قاطعتها لعلها تضطر فى النهاية إلى إغلاق أبوابها وتصفية نفسها.

الانتفاضة الفلسطينية

من بين صور الجزيرة التى أثارت الشارع فى البلاد العربية وانتشرت على كل شاشات التلفزة العالمية وعلى الصفحات الأولى للصحف. صورة مقتل الطفل محمد الدرة الذى كان يتحصن فى صدر أبيه عندما أطلق عليه جندى إسرائيلى رصاصة أردته قتيلاً فى حجر أبيه المصاب.

شعر الإسرائيليون بأنهم يواجهون لأول مرة معركة إعلامية حقيقية من قناة تليفزيونية مقتدرة، لديها صحفيون على مستوى عال من الاحتراف المهنى والشجاعة فى اقتحام المخاطر بحثاً عن الحقائق.. وهو شىء لم تعتد عليه من الإعلام العربى العاجز المدجن.. ومن ثم بدأت إسرائيل تتربص بالجزيرة وتحاصرها.

يقول هيو مايلز: لا شك أن حملة الجزيرة وصورها لم تحرك الشارع العربى

من الذى بدأ هذه القناة؟
ولم ظهرت الآن بالذات؟ كيف يتم تمويلها؟
ما هى حقيقة علاقة الجزيرة بأسامة بن لادن؟
ما هى علاقتها بالمقاومة العراقية؟

فقط ولكنها حركت القادة فعقدوا قمة عربية وقرروا دعم الفلسطينيين بمليار دولار وسحبت مصر سفيرها من إسرائيل.. وفي هذا يقول مايلز: إن الرئيس مبارك قال لمستشاريه إنه لا يستطيع أن يتحمل صور الأطفال الفلسطينيين يقتلون وهم يواجهون الجنود الإسرائيليين بسلاح الحجارة.. لابد أن أفعل شيئاً.

ويشير مايلز إلى أن صور الجزيرة اخترقت الحواجز والمسافات ووصلت رسالتها إلى المواطنين العاديين في أعماق القرى من إندونيسيا إلى المغرب العربي كأقوى ما تكون.. «لقد أحدثت الجزيرة ثورة في العالم العربي وأصبح بفضلها كل شيء مكشوفاً فلم يعد في الإمكان إخفاء أي شيء عن الجماهير».

كان يمكن في الماضي أن يدك نظام دكتاتوري مدينة يعتبرها متمردة مثل مدينة حلب ويقتل من أبناء شعبه عشرات الألوف ولا تجد حساً ولا خبراً في الإعلام العربي.

والسؤال هو: هل يمكن أن يحدث ما وقع لحلب الآن في وجود الجزيرة دون أن يعرف به العالم وفي حين وقوعه؟ أظن أن هذا أصبح مستحيلاً.. إنها ثورة في الإعلام العربي كما يقول هيو مايلز.

.. أمـريـكـا

استطاعت الولايات المتحدة أن تحشد تأييداً عالمياً هائلاً على خلفية الهجوم على برجي مركز التجارة العالمي في نيويورك في ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ولكن سرعان ما فقدت هذا التعاطف العالمي.. وذلك.. فيما يؤكد هيو مايلز.. بسبب الصور التي بثتها الجزيرة على العالم عن الغزو الأمريكي لأفغانستان.. فقد كانت الجزيرة هي القناة الوحيدة الموجودة في أفغانستان منذ حكم طالبان، واستطاعت أن تتابع أحداث الحرب وتصور الضربات الهائلة والتفجيرات المروعة التي لا مبرر لها على المناطق الآهلة بالسكان المدنيين، وقد أظهرت هذه الصور أعداداً كبيرة من القتلى والأشلاء لأطفال ونساء في مناطق بعيدة عن معسكرات وقوات طالبان، وأعطى هذا انطباعاً للعالم الخارجي أنها حرب هوجاء على شعب أعزل وليست على الإرهاب والإرهابيين كما زعمت أمريكا.

يقول هيو مايلز: كان القصف الأمريكي لمكتب الجزيرة في كابل رسالة واضحة للجزيرة أن ترحل من أفغانستان على الفور.. وبالفعل شرع فريق مراسلي الجزيرة وعلى رأسهم تيسير علوني يغادرون أفغانستان عبر ممرات جبلية وعرة نحو الحدود الباكستانية ليستقر بعد ذلك في العراق.. وليبث منها ملحمة أخرى يفضح فيها العدوان الأمريكي على العراق.. وكان يكفي تيسير علوني ما فعله في أفغانستان ليكتسب اللعنة الأمريكية التي لاحقته حتى استقر في سجون إسبانيا كما استقر زميله سامي الحاج رهينة في سجن جوانتانامو.

ذكريات عراقية:

بدأ الغزو الأمريكي للعراق في ١٩ مارس ٢٠٠٣ وسبق هذا بطبيعة الحال استعدادات عسكرية ضخمة وحشد قوات حول العراق وقواعد عسكرية في دول الجوار ومع كل هذه الاستعدادات العسكرية كان هناك استعدادات أخرى هائلة لحرب إعلامية شرسة، كان هناك إذاعة أمريكية تعمل بالفعل وتنطق باللغة العربية هي إذاعة «سوا»، كما كان تجهيز قناة تليفزيونية أمريكية ناطقة باللغة العربية قائماً على قدم وساق.. وهي قناة «الحرة»، ولكن البنتاجون لم يكتف بذلك وإنما جاء بترسانته الإعلامية الخاصة، فقد أحضر الجنرال فرانكس معه آخر ما في جعبة أمريكا من تكنولوجيا إلكترونية في البث والرسم والخرائط ليشرح للعالم تفاصيل الحرب الإمبريالية على العراق.

أما بالنسبة لتغطية أخبار الحرب وتصوير المعارك كان هناك الصحفيون «المرافقون»، كما دعا الرئيس بوش جميع رؤساء تحرير الصحف إلى البيت الأبيض حيث أوصاهم ألا ينشروا شيئاً يثبط من همم الجنود الأمريكيين الذين يؤدون واجباً وطنياً في العراق، وأن يمتنعوا عن نشر أي خبر يسيء إلى سمعة الجيش الأمريكي.

ولكي ينفرد رامسفيلد بالساحة الإعلامية أمر بوش جميع الصحفيين والمراسلين الأجانب قبل بدء الحرب بساعات بمغادرة العراق فخرجوا جميعاً.. وبقي فريق الجزيرة وحده يواجه مخاطر الحرب وينقل صورها إلى العالم الخارجي تحت عنوان: «العراق يحترق»، وتنقل من العراق أخبار بلدة صغيرة اسمها أم القصر تعدادها لا يزيد على خمسة آلاف نسمة.. تصمد أمام قوات التحالف أربعة أيام متواصلة. وفي قلب البصرة أثناء حصارها تكشف الجزيرة بالصور الحية فظائع القصف العشوائي على المدنيين.. صورة لطفل في المستشفى مقطوع الرأس.

كان مراسلو الجزيرة يقيمون بفندق شيراتون في البصرة وكان هذا معلوماً لدى القوات الأمريكية، ومع ذلك قصفت الفندق بأربعة صواريخ لإجبارهم على الرحيل من المدينة. ولم يمض وقت طويل حتي راح طارق أيوب مراسل الجزيرة في ٨ أبريل ٢٠٠٣ ضحية قصف أمريكي طال فندق فلسطين في قلب بغداد.

كان من أنجح أعمال الجزيرة في الفلوجة تصوير قناص أمريكي يقف على سطح أحد المنازل وهو يصوب بندقيته إلى نساء وأطفال ويمطرهم بالرصاص وهم يسيرون في الشارع.. ولم تمض إلا بضعة أيام حتى راح صحفي آخر من الجزيرة هو «رشيد حامد والي» كان يقف على سطح فندق بكربلاء للتصوير ضحية رصاصة اخترقت عينه وفجرت جمجمته.

هل تصنع الجزيرة ديمقراطية العالم العربي؟

يرى هيو مايلز أننا لابد من تحرير مسألة هامة قبل الخوض في الإجابة على هذا السؤال.. لأن هذا السؤال ينطوي على افتراض أن ما كان ينقص الشعوب العربية لتصنع ديمقراطيتها هو المعلومات.. ومادامت الجزيرة وغيرها من الفضائيات الأخرى الجديدة قد وفرت هذه المعلومات إذن فنحن نحقق لهم الديمقراطية.. وهذا كلام غير صحيح على إطلاقه.. فالواقع يقول إن السلطة، بعد ظهور الجزيرة، لاتزال مركزة في أيدي نفس الشخصيات والنخب القديمة التي لاتزال تسيطر على الأوضاع منذ عقود.

ربما كان السؤال الأنسب هو: هل تؤثر الجزيرة في عملية التحول إلى مجتمعات ديمقراطية في العالم العربي؟ هنا يمكن القول بأن الجزيرة لها تأثير كبير على العمليات والتوجهات الديمقراطية.. فالصحافة الحرة والإعلام الحر هما ركيزتان لا يمكن الاستغناء عنهما في التركيبة الديمقراطية. من هذا المنطلق دعنا نبحث ونحلل مع هيو مايلز التغييرات التي أحدثتها الجزيرة في وسط البركة العربية الآسنة.. يقول هيو مايلز: جرت عادة أصحاب السلطان عندما تستجد تكنولوجيا جديدة أن ينظروا فيها ليروا: هل هذه التكنولوجيا تضعف أو تقوى قبضتهم على الأوضاع؟ وقد نُظر إلى الفضائيات في أول الأمر نظرة مريبة ومن ثم قاومتها الحكومات في البداية ثم تراخت مقاومتها لعدم وجود وسيلة سهلة لكبح جماحها.. وهكذا بدأت تفكر في معالجات أخرى لاحتوائها.

وفي هذا يقول هيو مايلز: لا ينبغي أن تتوقع تغييراً حقيقياً في هذه الفضائيات طالما وُجد وزراء إعلام في السلطة لأن وجود وزير على رأس وسائل الإعلام معناه الرقابة والتدخل والقيود.

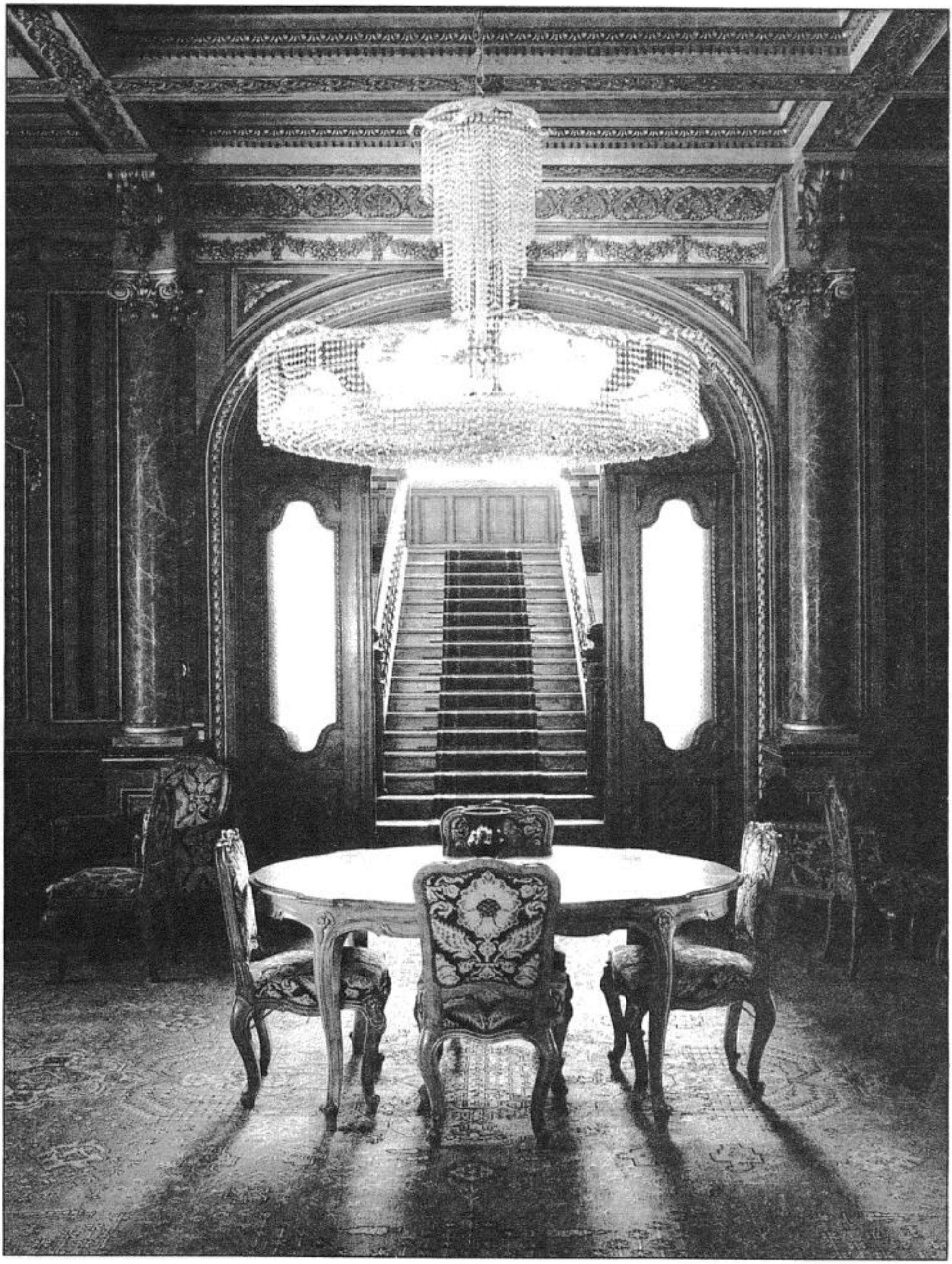
وكما ذكرنا رأت بعض الحكومات العربية الأخرى أن تنشئ قنوات تليفزيونية كاملة تنحو نفس منحى الجزيرة حتى لا تبقى وحدها متمتعة بخصوصية متميزة عن القنوات الأخرى..

ومما استجد أيضاً في المجال الإعلامي بفضل الجزيرة أنها أتاحت للناس العاديين أن يتحدثوا في السياسة بحرية ويعبروا عن همومهم وتطلعاتهم وغضبهم أحياناً وذلك خلال الهاتف أو عبر الفاكس وشبكة الإنترنت.

الجزيرة تتحدى العالم

تاريخ الجزيرة حافل بالاتهامات الموجهة إليها من كل جانب.. وفي هذا يقول هيو مايلز: «لقد عبر لي المسئولون العرب عن استيائهم لأن الجزيرة تستهدف الإساءة إليهم وتنحاز لإسرائيل.. وسمعت من المسئولين في الغرب أن الجزيرة تنشر الكراهية ضد أمريكا وضد إسرائيل! وتقول الجزيرة دفاعاً عن نفسها: إنها مجرد قناة إخبارية تقوم بواجبها وتعرف وظيفتها.. والاتهام بالتحيز مع أو ضد أي جهة هو مجرد هراء.. اتهام باطل لا دليل عليه.. إن ما نحاول عمله دائماً هو بث أخبار دقيقة قدر ما نستطيع، وننقل صورة الأحداث كاملة بكل أبعادها بقدر ما نستطيع.. ولكن يبدو أن أحداً لا يصدقنا!». ■

هل حقيقة تحرك هذه الفضائية البلاد العربية نحو الديمقراطية كما يزعم البعض؟.. أم أنها مجرد تنفيس بديل عن الديمقراطية؟



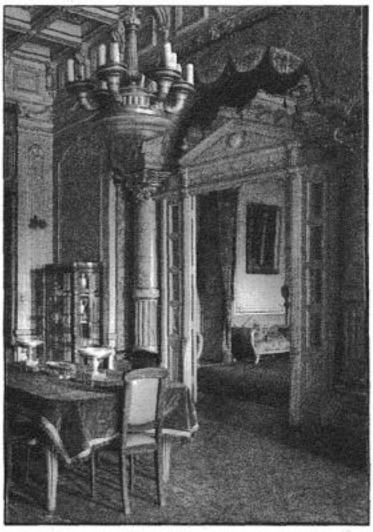


> على الصفحتين السابقتين:
منزل الشناوى
أضاف الحرفيون الإيطاليون إلى القاعة الرئيسة أكاليل الجص وألواحاً وتيجاناً وحوامل جدارية لمصابيح من البلّور فيما أشرفت القاعة على سلالم من الأبنوس أتت رأساً من إيطاليا.

سلالم قصر الزعفران
صمم أنطونيو لاسكياك السلالم بخطوط رشيقة على غرار أسلوب «الاستايل ليبرتى» فاحتلت السلالم الحديدية المزخرفة مكانة الأجمل بين مثيلاتها فى الشرق الأوسط.



جناح السلاملك بقصر المنتزه
تماشى السلاملك مع أحدث الطرز، إذ ضم أشغالاً من الزجاج الملون على غرار الأسلوب الإيطالى «ستايل ليبرتى».





سلاملك المصرى باشا
تتصدر القاعة الرئيسة ذات الأعمدة لوحة لسعيد باشا رسمها فنان إيطالى عام ١٨٩٥.

قصر جريس
سقف تحليه زخارف غائرة وقوصرة منقوشة تحيط بالمداخل وأرضيات من الباركيه تستدعى كلها حجرة الطعام المهيبة بقصر عابدين.

قصور مصرية

شيرلي جونستون
الصور: شريف سنبل

■■ عرض التليفزيون الرسمى المصرى منذ وقت ليس بالطويل مسلسلاً يدور حول قاهرة الأيام الخوالى فى العقد الأول من القرن العشرين، مسلسل زمن عماد الدين. كان شارع عماد الدين مقصداً وجيهاً على ذيوع صيته بين العامة يرتاده الفنانون والموسيقيون وتصطف على جانبيه المسارح والملاهى والمقاهى. إليه يختلف العامة والنخبة على السواء وغايتهم الاستماع إلى سيد درويش، ذلك المطرب الشاب الموهوب والعازف على العود الذى لا ينفك يقدره المصريون حتى يومنا هذا. قبلها بعدة سنوات لا غير، كان الشارع الرملى يقدم لمحة بسيطة عما ينتظره من مستقبل، خلا «قصر» أوروبى واحد وحيد ونادى الأمراء تنمقه الألواح الخشبية.

لكن ما هى إلا سنوات قلائل حتى شرع إرنيستو دى فارو فى العمل فى سد أسوان مع بداية القرن الجديد. كان يتخصص فى البناء بالأسمنت ويمتلك عدة مكاتب فى لندن وأعمالاً تجارية بالشرق الأوسط. وقد اصطحب معه نظاماً جديداً لتشييد المبانى بحيث تضم طوابق متعددة وترتكز على أرض لا تعرف الاستقرار، أمر لا يجب التقليل من اهميته فى مصر. غدت القاهرة على حين بغتة تتنامى شطر السماء، وبحلول عام ١٩١١، بات عماد الدين معلماً من معالم المدينة: يؤوى زوجاً من المبانى المشيدة على طراز مثيلاتها من حقبة إدوارد السابع لتتماثل مع فندق نجراسكو فى نيس!

كان الخديو الحاكم عباس حلمى الثانى، وقتئذ شاباً فى الثلاثين من عمره، متقد الحماسة لمبانيه الجديدة بشارع عماد الدين حتى إنه كان يتفحص مجرى العمل تقريباً كل يوم، فكان يصعد السقالات ويتخطى ما عمق من فجوات ويخطو بكل ثقة فوق الألواح المتذبذبة. فقد مثلت مبانى الخديو تلك لعباس حلمى ولمهندسه المعمارى أنطونيو لاسكياك انبعاثاً ثانياً لعصر النهضة الثقافية.

بنى جد عباس حلمى، الخديو إسماعيل، القاهرة الحديثة. إذ مكنه ازدهار تجارة القطن بداية الستينيات من القرن التاسع عشر من تحقيق بعض الأحلام الشامخة الخاصة بجده، محمد على باشا. صعد محمد على إلى السلطة بعد غزو نابليون بونابرت القصير لمصر، أقبلت تلك الشخصية المؤثرة ذات القوة والدهاء الشرقى: الألبانى القادم من كافالا بشمال اليونان، أقبل ليحكم مصر العثمانية بوصفه الوالى عليها عام ١٨٠٥، فكان يدفع للسلطان جزية سنوية فى مقابل أن تمتد هيمنته حتى السودان. وبعد أن وطد سلطته المستقلة جاعلاً نفسه وسلالته أسياداً بحق على الأرض، سيطر محمد على فى وقت من الأوقات على الجزيرة العربية وكريت وسوريا. ولسوف تستمر ما أسسه من سلالة حاكمة إلى أن يتنازل الملك فاروق، حفيد حفيده، عن العرش عام ١٩٥٢.

تخيل إسماعيل نفسه بوصفه «إمبراطوراً على إفريقيا»، «حارس الطريق الرئيس المؤدى إلى الهند والشرق. وعلى الرغم من ذلك، شغلت أوروبا تفكيره أغلب الوقت وذلك بعد أن أرسله جده إلى فرنسا فى الرابعة عشرة فى «بعثة دراسية». وقد خلفت تلك الإقامة المؤقتة انطباعاً لا يزول لديه. ذهب فى رحلة تالية عام ١٨٦٧ إلى المعرض العالمى بباريس حيث كان هاوسمان قد أضفى تعديلاته المعمارية، فأوقدت الرحلة «هوسه بالبناء» كما أعلن بنفسه. وكانت النتيجة، مثلما صرح المعمارى محمد عوض، مدير مركز دراسات الإسكندرية والبحر المتوسط بمكتبة الإسكندرية، «الازدهار الأول لسلسلة من الازدهارات».

لم يكتف الخديوى إسماعيل بالاندفاع إلى إنشاء مشروعات عامة ضخمة وتطوير مدنى بغية خلق قاهرة فخيمة تتجاوز حدود ما تبقى من مدن قديمة ترجع لأيام الفاطميين والمماليك والعثمانيين. إذ استهل كذلك مشروعات صناعية وزراعية شاملة: خطوط السكك الحديدية والطرق وخطوط التلغراف؛ الخدمات البريدية: السدود والقنوات؛ والمدارس. وقد رافقت تلك الخطوات حاجة ملحة إلى القصور. إذ كان إسماعيل آخر حاكم مصرى يحتفظ بحريم! فكانت سيداته فى حاجة إلى قصور شتوية وأخرى صيفية - تزينها شرفات وأروقة تسندها الأعمدة، وأفنية مفتوحة، هذا فضلاً عن المتنزهات والحدائق ذوات الأكشاك، والممرات والبرك والجداول، والجسور والكهوف الصناعية والشلالات. احتاجت السيدات أيضاً إلى إسطبلات ومطابخ وأبنية تابعة لينتفعن بها. كانت القصور ضرورية أيضاً لإقامة الحفلات والعروض المسرحية بغرض تكريم الصفوة الأوروبيين الذين شهدوا الحدث الرئيس فى القرن التاسع عشر - ألا وهو افتتاح إسماعيل المبهر لقناة السويس عام ١٨٦٩. وقد آتت القصور بثمارها. «لم أر مثل ما رأيت فى حياتى قط»، كتبت الإمبراطورة أوجين لزوجها نابليون الثالث فى فرنسا عقب زيارتها.

استجاب تيار متواصل من المعماريين والرسامين والمصممين وصانعى الأثاث من الساحل الشمالى للبحر المتوسط لدعوات زعيم حسن الضيافة والتباهى العثمانى المبجل. أتى الوافدون الجدد بالأثاث من أكاديميات إيطاليا وتفوقوا على فنانى وحرفيى محمد على الأوروبيين القدامى القادمين من الشطر الأوروبى لتركيا وجزر إيجه وساحل آسيا الصغرى والبلقان.

لا شك أن مهمة إيواء الخديو إسماعيل والأربع عشرة زوجة وأطفالهن لم تكن لتتحقق على خير وجه سوى من خلال السراى التركى - وهو مجمع سكنى يضم حجرات منفصلة لاستقبال الضيوف تسمى السلاملك، وأخرى للعائلة معروفة باسم الحرملك، وتعنى حرفياً «المنطقة المحظورة». وشأنهم شأن زملائهم العاملين فى اسطنبول، جلب المعماريون والحرفيون إلى مصر الأفكار الكلاسيكية بما تتضمنه من استخدام رخام مدينة كرارا لتزيين السلالم والمدافىء - فليالى الشتاء بأفريقيا تتميز هى الأخرى بالبرودة - وصالونات من الخشب الفرنسى المرصع والأرائك والكراسى عمودية الأظهر.

لكن هل كانت تلك حقاً مصر؟ ما هى إلا وقد اقتبست القاهرة كل ما هو حديث من باريس. غدت القناطر ذوات الفتحات أحدث صيحة. نفس الأمر جرى مع تطعيم الأسقف والأبواب بالخشب ذى الأشكال الهندسية والأسطح بما يتدلى منها من هوابط والأفاريز الأرابسك والفسيفساء الرخامى والقراميد الخزفية. كانت الموهبة الكامنة وراء ما تجدد من فوران شرقى الملامح هى موهبة الفنان الإيطالى جيوسيبى بارفيس. فمن داخل ورشه الكائنة بالقاهرة، تمكن من أن يحول الخشب والعاج وعرق اللؤلؤ والنحاس والبرونز والفضة والذهب لتصير أخونة وأصونة وكراسى باهرة الجمال وصناديق نفيسة. إن ما نسى من فن الفراعنة والبطالمة والخلفاء والمماليك قد مهد الطريق لنهضة حديثة تشى بالمجد. «إن هذا الرجل بمفرده لنهضة فى حد ذاته!» تعجب المؤرخ ل. أ. بالبونى فى بداية القرن العشرين. كان بارفيس ينقش على المواد الصلبة ويصيغ البرونز وينحت المنحوتات ويصنع الخزائن ويبدع تصاميم تغطى أساليبها شتى الأساليب، من الإسلامى والمصرى إلى تراث بومباى وعصر النهضة بل والأسلوب اليابانى. ولم يكتف بالعمل عند إسماعيل وحسب، إنما اشتغل مع جميع الولاة الجدد الكبار والمالكين الأجانب للفنادق الضخمة الجديدة. لا مجال للعجب إذن حين يفوز بارفيس بميدالية ذهبية فى معرض باريس عام ١٨٦٧ - لتلحق بها أوسمة فى ميلان وفيينا وأنتويرب وأمستردام وموطنه تورين وفيلادلفيا.

مقدمة كتاب:
Egyptian Palaces and Villas 1808-1960
(قصور وفيللات مصرية ١٨٠٨ ـ ١٩٦٠)
Shirley Johnston with Sherif Sonbol
Harry N. Abrams inc. New york 2006
The American University in Cairo 2006

ترجمة: هالة صلاح الدين حسين

قصور مصرية

أنتج بارفيس وأبناؤه ومعهم الأخوان جاكوفيللى من مدينة بارى «تنويعات مختلفة من الأثاث العربى الواجب تواجده داخل صالونات كل قصر أو صرح له حظوته»، كما لاحظ المعمارى ومؤرخ الفن الفرنسى مرسيديس فوليه. بل إن اللورد كرومر - عندما تولى القيادة بمجرد أن جاء البريطانيون لفرض «الحماية» على مصر - فتش عن الأخوين جاكوفيللى حتى يعيدا تصميم قنصليته تحسباً لزيارة مرتقبة من أمير ويلز. كما أضاف الأخوان جاكوفيللى لمساتهما السحرية على نادى الأمراء بشارع عماد الدين.

لا يزال ما رصع من صناديق هائلة الحجم يصطف بالممرات الطويلة العريضة فى قصر إسماعيل القائم بجزيرة الجزيرة على النيل. خُطط القصر على غرار قصر الحمرا وصممه خريج آخر من خريجى كلية الفنون التطبيقية بفيينا وأول رئيس لهيئة حفظ الآثار العربية فى مصر، المعمارى الألمانى يوليوس فرانز. كذلك لا تزال الشرفات الأندلسية المصنوعة من حديد الزهر، التى أبدعها كارل فون ديبيتش من برلين، على حالها وإن أصابها تغيير بفعل الزمن. وطبقاً لنيشا سورسوك، حفيد أحد الملاك الراحلين، «كانت خضراء اللون بلون الحديد، ولم تكن تتلون بذلك اللون الذهبى المصطنع».

الحق أن بعضاً من «قصور» إسماعيل عابها التسرع، إذ شيدت من تراكيب مكونة من شرائح خشبية كُسيت جصاً، تراكيب اختفت منذ وقتها اختفاء كلياً أو جزئياً. قرر ابن إسماعيل وخليفته، توفيق، الا ينتقل للعيش فى سراى الجزيرة وذلك عقب اكتشاف معمارى القصر فابريشيس باشا مدى ضعف الأسس. هدم نفس المعمارى، فابريشيس، كل هذه القصور عدا اثنين منها حتى يفسح المكان لنشأة مترفة امتلكها بعض السويسريين، فندق بهلر. واليوم تدير مؤسسة ماريوت القصر.

تخلى إسماعيل عن العرش فى النهاية. لكن قبل تنازله، كان قد حوّل مصر وثقافتها المعمارية تحويلاً شاملاً. «خالج المصريين منذ ذلك الوقت الفضول إلى الأوروبيين، فأمضوا قرناً ونصف قرن فى سبر هذا الفضول»، علق البروفيسور عوض المنتمى هو نفسه إلى عائلة انشأت قديماً الإسكندرية. وتُرجع كلماته صدى كلمات المؤرخ روبرت إلبرت فى فترة ما قبل العقد الثانى من القرن العشرين، عندما «سادت الانتقالية الأوروبية جميع المناهج».



سلاملك المانسترلى

سلاملك قصر المانسترلى يطل على منظر للنيل، جزيرة الروضة، القاهرة

إن ما لاحظه إلبرت من «تفوق للأساليب الإيطالية» يتضح كل الاتضاح فى الإسكندرية حيث لا تزال ماركة فيات هى الشائعة بين سيارات الأجرة. وقد ظهر هذا الولع بالملامح الإيطالية فيما «لاح من ذوق فخم، ولاسيما فى المساكن المهيبة الخاصة بالطبقة البورجوازية المحلية وفى مبان الشركات والبنوك الكبرى»، لأن هؤلاء الزبائن «اتصفوا بالحساسية الشديدة تجاه ما تخلفه الموضة من تأثيرات بحكم كونهم أوروبيين، ليس بسبب أصلهم إنما بسبب أسلوبهم فى العيش».

إن «العصر الذهبى» الذى منحنا شارع عماد الدين بمهرجان الواجهات المصنوعة من الجبس وزخارف الجص والرخام كان أيضاً عصراً لأصحاب الملايين الكبار الذين تفوقوا بسهولة على أصحاب المصانع الجديدة فى فرنسا! وقد تواصلت حماستهم إلى فترة ما بين الحربين العالميتين التى كانت، حسبما قال البروفيسور عوض، أكبر ازدهار على الإطلاق. «فبالنسبة لإلبرت كان ما بُنى من منازل فى تلك الفترة «أول الأعمال الحديثة العظيمة». إذ عكست «نشوة رائعة» بما قدمت من أسلوب الزخرفة الكثيفة الظاهرة فى الأعمال القديمة. شكلت تلك أيضاً تجديداً راديكالياً؛ فالمناهج والأذواق الجديدة المستمدة من النظام الفرنسى الذى ابتدره المهندس هينيبيك، أو نظام البناء بالأسمنت المسلح، أتاحت عام ١٩٢٧ لجوستاف بيريه، مصمم مسرح الشانزليزيه فى باريس، أن يصمم منزلاً فى الإسكندرية لزميله المعمارى جوستاف أجيون مستخدماً أسمنت خام بسيطاً وإن تحلى بالجمال.



منزل طوسون أبو جبل

صمم حسن فتحى مساحة لا يمكن اسكتشافها إلا بعد هبوط السلالم. مَن بوسعه أن يتوقع أن يلقى طابقاً ثانياً بجانب حجرات النوم يحوى فناء أندلسياً مفتوحاً تعبده القراميد وتتوسطه نافورة؟

وأين ذهب الأسلوب العربى؟ «هُدمت الكثير من هذه القصور والمنازل لإفساح المكان للعمارات الشاهقة»، كتب إلبرت. «بيد أن ذلك الأسلوب ظل عاملاً أساسياً عند إقامة المبانى العامة الكبرى حتى الثلاثينيات». واليوم نرى فى الصور الأبيض والأسود القديمة تلك الزخارف الشرقية المبهرة المميزة للمنزل المشيد على الطراز المملوكى بمدينة الإسماعيلية، المنزل الذى صممه المعمارى هيرتز باى من أجل الكونت أنطوان دو زوغيب فى بداية القرن. كان باى خريجاً لمعهد فيينا للفنون التطبيقية وخليفة فرانز باشا فى رئاسة الآثار العربية ومديراً للمتحف القومى للفن العربى. اشترى المنزل شخص ساع إلى التطوير وهدمه فألفى الأرض لا تحتمل ما عقد العزم عليه من بناء مرتفع. انتهى الحال بالمكان إلى أن أصبح الآن موقفاً ضخماً لانتظار السيارات.

إن غرضى من تقديم هذا الكتاب ليس التفجع على خسائر الماضى. فثمة العديد من الجواهر لا تزال قائمة: كنوز مثل قصر المنيل الخاص بالأمير محمد على توفيق، المكرس لعرض الفنون الإسلامية، وهو الآن متحف. هناك أيضاً الحضور الدائم لصاحب المصانع البلجيكى البارون إمبان و«مدينة الشمس» خاصته، هليوبوليس، صُممت فى بروكسل على غرار أحد التصاميم الأوروبية غير أنها زُخرفت لتتماشى مع هوى من أهواء سلطان شرقى ما فى ألف ليلة وليلة. ولا ننسى ابن البلد حسن فتحى ومنزله الإسلامى الحديث على ضاف النيل بالجيزة.

ثمة كذلك بقايا عديدة «لانتقائية إلبرت الكلية»، الجامعة بين التصميم الأوروبى وكل زخارف الفن الإسلامى التقليدية. بوسعنا أن نشاهدها فى المبنى المشيد على الطراز التوسكانى الذى بناه المعمارى أنطونيو لاسكياك - مصمم قصر عباس حلمى - من أجل الأمير يوسف كمال، فالمبنى يحوى صالونات تعبدها القراميد. بل إننا سنجد فى المنيا زعيماً للبدو أسس منزلاً به صالونات صممها الأخوة جاكوفيللى! اليوم يداخل المصريين فضول لا يقل عن فضول أسلافهم. لك أن تطالع الدليل فى كل مكان. فقد برزت مجتمعات تحدق بها البوابات لتضم فيلات منتشرة على البحر المتوسط وحمامات سباحة وحدائق، كلها تمتد حول ملاعب للجولف فى رمال الصحراء بالقرب من الإسكندرية، فيما يدور الحديث حول إقامة ريفييرا مصرية جديدة وراء «سان تروبيه» مصر الملقبة بالعجمى ذات القلاع المخصصة للحراسة وأشجار التين القريبة من البحر. تلوح فى طول القاهرة وعرضها أطباق الفضائيات الجديدة التى جعلت كلاً من الحرس القديم والجديد يتدبران الانتقال من أماكن مقصورة عليهما كالزمالك والجيزة وجاردن سيتى ليعكسا اتجاه بدأ منذ خمسين عاماً عندما جاءت ثورة ناصر بكل الناس من الأقاليم إلى المدن الكبرى.

الواقع أن اقتفاء أثر ما لا عد له ولا حصر من التغييرات لمن الصعوبة بمكان. صرخت جريدة الأهرام إبدو ذات يوم بالفرنسية: «الذوق الردىء يهيمن على كل الأرجاء»! بعدها صرحت جريدة الإيجيبشيان جازيت برأيها بلغة إنجليزية عريضة: «مصر تفتقر إلى الانسجام المعمارى». وعلى حد قول البروفيسور عوض، مصر تعانى من «انهيار الحضارات وليس صدامها».

تسرد إحدى حلقات مسلسل عماد الدين حكاية فلاح من الريف انضم إلى زملائه ليطالعوا لأول مرة فى حياتهم ما بداخل أحد القصور «الحديثة»، بالنسبة لهؤلاء الفلاحين القرويين، لم يلحق بالعالم أى تغيير منذ أيام الفراعنة. فقد كانت المصطبة الطينية منذ قديم الأزل مكان جلوسهم. غير أن الدهشة



قصر الجزيرة
هل كان الخديو إسماعيل يؤثر اللون الأخضر لما يرمز إليه من عناية إلهية؟ والذهبى لارتباطه بالحكم الملكى؟ أم كانت تلك محاولة من الإيطاليين للتفوق على الألمان الذين كانوا يفرضون تصاميمهم لقصر الجزيرة؟



قصر الجزيرة
أبدع كارل فون ديبيتش الأروقة المعمدة بعد سنوات من تصميمه سلالم من حديد الزهر وقاعة ضخمة لشريف باشا استحق عليها الثناء من كبرى المجلات الألمانية.

قصور مصرية

تعتريهم عندما يكتشفون فى عماد الدين طقماً من الأرائك الفرنسية والكراسى ذوات الأظهر العمودية. «انظروا» وجه أحدهم حديثه إلى الآخرين فى لهجة دالة على التعجب. «إنها مصطبة».

إن حياكة الفكاهة هنا مقصودة تماماً. غير أنه من الواجب أن أشير إلى أن الحكام المصريين كانوا يجلسون لقرون طويلة متربعى السيقان على وسائد يزينها هداب توضع على الأرض أو متكآت فسيحة على الطراز العثمانى تعلوها انوار خافتة. لذا فالتحول إلى الصالونات المضيئة بأرائكها وكراسيها المصممة على طراز الملوك الفرنسيين - لويس السادس عشر ولويس الخامس عشر ولويس الثالث عشر - جاء متأخراً وعلى بغتة، حتى ولو بدا وكأنه جاء على نحو نهائى. الحق أن الفرنسيين قد أعادوا المتكآت إلى الموضة فى العقد الثانى من القرن العشرين بتقديمهم للكرسى الطويل من خلال أسلوب التصميم المسمى بالآرت ديكو!

إلا أن مصر لا تعرف شيئاً اسمه العودة إلى الماضى. فكل تصاميم لويس جاءت لتبقى، ولن تُستبدل إلا بأثاث «لويس فاروق»، ذلك الذوق المبهرج للملك البلاد السابق. إذ يمكن للمرء أن يلفى اليوم تلك الصالونات الضخمة المطلية بالذهب «فى كل منزل عند كل طبقات المجتمع»، يصرح لوى كروك، جامع للأثاث الشرقى يقيم بالقاهرة منذ فترة طويلة». بل ومتكآت تصطف على الجدران مثلها فى ذلك مثل المتكآت القديمة! أتصدق؟».

تتابعت الكوميديا التليفزيونية لمّا واجه الفلاحون ثريا تتسلح بمصابيح إضاءة تتخذ شكل اللهاب. «وما تلك؟» تأملوا. فجاءتهم الإجابة: «شمعة داخل زجاج!» وبينما يحتاج الجميع إلى أن يضحكوا من أنفسهم من آن لآخر، الواضح أن المؤلفين نسوا أن مثل تلك المصابيح كانت فى مثل قدم مصر نفسها، وأن العرب أخذوا المصابيح الزجاجية من الكهنة القبطيين، المسيحيين الأوائل الذين، حسبما قالوا، ينحدرون من الفراعنة.

بعد أن تم عرض المسلسل، جعل مستشار حكومى كبير يتفكر فى كيفية الحفاظ على قصور القرون الماضية. فقبل كل شىء، أين سيجتهد الناس فى التفكير فى العمارة سوى فى مصر، موطن البناة الأوائل، الفراعنة؟ أليست كلمة الفرعون تعنى حرفياً «البيت العظيم»؟

ولقياس ما قطعه ذلك المسؤول من مسافة، ليس علينا سوى تذكر تعليقات فرانك لويد رايت خلال زيارة له للقاهرة فى يونيو ١٩٥٧. كان قد عرج على بعض تلاميذه السابقين، ولم يسره ما شاهد: «أنتم يا سادة، أنتم المهندسون أصبحتم مسؤولين. إن ما شاهدته لهو عقيم كل العقم. فالإنشاءات الحالية تخلو من أى روح أو حياة، عاطلة عن الاحترام والفخار الذى يُسبغ على الإنسان وكل ما هو إنسانى... أنا أصدقكم القول... أنا لم أر فى كل أعمالكم أى تعاون بين المعمارى والمهندس... مما يثبت أنكم استوعبتم هذه الأعمال بعقولكم ليس إلا، فطبقتم القواعد ونظريات الجامعات بيد أنكم لم تضفوا عليها شيئاً من قلوبكم. العلم وحده ليس بالكافى يا سادة».

لقد حضرت إلى مصر منقباً عما أسماه رايت «القلب» و«الروح» الذى يخلق المعمار الجميل. ولسوف تخامره السعادة عندما يعلم أنى قد وقعت على ما لم يمتد إليه بصره. بدءاً من الإسكندرية ووصولاً حتى أسوان، هناك القصور والفيلات والمنازل المشرية بما يتحدث عنه من قلب وروح. العديد منها مخصص لسكن السفراء الأجانب والشخصيات الرفيعة والدبلوماسيين الآخرين؛ البعض الآخر تحول إلى منشآت عالمية؛ والقليل منها عبارة عن فنادق. أما الباقى فملكية خاصة. إلا أن العديد منها، إن لم تكن كلها، بالغة الروعة.

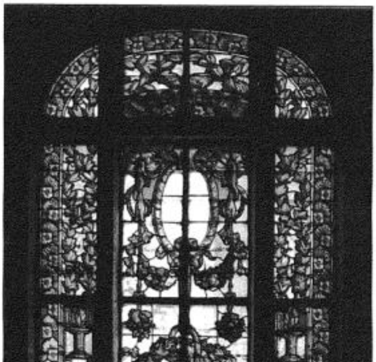
مَن يتوقع أن يصادف المرء إبداعاً أندلسياً يبلغ قمة البهاء على ضفاف النيل بسوهاج؟ مَن يصدق أن جرجا تحتضن قصراً شامخاً على الطراز الفيكتورى على ضفة النيل؟ أو أن استراحة إسماعيل فى أرمنت قد تحملنا على الحلم بالسكر؟

لا توجد مساحة فى هذا الكتاب لمناقشة كل مبنى ذى بال أو كل بانٍ بارز فى هذه الأرض العظيمة. لكن أملى أن يمنحكم فكرة عما تحدث عنه رايت حينما خاطب تلاميذه السابقين قائلاً «أن تسبغوا من مشاعركم، أن تجعلوا القلب يهتز بالعاطفة، أن تجعلوا من تلك المشاعر القوة المحركة الكهربائية لأى عمل». هذا هو ما حاولت أن آسره بسردى «لقصص» هذه المساكن الرائعة كل من اتصل بها من معماريين وبناة ومصممين ومُلاك. ■

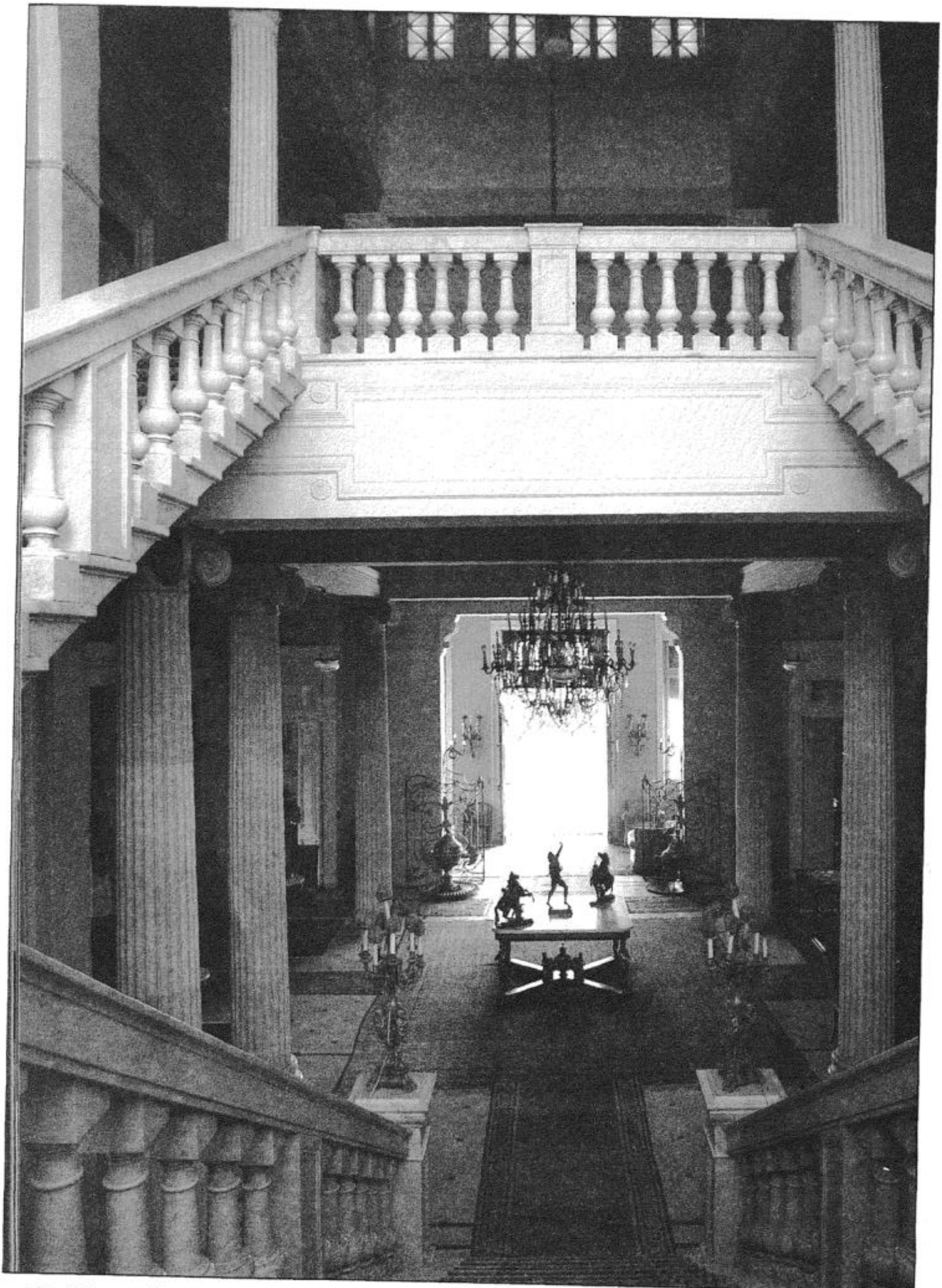
قصر المنتزه
استخدم عباس حلمى الثانى هذه الحجرة بألواحها الخشبية وأعمدتها المرمرية لعقد الاجتماعات بغية مراجعة خططه الرامية إلى زخرفه المنتزه. ∨

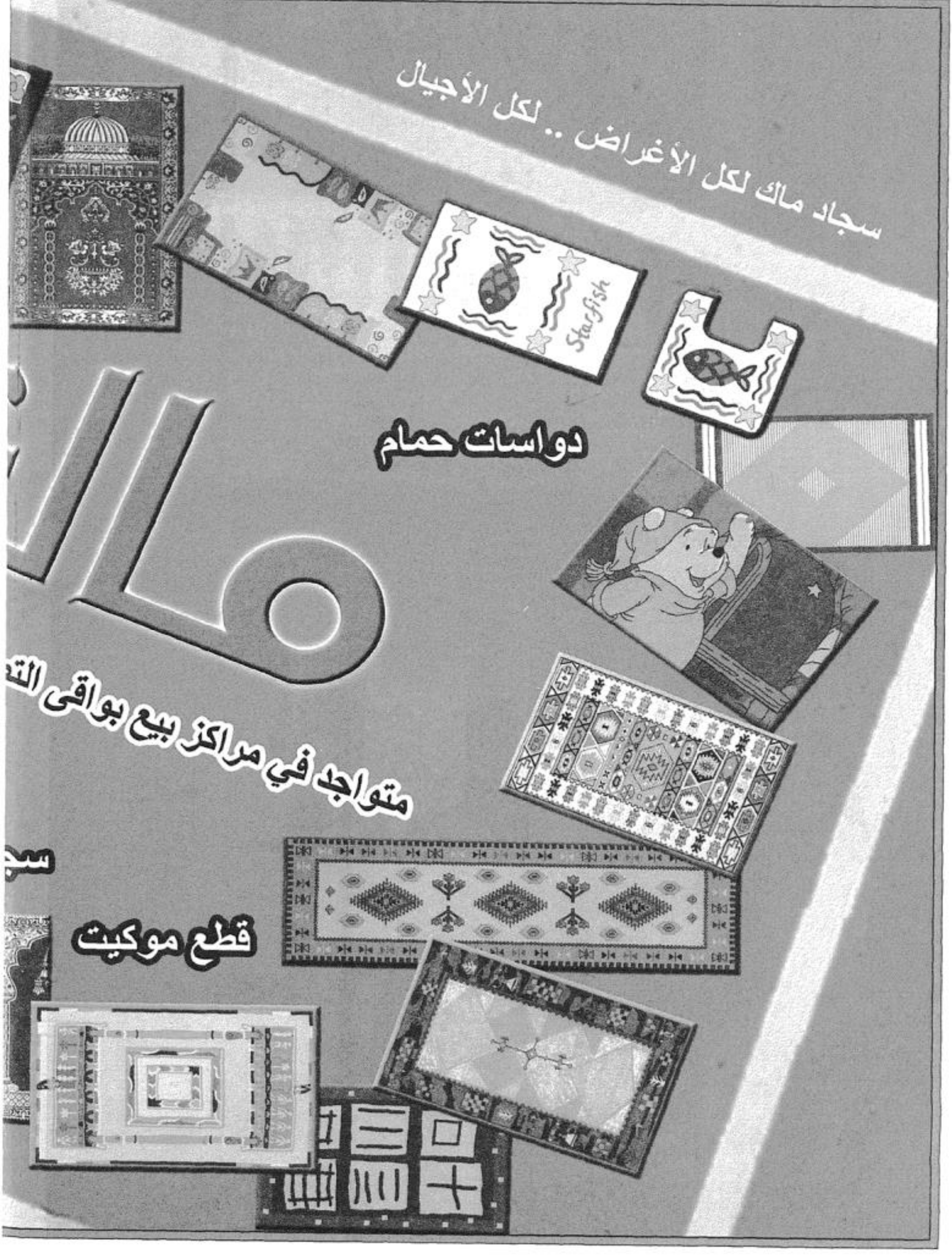


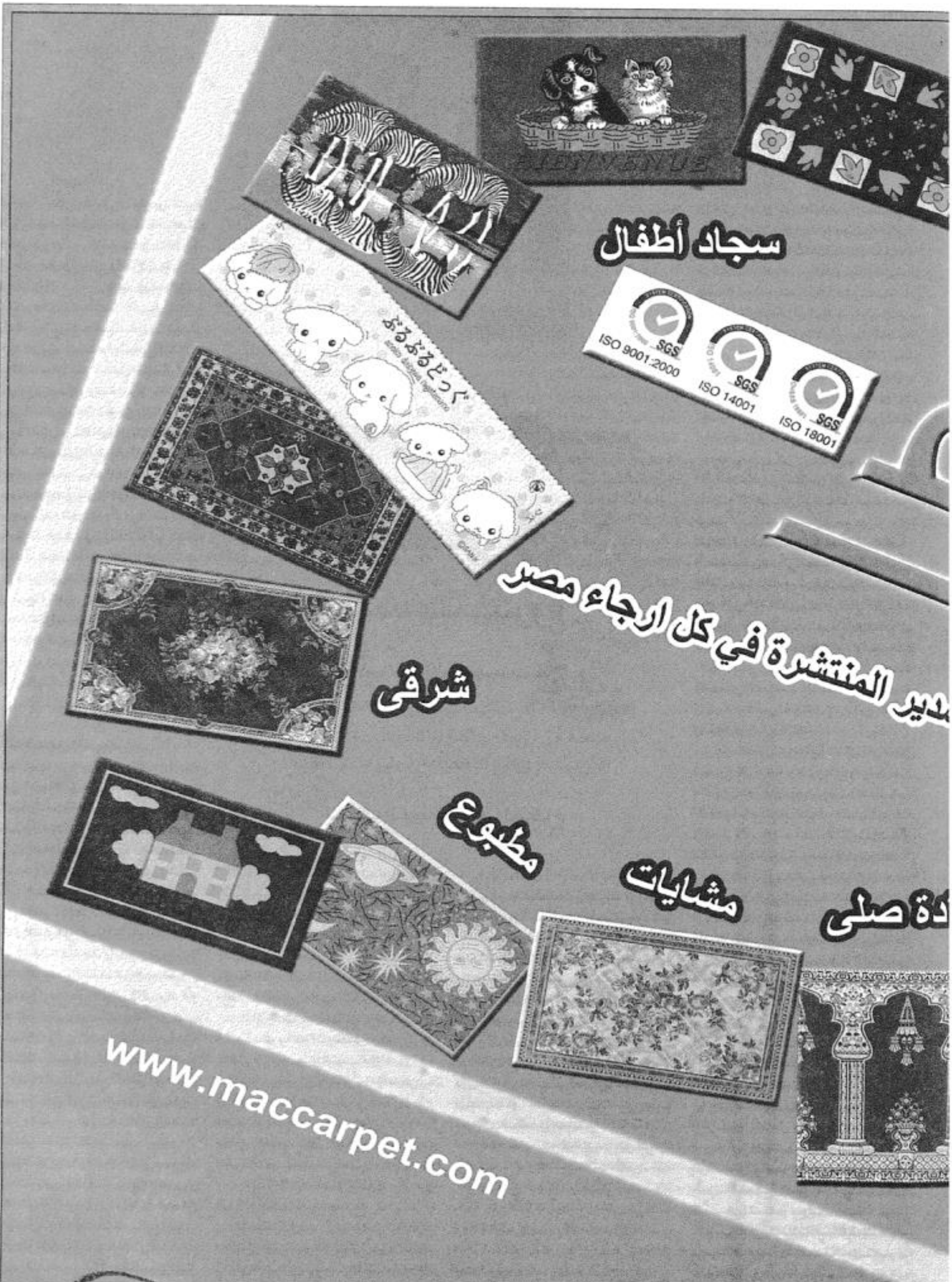
فيلا الدكتور على إبراهيم باشا
أضفت النوافذ ذات الزجاج الملون دفئاً بصرياً على حجرة الطعام حيث استقرت مدفأة على الطراز القوطى الفرنسى. ∨



فيلا الألمانى بيندرناجل >
«تنامت ثروة السيد بيندرناجل فأحاط نفسه بفخامة ملكية».




سجاد ماك لكل الأغراض .. لكل الأجيال
Starfish
دواسات حمام
متواجد في مراكز بيع بواقى
قطع موكيت



سجاد أطفال
SGS
ISO 9001:2000
SGS
ISO 14001
SGS
ISO 18001
دير المنتشرة في كل ارجاء مصر
شرقى
مطبوع
مشايات
دة صلى
www.maccarpet.com



طارق البشرى

المشروع والمنهج

سيف الدين عبد الفتاح

يمثل «طارق البشرى» ظاهرة كبيرة وغنية ومتعددة الأبعاد فى نماذج الفكر المعاصر فى مصر والأمة، يبدو «البشرى» نموذجاً مهماً لتقاطع المجالات وتلاقى المقامات بين: القانون والشريعة، والفقه والفكر، وفلسفات التشريع ونظم القضاء، والتاريخ والسياسة، والاجتماع والمعرفة، ورؤى العالم ومناهج النظر، وطرائق الفعل والتفعيل، والتأسيس والتدبير والتسيير والتغيير والتأثير..

مساحات واسعة تتداخل وتتكامل فى مشروع البشرى، تظللها مظلة محكمة من الحكمة وفصل الخطاب؛ من هنا رأينا أننا أمام «حكيم» من حكماء الزمان الذين عزّ مثالهم وصعب منالهم.

أردت بهذه الورقة أن أذكّر فقط أن كل من ارتبط عمله بالبحث -أيًا كانت أشكاله أو تجلياته- فحرىٌ به أن يتتلمذ على بعض من كتابات البشرى كمدرسة فى المنهج.

هذه القراءة الأولية يمكن ترتيبها فى ستة محاور لا تغطى المكنات المنهجية فى مشروع البشرى، بقدر ما تشير إلى مناطق مهمة من ذلك:

أولاً - التأصيل والمرجعية

من أهم الإسهامات الكبرى للبشرى فى المسألة المنهاجية، قدرته على تحديد النسب والعلاقات، والوظائف والأدوار لدوائر التعامل التى تحيط بالباحث المسلم بالأساس، فوضوح النظرة التى تتضمن هذه الدوائر ضمن بناء متكامل ومنظومة.

ففى إطار مرجعية التأسيس المتمثلة فى العقيدة الدافعة، والدين الجامع، ومصادر المرجعية: نتلمس هذه الرؤى ضمن أصول مناهج النظر. فالدين.. هو وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات وإلى الخير فى السلوك والمعاملات.. الدين بهذا الاعتبار، جامع كبير لأنه قابل لأن يسع الخلق أجمعين رغم كل ما يفرق هؤلاء الخلق من صفات فردية وجمعية، ورغم ما يندرجون فيه من تصنيفات وفئات وشعوب وطبقات وألوان وألسن ولهجات وأزمان وأصقاع.

إن الدين بهذا يأتى من المطلق ليحكم النسبى، ويرد من الثابت ليحكم المتحرك، والثبات فى هذا السياق لا يعنى السكون، ولكنه يعنى الدوام، أى الوجود والبقاء المستمر ومن ثم فالدين دائم يحكم المؤقت والمتغيّر.

ونحن فى عبوديتنا لله الواحد نفهم كيف يتنوع البشر أفراداً وجماعات، وكيف يتغيرون أحوالاً وأوضاعاً عبر الزمان، فى إطار أصول الدين وأسسه، وتحت هذا الإطار علينا أن نتحلى بالحرص على التحمل وعلى حسن التقبل.

فالإسلام فى إطاره العقيدى المتماسك يضم أنساقاً فكرية فرعية تعمل فى داخله، ويكتسب من حركتها حيوية وتجدداً فى عقول المؤمنين به وقلوبهم. ومن خلال حركة هذه النظم الفكرية الفرعية بداخل الإطار الإسلامى يجرى التأكيد على العنصر أو العناصر التى تلائم متطلبات الظرف الذى تمر به جماعة الإسلام، فالإسلام هو الدين الخاتم لأنه الدين الجامع.

العقيدة فى الإسلام -وفق هذا التصور- هى أصل الأصول، وهى المسلمة الأولى التى تتفرع منها بعد ذلك كل الأمور، سواء فى ذلك النظم والشرائع التى تنظم شئون الحياة أو الآداب والسلوك والأخلاقيات. فالعقيدة هى المصدر والمشرع لبناء نظام المجتمع وإقامة هياكله التنظيمية ولتربية الأفراد والجماعات، فضلاً عن كونها تحدد الأحكام التى يقوم عليها البناء العقيدى.

والعقيدة الإسلامية عندما تمثل النبع الرئيسى لأحكام القانون وقواعد الأخلاق، إنما تخلق تناسقاً وانسجاماً بين هاتين الوسيلتين فى تكاتفهما على إقامة نظام الحياة فى المجتمع. وهما تتبادلان تنظيم الجماعة وأفرادها كل فى مجاله وفيما يصلح له من ميادين النفوذ والفاعلية، وبوجه عام فإننا نلاحظ أنه كلما اتسع حجم الجماعة المعنية بالتنظيم كلما كان حكم القانون لنظمها وعلاقاتها أوجب، وكلما صغر حجم الجماعة المعنية كلما كان إرشاد الأخلاق لها أنسب.

ثم نجد أن واحدية المصدر العقيدى الدينى لكل من الأحكام الشرعية والقواعد الأخلاقية، هذه الواحدية تجعل القانون والأخلاق، وإن اختلفت أدواتهما، فإنهما يظلان ذوى طبيعة واحدة، ومتجانسين فيما ينشدانه وتنشده العقيدة للبشر فى حياتهم من صلاح؛ لأن كلاً منهما فى مجال فاعلية يتمم عمل الآخر، هما يتبادلان معاً تنظيم الجماعة المعنية بالقدر الذى يتيح لها ولأفرادها الفاعلية المرجوة، وذلك حسب حجم هذه الجماعة ومدى تعقد أواصرها أو بساطتها.

ومن ثم يمكن أن يتفرع عن الأصول العامة للنظر الإسلامى أكثر من تصور للنظام الاجتماعى، تختلف بعضها عن بعض فى الفروع وتتباين حسب ظروف الزمان والمكان، وإن جمَعها -دائماً- اتصالها بأصول العقيدة الإسلامية والتزامها بها، ومنها أن يظل النظر الإيمانى الإسلامى وتصوراته العقيدية ومصادر شريعة الإسلام، يظل النظر كل ذلك، يشكل الإطار العام للنظام الاجتماعى، يشكل المرجعية الأساسية والمصدر الأساسى للشرعية العليا المهيمنة فى المجتمع؛ على أفراده وسلوكهم ومعاملاتهم.

هذه أصول مرجعية التأسيس التى تخرج أنظمة متنوعة، ولكن من مشكاتها وبصبغتها، وإن اختلفت فى أشكالها وأساليب أدائها، اعتباراً لجهات الاختلاف المتعددة، التى ترتبط بالعوالم المختلفة، ومجالات الفاعلية ومستويات التعامل والتناول. هذه الأصول تخرج أنظمة متنوعة فى المجالات المختلفة، ومنها المجال المتعلق بأنساق المعرفة ومسارات الفكر، وأنماط الحركة والممارسة، ومسالك التفكير وطرائق التدبير، وإجراءات التسيير، وإمكانات التأثير، وقدرات التغيير، كل تلك مناهج يجب أن تراعى أصول التنوع وقواعد الاختلاف والتعدد، وسنة التكامل والتكافل فى الرؤية، وفى الأنظمة، وفى الحركة.

من هنا علينا أن نرى الخبرات التراثية والتعامل معها، خبرات التراث فى عالم المسلمين وخبرات تراث الأقدمين، وخبرات تراث الغير، إنها خبرات متعددة ومتكاملة يقف منها الإنسان المسلم موقف (التعارف) المتضمن لأصول ثلاثة محكمة: التعارف معرفة، والتعارف عملية، والتعارف اعتراف، وهو فى النهاية اتصال واعٍ فى الزمان والمكان، اتصال هادف فى

الممارسات والعلاقات، اتصال فاعل يبتغى الترقية والتزكية والعمران، اتصال عادل يحقق أصول العلم الكونى والبشرى وفق السنن القاضية التى لا تحابى أحداً.

إذن علينا أن نميز التمييز الواضح بين أصول المرجعية الجامعة والحاكمة -المتمثلة فى أحكام القرآن والسنة- والتى لها وضع إلهى، وهى لا يطرأ عليها تغيير ولا تبديل، وهذه الأحكام هى المقصودة بالشريعة الإسلامية، وهى تشكل جملة ما يتضمنه الإسلام من أصول حاكمة للعقيدة الإسلامية، وللعبادات، ولمعاملات البشر. أما التراث الإسلامى ومنه الفقه، فهو اجتهادات البشر فى تفاعلهم مع تلك المرجعية، وفى إدراك أحكام الشريعة، وفى استخلاص المعانى المقصودة ووصل تلك الأحكام بأحوال البشر فى كل بيئة.

هذا فارق منهجى يتعين أن نلحظه، بدقة عند نظرنا لجملة الاجتهادات وعندما نتدبر عنصر الثبات فيها ووجوه التغير والاختلاف فيها، بين أصول المرجعية ونواتج التفاعل معها وبها وفيها.

أما الخبرات فإنها خبرات التراث الإنسانى فى صفحته الكلية العامة فى تضميناته التاريخية، وتجلياته المعاصرة، بل ومحاولة إبداع نماذج ابتكارية تتوافق مع كيان الجماعة وحركتها وأطوارها وأهدافها المرحلية، وتنوع قدراتها وإمكاناتها.

فلقد عرفت مجتمعاتنا أنواعاً شديدة التعقيد من التنوع مع التداخل والتشابك؛ لأنه تنوع يقوم على تعدد معايير التصنيف الاجتماعى، فالوحدات السياسية كبيرة ممتدة، وتنشأ بداخلها الوحدات الاجتماعية بمعايير شتى، منها ما يقوم على التصنيف القرابى أو الأسرى كالقبائل والعشائر، ومنها ما يقوم على التصنيف الإقليمى كالقرية والناحية والحى؛ مما يفيد قدراً من التميز دون إمكانية الانفصال، ومنها ما يقوم على التصنيف الحرفى والمهنى وعلى التصنيف المذهبى أو الملى أو الطرقى... إلخ.

وليس فى هذه الوحدات ما يقوم به أساس للمواجهات بين بعضها البعض، ولا ما يقوم به كل منها مستقلاً بنفسه. وإن تزاوج هذه الوحدات الاجتماعية مع التكوينات الفكرية الدينية سواء الوحدات الملية أو الطائفية أو الطريقة الصوفية كان يمنحها يسراً فى شعور ذويها بالانتماء لها. وإدراكاً للجانب المعنوى لنشاطهم وجماعتهم، أى نوعاً من القداسة يصبغ به العمل العام والشأن الجماعى، ويسوغ به فناء الفرد فى الجماعة... ولا يعنى ذلك أن تجارب كل مجتمع تنفى تجارب الآخر.

ولكل مجتمع فى الظروف التاريخية التى تجد عليه وتستدعى تغييراً أو تطويراً لأنظمته، أن يعيد بناء نماذجه التنظيمية ويعيد تشكيل العلاقات بين بعضها البعض، ويمكن أن يضيف إليها وأن يطور نماذجها وأن يستفيد من النماذج التنظيمية الموجودة لدى الآخرين فى المجتمعات الأخرى، وأن يجرى تطعيماً وتهجيناً لهذه النماذج مع غيرها من خرج تجربته التاريخية، ولكن كل ذلك لا يعنى -من ناحية أخرى- الهدم والإزالة لكل ما هو موجود، ولا النقل والإحلال لأصل النظم السياسية التى تفتقت عنها البيئة الخارجية ونماذجها وأجهزتها. فإن ذلك فيه من التدمير

مفهوم الأمة كوحدة تحليل فى التعامل الخارجى لم يمنعه من رؤية الواقع الإقليمى وواقع الدولة القومية وواقع النظام الدولى بتشكلاته

والتشويه ما لا يعوضه قيام الأبنية الجديدة، على صورة ما حدث فى الخارج التجربة الاجتماعية.

وقد كان الخطر الخارجى الحال ذو الوقائع الممتدة عبر ستى القرن التاسع عشر، هو ما به توقفت حركة الإصلاح الفكرى والفقهى، لأن مجال التجديد فى الفكر والفقه كان يجرى مكافحة بالمؤسسات الحافظة، ولأن قيام الخطر الخارجى المهدد لأمن الجماعة كلها من شأنه أن ينحى المشاكل الداخلية ويبعدها عن بؤرة الاهتمام، ومن شأنه أن يلقى على سلطات الحكم والمؤسسات الحاكمة مهام الدفاع عن الجماعة وحماية الحوزة؛ مما يستدعى من الكافة المساندة والالتفاف، وإرجاء خلافات الداخل، وهذا ما حدث.

وهو ذاته الخطر الخارجى، الذى استدعى أسلوباً عاجلاً سريعاً عملياً للإصلاح، اعتمد على بناء مؤسسات جديدة موازية للقديم بدلاً من أن تتطور هى من داخلها، ودون أن يصاحب هذا الإصلاح حركة فكرية، أو حركة إحياء للقديم تواكبها، وتنتقل بالمجتمع كله من حال قديم إلى حال جديد ناهض؛ تنسجم هياكله وأبنيته وتتكامل فى أداء وظيفى واحد. وهو ذاته الخطر الخارجى الذى احتل بنفوذه سائر المؤسسات المستحدثة وغير من وظائفها ليجعلها باسم الحداثة قواعد تثبت التبعية له فى المجتمعات المغزوة.

لذلك كان من نتائج هذه الفترة حدوث نوع من الانفصام بين حركة الإصلاح المؤسسى وحركة الإصلاح الفكرى، ونوع من الازدواج بين الأبنية التقليدية نظماً وفكراً، وبين الأبنية الحديثة نظماً وفكراً، وبين الأبنية الحديثة نظماً وفكراً، فصار القديم أبتر مقطوعاً؛ لم يفض إلى جديد من نوعه أو من مادته ومائه، وصار الجديد أجنبياً لقيطاً، وفد من نسق عقيدى آخر ومن أوضاع اجتماعية وتاريخية مختلفة. وما إن حل القرن العشرون حتى كانت البيئة الاجتماعية والفكرية قد انصدعت بين قرن أبتر وقرن لقيط أعقبه. وهذا ما ورثناه حتى اليوم وما تواجهه مجتمعاتنا فى نظمها السياسية والاجتماعية بمجتمع مصدوع عليها من أن تلأم صدعه، وأن تجدد قديمه وتؤصل حديثه.

وفى إطار أصول المرجعية وخبرات تراثية إسلامية وغير إسلامية، برزت لدى البشرى أصول منهاجية للتعامل مع الواقع، وصفاً وتصنيفاً، تعريفاً وتوظيفاً، والبحث فى عناصره ومآلاته، وإمكانات التعامل العلمى مع كل مشتملاته، ومع كل مفرداته برؤية بعيدة ونظرة حكيمة لا تقف عند سطوح الظواهر، أو الظاهر منها دون النفاذ إلى أعماقها، والبحث فى مكنوناتها، والبحث فى عناصر ذاكرتها الحضارية والتراثية وعناصر تواصلها المعيشى فى الواقع بكل امتداداته.

ثانياً - مناهج النظر

إن البشرى فى إطار المقولة الذهبية التى تنص على أن: «إدراك الشىء فرع من تصوره»، قد لفت النظر إلى ضرورة التركيز على مناهج النظر بما تحيل إليه من مناطق بحثية ممتدة، ومن قضايا مهمة تعتبر من المستلزمات المنهجية السابقة للتعامل مع الظاهرة أو تناولها. فكأن البشرى أراد أن يحدد للمنهج مستويات متعددة ومتفاعلة ومترتبة يجب أن نتحرى أدوارها وتراتبها وأوزانها، وشبكة العلاقات فيما بينها، بحيث ترسخ أصول التعامل المنهجى مع الظواهر المختلفة.

فهناك الأصول الكلية: أصول التأسيس والتكوين والمرجعية، وهى الرؤية الكلية التى تشكل إطار المرجع وأصول النظام المعرفى. إطار المرجع هنا يشتمل على عناصر خمسة:

- الأصول المرجعية وما تشكله من مرجعية التأسيس.
- الواقع كمرجعية، وما يشكله ذلك من آثار منهجية فى التعامل مع الظواهر المختلفة ضمن سياقاتها.
- الجماعة المرجعية بما تشكله من محضن الشورى الجماعية، وما تشكله من أصول التفاعل والحوار البنائى؛ بما تعبر عنه من جماعة متخصصة، مهمومة بذات القضايا، تملك عناصر مرجعية منسجمة، ولغة مشتركة، ومنهجاً يشكل أرضية للتفكير، وعلاقة تسودها الثقة عن علم.
- أصول اللغة البحثية والمنهجية، التى تشكلها الجماعة العلمية، فتعرف للموضوع حقه من البحث، وللعلم حقه من المنهج، وللظاهر حقها من التقصى، لغة علمية تعرف للاستقامة العلمية أصولاً، ولقواعد العدل البحثى إمكانات تفعيل وتطبيق.
- تقع فى النهاية شبكة الإسنادات المرجعية، بما تشكله من ذاكرة وخبرة ومصادر ومراجع، وواقعاً ووقائع، بحيث تنتظم فيما بينها.

هذه المستويات الخمسة على اختلاف أدوارها ووظائفها تشكل أصول التعامل مع إطار المرجع ضمن معانيه الواسعة والممتدة، إن كل مستوى يعد مرجعاً بمقدار ما يضع من لبنات فى صرح المرجعية الكلية حتى نتمكن من تفعيلها وتشغيلها ضمن القضايا المختلفة والأعمال البحثية المتنوعة.

ومن هذه الرؤية الكلية المتضمنة لإطار المرجع تُشتق مناهج النظر- إن منهج النظر هنا يحول عناصر الإطار المرجعى إلى قضية بعينها فيفعل مقولاته ويشغلها. ومنهج النظر -هنا- تتوافر له الكفاءة والقدرة على نفى كل مصادر النظر الأعشى، أو العليل أو القصير أو الأحول و المزدوج، أو الحاجب، أو الأعور القاصر، أو مناهج اختلاس النظر أو التغاضى.

إن ضبط مناهج النظر للظواهر والقضايا يُعد أمراً لا محيد عنه إذ إن هذه المناهج هى من أهم مستلزمات الفهم الصحيح لتلك الظواهر، فمنها وعلى أساس من قواعدها تتحرك أصول التناول والتعامل بحيث تؤصل عناصر التكامل بين شطرى المنهج «شطر فى النظر وشطر فى التطبيق». فإذا كانت مناهج النظر تحدد القواعد العامة بصدد قضية كلية موضوعة للبحث والفحص، فإن مناهج التناول والتعامل هى المسالك والطرائق والأدوات والمعلومات وأساليب نظمها وتفعيلها ضمن الدوائر المختلفة.

فى هذا السياق سنجد أن معظم ما ألفه الحكيم -البشرى يمكن أن نسكنه بصورة او بأخرى ضمن ما عناه من مناهج النظر- وهى اكثر اتساعاً من المعنى المصطلح عليه حول المنهج فى العلوم الاجتماعية والإنسانية، إلا أن هذه السعة كانت من أهم إسهامات المستشار البشرى فى منظومة المنهاجية، والإشارة إلى كتابات سُميت بمناهج النظر وأخرى سُميت بغير ذلك؛ إلا أن محتواها دار حول المعنى بمناهج النظر، وتنوعت الموضوعات والقضايا، وتنوعت البحوث والكتابات إلا أن «توجه مناهج النظر» ظل هو الربط فيما بينها جميعاً، سواء تعلق ذلك بقضايا بحثية، أو مجالات دراسية، أو مفردات منهاجية مثل المفاهيم، والخرائط الفكرية، ووحدات التحليل، وعناصر الأجندة البحثية.

ثالثاً - المفاهيم والمنهاجية

ماذا نتعلم من آليات التعامل مع عالم المفاهيم فى إطار المشروع الفكرى للمستشار طارق البشرى؟

المفاهيم ليست وحدات معلقة بالهواء، المفاهيم يحيط بها وسط تتفاعل معه وتتحرك فيه، المفاهيم وافدة وموروثة لابد أن تتحرك ضمن ما يمكن تسميته بمفاهيم الموقف. إننا أمام منظومة مفاهيم من الواجب فى إطار السياقات المعرفية والمرجعية أن نتعرف على الموقف منها. إن الوعى المفاهيمى يجب أن نتعامل معه بوعى ذاكر لما تعنيه دائرة «مفاهيم الذات الحضارية»، ومفاهيم الغير التى بدأت تتداخل مع عالم مفاهيمنا، ومفاهيم الموقف الذى تفرضه بحكم الواقع الذى نعيشه.

إن أهم آليات التعامل مع المفاهيم كما نفهمها فى إطار المشروع الفكرى لأستاذنا البشرى، ما يلى:

١ - تسكين المفهوم فى وسطه ومناخه العام (السياق التاريخى العام).

٢ - استخراج المسكوت عنه ضمن ثنائيات التعامل الفكرى (الوافد والموروث).

٣ - إعادة طرح الأسئلة الصحيحة فى إطار منظومة الأسئلة المتوافقة.. ماذا تأخذ من التراث؟

٤ - إشكالية التراث والمعاصرة، أصول الفهم الصحيح، والانتباه إلى الشراك المنهجية.

٥ - خريطة المفهوم مدخل لعرض خرائط الأفكار.

٦ - المفهوم عائلة؛ ومن ذلك مثلا: العصرية، المعاصرة، عصر الإصلاح، عصر النهضة، العصر الحديث.

٧ - المفاهيم: سيرة، ومسيرة؛ ذاكرة المفاهيم عملية مهمة، ثم سيرورة.

٨ - التصنيفات ليست عملية شكلية بل هى مفاهيم معبأة تتضمن رؤى؛ ومن هنا علينا أن نبحث فى قواعد يكون معها التصنيف أقرب ما يكون إلى الدقة فى ذاته، والفاعلية فى استخدامه، والمصداقية فى تطبيقاته.

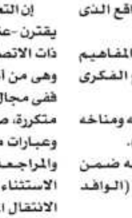
٩ - الإشكالات المتوالدة عن إشكالية «مفاهيم الموقف»، وهى عديدة.

منهجية الموقف تؤكد أن المنهج هو لأصل، بما يعنى أن المعالجة المفاهيمية فى إطار أصول التعامل المنهجى هى التى تولد عناصر المواقف الواعية المتجددة إزاء مفاهيم متنوعة، تبدو تلك المفاهيم -فى كل وقت- تحت أسماء جديدة، وتتزيا بأثواب مختلفة، حتى أن البعض أشار إلى الانفجار فى عالم المفاهيم كأنه عصر الانفجار المعرفى، والتراكم المعرفى الحادث والذى يجد فى عالم المفاهيم بعض أدلته. الموقف المنهجى هو الموقف التأسيسى القادر على مواجهة عالم المفاهيم بعيداً عن موقفى القبول المقلد بلا بينة، أو الرفض المطلق بلا بينة، أنه يحرك المفهوم كوحدة أساسية فى التحليل المنهجى الذى يقوم على أمرين هما:

١ - الرد الجميل للمفهوم إلى أصوله الفكرية والمدنية والثقافية والحضارية.

٢ - التعرف على المفهوم وطبيعته، ووسطه وعلاقاته، وقدراته وتأثيراته ومآلاته.

إن التعامل المنهجى مع عالم المفاهيم يقترن -عند البشرى- بالمجالات الحيوية ذات الاتصال؛ وأهمها عوالم الخطاب؛ وهى من أهم التوابع التى يجب فرزها. ففى مجال الخطاب يحلل البشرى جملاً متكررة، صارت بتكرارها جملاً مفتاحية وعبارات مرجعية تستحق التحفظ والمراجعة؛ من قبيل مقولة: «حال الاستثناء التاريخى»، ومقولة: «مرحلة الانتقال المستمرة إلى أبد الآبدين»؛ إن كل مرحلة هى عنق زجاجة، أيام عصيبة، منعطف تاريخى، استثناء، ونحن لهذا فى رحلة انتقال (من المرحلة الاستعمارية، إلى الاستقلال، ومن التوحد إلى التعدد، ومن التخلف إلى التنمية...) وباسم الانتقال بدت مجتمعاتنا - على حد تعبير الدكتور المسيرى- مجتمعات الترانسفير، أو ما أسماه المستشار طارق البشرى: «التطور المعوق».



رابعاً - خرائط الأفكار ودراسة الواقع

الاهتمام بعالم الأفكار من أهم القسمات المنهاجية فى تعامل المستشار البشرى مع الموضوعات والقضايا التى يطرحها، إنه بهذا المعنى وبذلك التعامل قادر على أن يحوّل العوالم الخرى إلى عالم أفكار، وذلك دون اعتساف أو افتعال.

فعالم الأحداث عنده هو عالم أفكار، تتحرك فيه الأفكار، وتديره أفكار، وتتحكم به أفكار، وربما تتنافس وتتصارع، وربما تتراحم وتتكافل، الحدث -الفكرة، هو وحدة تحليل قائمة بذاتها.

وعالم الأشخاص عنده هو عالم أفكار، الشخص لم يكن مجال اهتمامه إلا بمقدار ما يؤثر فى عالم الأفكار، الشخص- الفكرة، وحدة تحليل أساسية ومركبة، إلا أنها تتحرك ضمن فعاليات، الشخص هنا ليس مجرد كيان فردى انقضى، فحينما يتحول إلى فكرة فإنه يمتد عبر الزمن تأثيراً وفعالية.

وعالم الأشياء والنظم هو عالم أفكار، بما يحمله من تأثيرات فى واقعنا المعاش ومناهجنا فى التعامل معها، النظام - الفكرة، الشىء-الفكرة، الرمز-الفكرة، كلها وحدات تحليل يجب رصد تأثيراتها وبنياتها ضمن خرائطنا الفكرية بكل تضاريسها.

إن معرفة طبوغرافيا الأفكار، والتعليم من معانى جغرافيا الكلمات والأفكار من أهم إسهامات منهج البشرى. وليس ذلك فى منهجه مجرد كلمات تقال، أو إرشادات تُزجى، ولكن الأمر أبعد من ذلك إذ هو ممارسة بحثية فى معامل الفكر السياسى الإسلامى فى التاريخ المعاصر، إنه يتجه بكل عدته المنهجية، وبوصلته الفكرية، وبخرائطه المتعددة؛ليتعرف بيسر وسهولة على عالم الأفكار بكل تنوعاته، وليعلم شيوخ الباحثين قبل شبابهم أن «خرائط الأفكار» هى من أهم المستلزمات المنهجية للتعامل مع «عالم الواقع» الذى نعيشه.

والواقع -ضمن تصوراته الفكرية والمنهجية- ليس تلك النقطة الزمنية المتغيرة بمرور الزمن فتسمى الواقع تارة، والحاضر تارة أخرى، بل هى حدث كلى ممتد للحاضر، لابد له من ذاكرة تاريخية وتراثية، ولابد له من امتدادات مستقبلية، والتفاعل بين حلقات الزمن مؤكد، وبين مجالاته: الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية لا مفر منه، والتداخل بين حركة الداخل والخارج وضبط النسب فيما بينها عمليات مهمة مؤثرة على الواقع، وفى طرائق التعامل معه.

وفى تصويره لتلك الخرائط فى إطار حديثه عن الفكر الإسلامى الحديث يقول:

«.. تكوّن الفكر الإسلامى الحديث عبر عشرات السنين الماضية، ومن عدد غير محصور من المفكرين والقادة والمصلحين، وتبلورت بعض قضاياه بتجارب عديدة. وهو فكر يتشيد وتتراص لبناته تحت خط النار، كما لو كنت تبنى قلاعك وسط قصف مدافع الخصم عليك، ووسط ما يمطرك به من صواعق الصواريخ ونيران القنابل والطائرات، ولا تزال اللبنات تتراص والبناء يشيد. ونحن نعرض هنا لمجموعة من الأفكار من خلال مفكريها، وهى تترابط مع بعضها لنتمكن من تكوين بناء فكرى رصين..».

ورجوعاً لمالك بن نبى فإنه البشرى يرى أن «لواقعنا التاريخى الحاضر جانبين: الاستعمار، والقابلية للاستعمار. الاستعمار، وهو العدوان الآتى إلينا من الخارج، عسكرياً كان أو سياسياً أو اقتصادياً أو فكرياً، أى هو أثر

الخارج فينا، ذلك الأثر الذى يجرى بغير رضائنا وبغير صالحنا. والقابلية للاستعمار، هى هذا الوضع الذى نكون عليه والذى يمكّن من غلبة الغير لنا، هى ما نتصف به من الضعف والتردى، والجمود ووهن العزيمة، واضطراب القيم، والجهل، وغير ذلك مما يكون سبباً لغلبة الطامعين فينا على أمرنا ...».

إن تقييم عالم الأفكار يجب ألا يكون من مقاعد الراحة الوثيرة، بل لابد من ملاحظة حركتها ضمن الواقعية المتشابكة «.. هو فكر يتشيد وتتراص لبناته تحت خط النار...» على حد تعبيره. هذه الرؤية يرجع لها الفضل فى الدعوة إلى أن تتحول مقولة مالك بن نبى «الاستعمار والقابلية للاستعمار» إلى مقولة منهجية فى التعامل مع الواقع بما تعنيه من:

• ضرورة التعرف على الظاهرة وعناصر رصدها ووصفها والبحث فى سياقات تحليها وتفسيرها، وعناصر التعميم المتعلقة بها.

• ضرورة البحث فى أصول القابلية للظاهرة فى الداخل، إن التفسير الخارجى للظاهرة لا يكفى وحده.

• ضبط عناصر التأثير والتأثر بين الداخل والخارج ضمن حجم التفاعلات وكثافتها وتبادل تأثيراتها.

• من الضرورى البحث عن السنن القاضية والحاكمة لعالم الأفكار، يؤكد البشرى أن لكل عالم من تلك العوالم سننه القاضية التى يجب أن نتعرف عليها من خلال النظر الفاحص وحركة الأفكار وتاريخها.

• الطريق التاريخى، واختيار البشرى له يوضح أن كثيراً مما نعتبره خلافاً فى الرأى -فنقف إزاءه متواجهين متقابلين- كان أساسه اختلاف الزمان أو المكان، ولم يكن اختلاف حجة وبرهان.

• إن الفكر -كشأن أى كائن حى- لن نحميه بأن نضعه فى المعازل، والسبيل الأمثل للدفاع عن الوجود، هو بالتجديد وبالتفاعل مع أوضاع الواقع المعيش.

• نعرف فى تاريخنا جدلاً كان يثور كل حين حول موضوع مقاومة الاستعمار وإجلائه وموضوع الأخذ بأسباب النهوض ومعالجة أسباب الضعف، بأى هذين الموضوعين نبدأ وأيهما تكون الألوية فى اهتمامنا؟ والواقع أن هذا الجدل يقوم على خيار خاطئ، لأنه يجرى تفرقة بين أمرين كلاهما لازم، فهما معاً شرط النهوض والتقدم والاستقلال، وكل منهما يقوى الآخر ويتقوى به.

• كان الظرف التاريخى وأوضاع التحدى التى تقوم أمام الجماعة وأمام الإسلامى هى التى تولد أسلوب المواجهة للدفاع عن الإسلام بوصفه كياناً حياً، وهى التى تحدد وسائل الدفاع وأدواته.

• إن التطرف والاعتدال دائماً مستويان لوضع معين أو لظرف خاص، وإن ذات الفكرة يتغير مفادها ومؤداها من حيث التطرف والاعتدال، وذلك بتغير الظرف الذى تعمل فيه.

• الضجيج لا يمثل أغلبية... قد يرى البعض بأن الاتجاه المتطرف هو من له الغلبة والحاصل غير ذلك.

• سيبقى الغلو ما بقى التغريب.

• إن المغالاة لا تقاس بمعيار مطلق، إنما تنسب إلى التيارات الأخرى القائمة ومقياسها يتغير بتغير الحال.

• إن الوظائف المنوطة بمن جعل منطقة بحثه الإسلام لابد أن تقوم على واجبات ثلاثة:

أولاً - أن تُحفظ للعقيدة الأوضاع الاجتماعية التى تناسب رسوخها وبقاءها.



ثانياً - أن تدرك الأوضاع الاجتماعية والتاريخية التى لابست اجتهادات الفقهاء السابقين، وتنبه إلى أثر الزمن فى آرائهم والدلالات الواقعية للحكم المفتى به منهم.

ثالثاً - أن يدرك الفقه الحديث وجوه التحديات الحقيقية التى تواجه الجماعة، ويعمل اجتهاداته بما يحقق الاستجابة السليمة لهذه التحديات بما يتجه إلى نفع الأمة.

• إن الحاسم فى الحكم لا يتعلق فقط باستخلاص الأحكام من النصوص واستنباطها من مصادرها الأولية ولكنه يتعلق أيضاً بكيفية النظر للواقع الذى تحياه الأمة وكيفية توصيفه.

خامساً - دوائر الانتماء ووحدات التحليل

يحسن فى هذا المقام أن نشير إلى أن البشرى- الحكيم، جعل من المنهج معنى متسعاً يستغرق كل المعانى التى يؤديها الجذر اللغوى «نهج»، ومن أهم تعلقات ذلك أن يكون المنهج هو الطريق الموصل، ومن ثَمّ كان ارتباطه بالواقع والقصد معاً. المنهج -بهذا المعنى- ليس مجرد عمل نظرى أو تنظيرى، ولكن المنهج تعبير عن رؤية كلية ووسائط بحثية وأدوات وأساليب. ومن هنا كان من أهم معانى المنهج لدى المستشار البشرى أن المنهج للواقع، وكان حديثه عن وحدات الانتماء مدخلاً للحديث عن وحدات التحليل المنهجى فى معظم دراساته وفى جل بحوثه.

فهو إن جعل من الأمة وحدة تحليله التأسيسية، ومن الجماعة الوطنية وحدة تحليله الواقعية، فإنما أراد أن يبحث عن معنى الأمة فى الجماعة الوطنية، وهو عمل لا يفقد الأمة كوحدة تحليل مرجعية ولكنه فى ذات الوقت لا يفقد الواقع، ولا يتركه نهباً لوحدات تحليل تضر بالظاهرة وإمكانات فهمها والتعامل معها وتقويمها.

وهو من أجل هذا يذكر أن علم السياسة وعلم الاجتماع لا يكتفى أحدهما بالنظر الذى يركز على وحدة الانتماء العامة أو وحدة الانتماء الاساسية التى تقوم عليها الدولة، ويتعلق بها نظام الحكم أو السلطات الثلاث، لا يكتفى بذلك لفهم أوضاع نظم الحكم وطبيعتها، وهو ينفتح على العديد من الهيئات والجماعات والتكوينات، ولا يرى المواطنين محض أفراد تجمعهم الأحزاب ومؤسسات الدولة فقط.

إن المجتمع يتكون من وحدات انتماء لا حصر لها، وهى تتنوع من حيث معيار التصنيف: فيكون أساسها الدين أو المذهب أو الطريقة الصوفية أو الملة أو المشرب الثقافى أو الطائفية، أو يكون أساسها اللغة أو اللهجة، أو يكون أساسها نوع التعليم أو المهنة أو الحرفة، أو يكون أساسها وحدة العمل الوظيفى لجيش أو جامعة أو شركة كبرى أو وسط عمل معين، او يكون أساسها الإقليم أو الحى أو القرية أو الحارة، أو يكون أساسها القبيلة أو العشيرة أو الأسرة، أو غير ذلك مما لا يقع تحت حصر من حيث العدد أو من حيث النوع أو من حيث معيار التصنيف.

ويسبب تنوع معيار التصنيف فهى تعتبر وحدات انتماء جامعة ولكنها ليست بالضرورة وحدات مانعة، والفرد الذى ينتمى لإحداها قد يمتنع عليه الانتماء لغيرها من جنسها وبذات معيار التصنيف، ولكن لا يمتنع عليه الانتماء لغيرها وفقاً لمعيار آخر للتصنيف. وبسبب تعدد هذه الوحدات، وتنوع معايير التصنيف لها فهى لا تقف على قدم المساواة فى علاقاتها بعضها ببعض، ولا تختلف اختلاف تعدد وتنوع فقط، إنما أيضاً اختلاف عموم وخصوص، أو اختلاف أجناس وأنواع من كل جنس منها أو اختلاف أصل وفروع.

من هذه الوحدات تظهر فى كل مرحلة تاريخية وحدة الانتماء العامة التى تعتبر الحلقة الكبرى والأساسية التى يتشكل المجتمع وفقاً لما تفيده، والتى تعتبر الحلقة الحاكمة لغيرها أو الوحدة الحاكمة لغيرها، وما بعدها يمكن الإشارة إليه بحسبانه وحدات الانتماء الفرعية. ومن الجلى أن وحدة الانتماء العامة يكون لها قدر من الثبات النسبى، ولكنها تقبل التأثر والتأثير من داخلها بواسطة الوحدات النوعية، ومن خارجها بواسطة الأوضاع العامة المحيطة. ومن الجلى أن كل مجتمع حى يتضمن صيغة ما من صيغ الوحدة مع التعدد، أى وحدة الانتماء العامة التى يكون لها الغلبة فى المجتمع وفى وعى الناس فى هذا المجتمع، وتستجيب لما يلاقى من تحديات، وتحقق الحد الأقصى من الصوالح، وترعى القاسم المشترك الأعظم منها بالنسبة للجماعات المختلفة فى المجتمع، التى تتعدد بتعدد الجماعات وبتعدد معايير التصنيف القائمة فى المجتمع؛ وهى بالضرورة متداخلة ومتشابكة، وهى تلتف حول الوحدة العامة بقدر إدراكها أن هذه الوحدة العامة تكفل لها الحد الأدنى من تحقيق الوجود ومن البقاء ومن المصالح المرجوة. وبكفالة هذا الحد الأدنى تقوم وعلاقات الدعم المتبادلة والتغذية المتبادلة بين العام والفرعى، فإذا لم يتكفل هذا الحد الأدنى قام نوع من الصراع ينحسم بالغلبة لصالح الوحدة العامة من أى من الوحدات الفرعية أو لصالح الوحدات الفرعية إذا تكاثرت واتحدت ضد ما يعتبر وحدة عامة فى مرحلة معينة.

يحاول البشرى توضيح الأهمية الاجتماعية والحضارية القصوى لوجود هذه الوحدات جميعاً، لأن وجود الوحدات الفرعية يغذى الوحدات العامة ويتغذى منها. الجماعات الفرعية هى مولدات الحركة للجماعة كلها فى صورها الشاملة، ونحن نخطئ أيما خطأ -ولقد أخطأنا- عندما نظرنا إلى وحدات الانتماء العامة بوصفها نوعاً من أنواع أجولة الحبوب تحمل حبات منفصلاً كل منها عن الأخرى، وتضم وحدات متماثلة على غير تنوع ولا تدرج ولا تفاعل بين بعضها البعض. إن القومية لا تضم أفراداً، وإن الوحدة الإسلامية لا تضم أفراداً، وإن المصرية أو العراقية أو المغربية لا تضم أيضاً أفراداً، إنما تضم جماعات تمثل وحدات

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

الطرق وما فيها من البدع

لا تزال هذه الطوائف تبتدع أمورًا تضحك السفهاء وتبكى العقلاء وتحتال لمطامعها البهيمية بما جلب العار على الأمة وسلط علينا الأجنبى يهزأ بديننا ويقبح أعمالنا ظنًا منه أن ما يجريه هؤلاء الجهلة من الدين. فقد كتب جون بول صهر عبدالله كليم مسلم ليفربول كتابًا يرد به على صهره وجعل الرد وسيلة للطعن فى الدين الإسلامى بأقبح ما يقال واستدل على بطلانه بأعمال هؤلاء الجهلة. فقال: ورأيت فى مصر درويشًا كان معتقدًا وله مقام يجتمع عنده الناس فى مولده حتى الخديو وهناك يرى الإنسان المسلمين يرقصون ويطبلون ويزمرون ويفعلون أمورًا فظيعة يزعمون أنها كرامات لهم وهى أمور تياترية إلخ ما قال. فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد والمجالس غير هذه الطريقة وهلا رجع هؤلاء الجهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم وما هم إلا فى أيدى الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون.. أين تصفية الباطن التى هى مدار الطريق وأين الخمول مع هذا الظهور وأين التواضع مع ركوب الخيل والبغال يقدمها الطبل والمزمار كأن الخليفة مأمور مركز أو ضابط بلد. وأين البعد عن الناس مع هذه المزاحمة الدنيوية وأين البعد عن الرياء مع الوقوف بين مئات الألوف نتمايل ونتلوى وأين الإرشاد مع هذه البدع وأين الأشياخ إذا أردنا السلوك ومن نراهم رجال اتخذوا الطريق وسيلة معاشية. أما آن لهذه البدع أن تموت ولهؤلاء الجهلة أن يتنبهوا ويعلموا أنهم بين أمم ينظرون أعمالهم وينتقدون أحوالهم ويكتبون عنهم ما يكتب عن الهمج وسكان البوادى.

انتماء تقدر كل منها على الانبعاث الذاتى وتدفق الحركة من داخلها وبالمولدات الذاتية الخاصة بها. ونحن نخطئ.. عندما ننظر إلى مجتمعاتنا بذات الرؤية والتصور الذى ساد لدينا عن مجتمعات الغرب عموماً.

ومتى صار الشعب أفراداً فقد صار الحاكم فرداً لزوال التكوينات الضاغطة، ولأنه لا توجد وقتها إلا وحدة الانتماء الأعم التى تشخص فيه بذاته منفرداً عما عداه.

إنها رؤية لوحدات التحليل تتحرك من الواقع وصوبه، وهى تعبر عن معنى الجامعية والقصد الكامن فى مفهوم الأمة. وإذا كانت تلك وحدات تحليل داخل المجتمع السياسى فإن وحدات التحليل ضمن التعامل الخارجى شهدت اهتماماً منهجياً عند البشرى على نفس المستوى الذى يحاول وضع قواعد منهج نظر لوحدات التحليل وتفعيل العمل من خلالها ليس فقط بحثياً ولكن واقعياً.

إن مفهوم الأمة كوحدة تحليل فى التعامل الخارجى لم يمنعه من رؤية الواقع الإقليمى وواقع الدولة القومية وواقع النظام الدولى بتشكلاته وملاحظة عناصر القسمة الجديدة فى ذلك الواقع. إن المستشار البشرى استطاع أن يحلل أهم معضلات المنهج فى وحدات التحليل وجمع فيها بين وحدات التحليل للتقويم، ووحدات التحليل للوصف فى الواقع، وجمع بينها فى إطار فقه تتكامل فيه وحدات التحليل ولا تتعارض ولا تتنافى.

سادساً: الأجندة البحثية للبشرى والنموذج المقاصدى

وأخيراً وتأسيساً على كل ما سبق يتحرك الحكيم البشرى صوب أجندة بحثية تتمثل قواعد النموذج المقاصدى؛ كما انتهت صياغته لدى الشاطبى فى موافقاته، ولو تفحصت أصول أجندته لوجدتها من غير عناء كبير تتحرك صوب حفظ كيان الأمة وأصول بقائها، وشروط استمرارها، وسنن ترقيتها وعمرانها؛ ضمن الاهتمام بمناهج التفكير والتدبير والتسيير والتأثير والتغيير، والأمة وفق عناصر اختصاصها وتمايزها تحمل ذلك وتحفظه بالحفاظ على دينها وشرعتها، وعلى أصول مرجعيتها وسنن فاعليتها، وحفظ نفوس الأفراد وكيانات الأمة وشخصيتها، وحفظ نسلها الذى يشكل أصول مادتها العمرانية وتنميتها البشرية.

البشر فى أجندة البشرى أهم عناصر المعادلة الحضارية، ثم ترد عناصر حفظ العقل الفردى والجمعى، عقل أفراد الأمة، وعقل الأمة ورشدها فيخاطب كل عناصر الرشد على مستوى الفرد والأمة؛ لبناء الأمة على أسس فكرية وحضارية وثقافية، وبنيان عقلى سوى وفعّال، ثم ترد فى النهاية عناصر الحفظ المادى (حفظ المال) كرمز لأصول العمران المادى بكل تجلياته وتكويناته، والتى تعتبر فى النهاية من أهم محصلات تفاعل عناصر الحفظ الأخرى وتكاملها، وتكامل الفعاليات المتنوعة للأمة وتكافل عناصرها.

الحفظ بدفع الضرر عن الأمة وابتغاء المصالح لترقيتها وعمرانها هو مقصود أجندة البشرى البحثية، وهو أمر قد يحتاج دراسة مستقلة. وهو على ما يرى من أولويات بناء وتأسيس الأمة الجامعة، ويمثل رؤيته لتحديات وأخطار تحدق بالأمة تهدد كيانها ووجودها، بقاءها واستمرارها، ترقيتها وعمرانها. يهتم بدائرة الضرورى فى البحث والمنهج، يتحرك صوب تأصيل المرجعية الجامعة، والمنهج الضابط، يجعل ذلك الضرورى محط اهتمامه وضبط سلم أولويات أجندته البحثية، فيقف فى طليعة جيش الأمة الفكرى يذود عن بيضة الإسلام وحصون الأمة الفكرية والحضارية، إنه دائماً يتحرك صوب أعلى درجات فقه السفينة، ويشيع عناصر ثقافة السفينة وفق أصول علمية وفكرية ومنهجية فى إطار منظور حضارى شامل.

فهو دائماً ما يحذر من «أن يلقى أى من بلادنا مصير الأندلس»، ويدعو الله وقانا الله شر ذلك المصير، ومن دعائه بوقاية الأمة من ذلك المصير تتولد دعوته إلى الحفاظ على الأمة من الوقوع أو السير إلى ذلك المصير؛ وبين دعائه المخلص ودعوته تقع أجندته البحثية ليكون بحق من العلماء الذين هم من ورثة الأنبياء، وفى كل مقالة أو بحث يقول بلسان الحال ألا هل بلغت اللهم فاشهد. ■

عصر المقاومة

إعادة ترتيب أوراق الزمان والمكان

أميمة أبو بكر

■ تمثل السلسلة التى أعادت طباعتها «دار الشروق» للأستاذ المستشار طارق البشرى فى طبعة أنيقة تحت العنوان المشترك (فى المسألة الإسلامية المعاصرة)، والتى تتكون من ست مجموعات هى فى الأصل مقالات تم نشرها فى صحف ودوريات أو أوراق بحثية ألقيت فى ندوات ومؤتمرات منذ بداية التسعينيات حتى الآن - تمثل مشروعاً فكرياً نهضوياً لا يخص فى الحقيقة موضوعات إسلامية بمعناها الخصوصى المحدود ولكن «المسألة الإسلامية» كشأن حضارى تاريخى يعم مصر والمنطقة العربية: أوطان عانت ولاتزال تعانى من نفس الأزمات والقضايا.

يعيد الأستاذ طارق البشرى قراءة وتحليل ماضى وحاضر الأمة، كما يعرفنا كيف نستبدل العدسة التحليلية المعتادة فى النظر والتقييم. السلسلة إذاً فى جمعها بين الطرح المنهجى المنظم وأهمية المحتوى، بين التنظير والتطبيق، هى جديرة حقاً بأن تُدرس أكاديمياً

اقتباس العلوم الطبيعية وفنون الصنائع ومحاكاة لنماذج وأطر ومؤسسات فى الإدارة والاقتصاد وبين محاكاة لفكر وعقائد وهوية، فقد ظل الوالى والياً عثمانياً مسلماً يتحرك فى إطار الوعاء السياسى والثقافى الفسيح وعارفاً أن البلاد تستمد شرعيتها ومعايير الاحتكام فيها من الوجود الشامل للعقيدة الإسلامية. أما «المصرية السياسية» التى تكونت على أثر هذه الإصلاحات فقد كانت بسبب فشل مشروع محمد على وليست بسبب نجاحه ولم تكن من صنيعه المباشر. حتى الحركات الوطنية المقاومة للاستعمار فى مصر والمنطقة العربية طوال القرن التاسع عشر كانت تصدر فى الأساس عما أسماه البشرى «الفكرية الإسلامية».

ثم كان تقدم القرن العشرين والتحول التدريجى من أخذ أساليب التنظيم فقط إلى أخذ مذاهب ونظريات وأساس عقلى ووجدانى كامل، من استيراد الأشياء الموزونة والمكيلة إلى









للمضمون القيم وكذلك لأسلوب التناول والتحاجج: فالأستاذ البشرى يهتم بالجانب التنظيمى للأطروحات التى يقدمها إذ يشعر القارئ أنه يرسم له خريطة واضحة المعالم والشعاب لما يجب أن يسير عليه تسلسل استيعابه لمنطق هذه الأفكار. ندهش حين نلحظ أن البشرى كان سباقاً منذ ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى فى التعرض لقضايا وإشكاليات أساسية مما نعده استشرافاً فى حينها لمأزقنا الحضارى اليوم فى بداية القرن ٢١ وما آلت إليه أحوالنا على الصعيدين الداخلى والخارجى. فكانت رؤية ثاقبة لكثير مما لم يُحسم حتى الآن أو يظل يتجدد ويعيد إنتاج نفسه، فالطرح ومنهج النظر لا يزالان يفسران أحداثاً نعايشها الآن من الهيمنة العولمية والأزمة الدنمركية فى الخارج حتى الفتنة الطائفية وتصاعد التيار الإسلامى السياسى أو التخلف الاقتصادى والتنموى والسياسى فى الداخل.

وهذان هما المجالان اللذان تدرسهما كتب السلسلة بموضوعاتها المتنوعة: علاقة الأمة العربية والإسلامية بالعالم الخارجى وتداعيات تلك العلاقة على مدى التاريخ ثم قضايا وأزمات الأمة الداخلية، وهما فى الغالب مرتبطان. كما يكاد ينقسم كل كتاب إلى ثلاثة محاور فى معالجة الشأن تحت النظر:

(أ) تشخيص دقيق لجذور المشكلة فى التاريخ وكيف تطورت وتشكلت وتشعبت،
(ب) ماذا أفرزت وما آلت إليه فى حاضرنا،
(جـ) ما السبيل إلى العلاج والإصلاح - فى مزج وتفاعل بين التاريخ والجغرافيا، بين تجارب الحقب السابقة بتداعياتها الحاضرة وأوطاننا التى نعيش داخل حدودها، بين الزمان والمكان.

١ـ معضلة الازدواجيات وأصلها

حتى فى كتاب (الحوار الإسلامى العلمانى) لا يقدم طارق البشرى طرحاً دينياً بالمعنى السطحى الفج حول المؤمن وغير المؤمن أو المتدين وغير المتدين ولا يكيل اتهامات واستفزازات، ولكنه يتعامل مع الإسلامية والعلمانية كمنهجين: نهج وافد ونهج أصيل موروث ليحلل - ولو منطقياً - أى المنهجين أحرى بالشرعية الوطنية والإطار المرجعى فى النظم السياسية والاجتماعية وأنماط السلوك.

هذه إذاً أول ازدواجية تواجهنا والتى تتجلى عند دراسة كيف أفضى القرن التاسع عشر إلى العشرين ونتج عن ثنائية الإقليمية الانفصالية والجامعة السياسية.

إن القراءة البديلة لمشروع محمد على تُظهر أنه لم يكن يهدف إلى إقامة نظام علمانى - بالمعنى السابق - لأنه أخذ من أوروبا (مثله فى ذلك مثل السلطان محمود الثانى فى استنبول) علوماً ونظماً عسكرية ونظماً إدارية ومؤسسية وصناعية ولكن لتخدم كياناً سياسياً إسلامياً فى إطار مشروع إحيائى عثمانى رغم كل ما يقال حول دور محمد على الثورى الانفصالى وإنشائه «للمصرية» السياسية بالتحديد كخطوة على طريق إسقاط فكرة الجامعة الإسلامية. جدير بالذكر أن تاريخ محمد على بالذات ومشروعه - وكذلك دور الدولة العثمانية - قد خضع لتفسيرات وقراءات شتى من قبل المؤرخين على كافة توجهاتهم للتدليل على نظريات ونظريات مضادة، والأستاذ البشرى هنا يقدم بالأدلة التاريخية وقراءة الأحداث والوقائع (مما ليس له مجال فى هذا العرض) خلاصة مقنعة أن مشروع محمد على فرّق بين استيراد الميزان نفسه والمكيال، ونجمت المحاكاة للفكر الغربى والنموذج الاستعمارى عن مفارقة كبيرة: فقد «صرنا ننتج ما نتضارب معه». ومع نهاية الحرب العالمية الأولى انفلتت الحركة الوطنية المصرية (التى كان يمثلها مصطفى كامل ومحمد فريد) من العقال الإسلامى الجامع لأنها فى ذلك الوقت لم تجد كيانات أو مؤسسات تقليدية ترتبط بها، بل أن عناصر التغريب قد اختمرت وبدأ جيل المدارس الحديثة يغترف أكثر من فلسفات الغرب ونظرياته ويرسم خصائص نهضة منقولة وتابعة. ولذا انطبعت الحركة الوطنية فى تلك الفترة بالطابع الإقليمى وابتعدت عن أى إطار إسلامى جامع أو عروبى أو أى انتماء أشمل، ويسمى البشرى هذا التيار السياسى - الفكرى «الوطنية العلمانية»، لأنه يحارب الوجود الغربى فى بلاده وينشد التحرر من سيطرة الاحتلال ولكنه يستلهم من الغرب أيضا تصوره لنهضته المستقبلية. وهكذا تدريجياً منذ العشرينيات والثلاثينيات قويت شوكة هذا الجيل الذى لم يكن معارضاً للإسلام ولكنه تبنى معايير الاحتكام الغربية وصار ينفذ الأنساق الاجتماعية الغربية

ولم يعد دعاة العلمانية حتى من أمثال شبلي شميل وفرح أنطون وآل نمر، بل صاروا أمثال طه حسين وعلي عبد الرازق ومحمود عزمي.

والأخطر من ذلك أنه جرى ضرب المؤسسات التقليدية واستبدلت بنظم وأنساق ومؤسسات آخذة من الغرب في كل مجال سواء في القضاء والقوانين أو في نظم النقابات والحرف والطوائف أو نظم الوقف أو نظم الأسرة الممتدة.... الخ ويضرب البشري أمثالاً أكثر تفصيلية ولكن المساحة هنا محدودة، إلا أنني أحب أن أوضح في سياق هذه النقطة بالذات: ليس معنى ذلك أن الأستاذ طارق البشري من المعارضين للتطور والإصلاح المؤسسي والتنظيمي في حد ذاته أو من الداعين إلى الانغلاق والتقوقع وسذاجة الاستقطاب الحاسم بين شرق وغرب (كما يتهم ناقدو هذه الرؤية): ولكنه يهتم بأمرين: أولاً، أن تكون العبرة دائماً بكيفية توظيف التطور والتغير لصالح الجماعة وبمدى كفاءة الصيغة المتخذة لهذا التوظيف. ثانياً: الانفصام الذي حدث بين حركتي الإصلاح المؤسسي والفكري بسبب خلل في التسلسل الطبيعي والمنطقي لدى نمو أي حضارة، ففي العادة تتحدد أولاً الأسس والتصورات والمشاريع الفكرية المطلوبة ثم «تتمأسس» حركة الإصلاح الفكري هذه، أي تتحول إلى تكوين مؤسسي تنظيمي، وليس العكس: أن تقوم الدول مثلما حدث في القاهرة واستنبول بتغيرات وإصلاحات في التكوينات العسكرية والإدارية قبل أي شيء آخر، بل بالمحاربة مع الثقافة القائمة. هذا مظهر آخر من مظاهر الازدواجية والانفصام في تاريخنا رغم أن كلتا الحركتين مطلوبة حتى لا تفتقد عمليات التجديد التنظيمي والمؤسسي وعمليات التحديث التصورات الفكرية المرجعية وتقوم في الفراغ فتصير «فاقدة المناعة تجاه ما تلبس بنماذج التنظيم الآتية من الغرب من مرجعيات وثقافات وضعية غريبة.....».

في هذا السياق إذاً وعلى أثر توسيع إطار الرؤية يعد صعود التيار الإسلامي في العصر الحديث الذي بدأ يتجسد أيضاً خلال القرن العشرين في جمعيات الشبان المسلمين في مصر (١٩٢٧)، ثم الإخوان المسلمين (١٩٢٨)...، يعد «معاودة بعد انحسار، واستجابة لكل ما حدث في الواقع السياسي والاجتماعي عندما اتجهت حركة المجتمع إلى «إضمار الإسلام وحصره في نطاق العلاقة الباطنية بين الفرد وربه». وهذا تفسير في غاية الأهمية. (وقد أشرنا سابقاً في مواضع أخرى إلى المفارقة المثيرة في أن حتى بعض الدارسين والمحللين الأجانب من ذوي المكانة العلمية المحترمة قد فطنوا إلى عنصر السياق التاريخي الأشمل لبلادنا ودور الاستعمار في إحداث القطيعة المعرفية، بدلاً من الحديث المسطح حول التديين والتسييس وكأن الأشياء تنبثق من فراغ). نعود مرة أخرى إلى أهمية هذه النقطة في إطار طرح الأستاذ البشري حول الازدواجيات التي شطرت الأمة وكان لها تداعياتها التي لا نزال نرزح تحتها حتى الآن بين الوافد والموروث، بين التابع والمستقل، بين التشرذم والجماعية. إن الحركات الإسلامية الحديثة قامت بسبب عمليات الإقصاء التاريخي للإسلامية والمؤسسات التقليدية وتحول «الجامعية السياسية» القومية والشاملة إلى تفتيت الانتماء الأعم.

وللأستاذ البشري كلام هام أيضاً حول العلاقة بين «الصيغ التقليدية والصيغ الحديثة للتعددية السياسية» محاولاً فك الارتباط (لدى بعض القناعات الحداثية) بين ثنائية النظام التقليدي والصبغة الاستبدادية والمركزية، ثم بين التغيرات المستحدثة في القرنين الأخيرين والتعددية السياسية. إن تفكيك هاتين الفكرتين النمطيتين عن «التقليدي» الأحادي في مقابل «الحديث» الغربي المتعدد يظهر مثلاً أن التنظيم الحكومي الديواني والنظام الإداري المحكم الذي شيده محمد علي رغم مكاسبه قضى على تكتل المصريين في طوائف وهيئات لها كيانها وحريتها، ونتج عن ممارسة الشعب قدر من الحكم الذاتي في مواجهة الكثير من العسف واستبداد السلطة الأحادي، ونفس الشيء حدث مع عهد «التنظيمات» الشهير في التاريخ العثماني (١٨٢٦ - ١٨٧٦) الذي رمى إلى استحداث مؤسسات ونظم جديدة أطلقت العنان للسلطة المطلقة للسلطان العثماني حينئذ أكثر من أي وقت مضى بسبب إبادة الإنكشارية وإضعاف طائفة «العلماء»، وفي كل الأحوال أمدت الوسائل العسكرية والإدارية الأوروبية الحاكم بأسلحة جديدة يعزز بها سلطانه وبطشه.





ما حدث إذاً هو أن الإصلاحات والاستحداث الناقل من الغرب أدى إلى انهيار «التعددية» بالمعنى التقليدي في المجتمع بينما عزز وأطلق سلطة الحاكم التقليدي. والمحك الرئيسي هو مدى الصالح الأجنبي أو الصالح الوطني في ضياع التعددية التقليدية وتعزيز «الواحدية التقليدية»، ذلك أن الأولى خسرت لحساب سلطة الحاكم الفرد سواء كان السلطان محمود الثاني أو عبد العزيز في استنبول أو محمد علي والخديو إسماعيل في مصر، وفي نفس الوقت فإن «التعددية السياسية» التي سادت خلال القرنين الأخيرين كانت تعددية فوقية في أعلى السلطة وفي النطاق المركزي لها المتمثل في الأحزاب والسلطات الدستورية الثلاث بهدف إيجاد المنافذ للسلطة الفعلية البريطانية للوصول إلى مراكز إصدار القرار في الأجهزة المصرية. أما المستويات التحتية من قواعد المجتمع ومؤسساته فكانت تزداد ضعفاً والتحاقاً بمدار الدولة المركزية المهيمنة. ويتفق مع هذه الرؤية كذلك العديد من الباحثين والدارسين خاصة من المدرسة التاريخية التي كونت على مدار العقود الثلاثة الأخيرة تياراً يعرف باسم «نقد الحداثة»، ومن موضوعاته الأساسية إعادة النظر في نشأة وتاريخ تكون «الدولة القومية المركزية الحديثة» (modern nation-state) كنسق: بمؤسساتها وأجهزتها المهيمنة وتبنيها لأيديولوجية تمركز القوى في السلطة الحاكمة - الراعية والحامية الوحيدة. وقد أثبتت هذه الدراسات التاريخية لمصر والمجتمعات العربية والإسلامية وجود مجتمعات مدنية ومؤسسات وحراك اجتماعي وتعددية ومرونة في العلاقات الاجتماعية قبل العصر الحديث وحتى في الفترة العثمانية، وأن التطورات الحديثة لم تجلب بالضرورة إيجابيات مائة في المائة بل كانت أحياناً كثيرة بتراً وضياعاً لشخصية المجتمع وتكريساً للفلسفة الاستشراقية الاستعمارية أن هذه شعوب بلا ماض ولا حضارة، بل بدأت حضارتها ونهضتها الحقيقية يوم أن وطأ المستعمر بأقدامه أراضيها لينظمها وينورها. (انظر دراسات رءوف عباس ونيللي حنا وتيموثي ميتشل).

البشري كان سبّاقاً منذ ثمانينيات
وتسعينيات القرن الماضي في التعرض
لقضايا وإشكاليات أساسية مما نعدّه
استشرافاً في حينها لمأزقنا الحضاري
اليوم في بداية القرن ٢١

والغريب أن يتوازى هذا المنظور ذاته مع دراسات أجنبية للتاريخ الأوروبي نفسه عن تغيير النظرة النمطية تجاه المعالم التاريخية الشهيرة لديهم مثل عصر النهضة والتنوير والثورة الصناعية والحداثة وقيام الدول القومية. ودراسة التداعيات السلبية لهذه التطورات مقارنة بالعصور قبلها وتبديل النظرة حتى إلى القرون المعروفة «بالعصور المظلمة» (dark ages) وإعادة اكتشافها واكتشاف مزاياها قبيل الثورة الصناعية وصعود الطبقة المتوسطة وسيادة قيم السوق ورأس المال..... إلخ. يحدث هذا بينما لازالت أقلام عربية تنادي بالحداثة على إطلاقها استمراء للوضع الذي يشرحه الأستاذ البشري: وضع الانفصام أو الانشطار الطولي بين أبنية تقليدية مبتورة لا تفضي إلى جديد وأبنية أجنبية لقيطة. بينما الأصلح مثلاً أن تُبنى الصياغات التعددية الحديثة على ترابط مع الصياغات التقليدية، وليس على حسابها، وليس على أنقاضها». وارتباطاً بذلك، للأستاذ البشري كلام محدد حول نوعية «التجدد الحضاري» المنشود وحول الرؤية المستقبلية للمشروع الوطني ثم ماذا تعني الوسطية الإسلامية كحركة للإصلاح - سنصل إليه بعد قليل، حيث ننتقل قبل ذلك من الأصول التاريخية للمسألة إلى تشخيص الحاضر ورسم لخريطته الفكرية والسياسية.

٢- الظاهرة الإسلامية المعاصرة وعلاقتها بالمحيط الفكري والسياسي

يتعرض الأستاذ طارق البشري لبضعة تساؤلات مهمة حول علاقة «الإسلامية» الحديثة والمعاصرة بقضايا أو كيانات موازية موجودة على الساحة ودائماً مايثار الجدل حول هذه العلاقة الشائكة وحول

تضارب «الفكرية الإسلامية» (بتعبير الأستاذ البشرى) مثلاً مع كل من: الآخر العلمانى أو المنهج الوضعى ثم مع جمهور الأقباط والقضية الطائفية فى مصر ثم مع فكرة الحق فى التعبير ثم مع «جامعة العروبة» والقومية العربية. وهى كما نرى سلسلة موضوعات جديرة بالدراسة والتحليل المتعمق ولن يسعفنا المجال هنا أن نعرض بالتفصيل كل الأدلة التى يسوقها البشرى لإثبات مشروعية تواجد التيار/ المشروع الإسلامى بل ووطنيته لارتباطه بالتربة الحضارية للأمة والجامعية» المنشودة، لذا فسنكتفى بإشارات إلى أهم هذه الحجج والأفكار.

بالنسبة لمسألة «الحوار الإسلامى العلمانى» (وهو عنوان أحد الكتب فى السلسلة) نكتشف قصوراً فى منهج النظر أصلاً من الجانبين على حد السواء تجاه النظام الإسلامى: هناك تصور مغلوط يضع هذا النظام كما لو كان ضداً لكل النظم الغربية ولكن فى الحقيقة لا تستقيم المقارنة بين الإسلام وبين أى من الرأسمالية والإشتراكية أو الديمقراطية مثلاً حيث يمكن أن يتفرع عن الأصول العامة ومسلّمات المرجعية الإسلامية أكثر من تصور لنظام سياسى أو اجتماعى واقتصادى واحد ويمكن أن يختلف بعضها عن بعض فى الفروع بتباين ظروف الزمان والمكان وأوضاع الواقع. وتكون النتيجة لتلك المقارنة المغلوطة ترسيخ فكرة عزل الإطار الإيمانى الإسلامى وتصوراته العقيدية فى صياغة مشروعات الإصلاح السياسى والاجتماعى والمؤسسى والقانونى، وانفصال علوم الدين عن علوم الدنيا والإنسانيات مثل الآداب والاقتصاد وعلوم الاجتماع....الخ، بينما المطلوب وصل «الأصول العقدية بفروع علوم الإنسان على النحو الذى نراه عند ابن خلدون.... وكتابات المؤرخين المسلمين، بمعنى أن نرى الواقع المعيشى بنظر إسلامى يربط الموقف العقدى العقلانى بمنهج رؤية الواقع واستخراج الدلالات العلمية لهذا الصنيع». وهكذا ينتقل البشرى إلى مجال النقد الذاتى حين لا يتردد فى بيان أوجه قصور الحركات الإسلامية المعاصرة فى تركيز دعوتها فى أربعة مجالات فقط: (أ) استعادة ما كان للإسلام من سيادة على الشرعية الاجتماعية والسياسية، (ب) الاستقلال الوطنى وتجييش الشباب من أجل التحرير، (حـ) صون سلوك الأفراد والجماعات والأخلاق، (د) تطبيق الشريعة الإسلامية. بينما لم نجد جهوداً كافية فى مجال(١) الديمقراطية(٢) والاقتصاد(٣) ومجال المؤسسات الاجتماعية(٤) والسياسة الدولية. ويصل من ذلك إلى خلاصة مؤداها أن قصر النظر والتحدى الإسلامى على مجال الدعوة وتطبيق الشريعة والتحقق من إسلامية سلوك الفرد فقط دون النظر العلمى فى شئون المجتمع وربط فقه الشريعة بعلومه يؤدى إلى تكريس تلك القسمة السابق ذكرها فى وعى الناس «وتعميق التناقض فى نفس الفرد بين نظام الفروض والمحرمات وأساسه الدينى، وبين الممارسة الواقعية التى تتجاذبها حركة المجتمع والتى تخضع فى توجهها للنظر العلمانى الوضعى».

وقبل الانتهاء من هذه الجزئية يتساءل الأستاذ البشرى إذا كانت القوى الإسلامية تستطيع تجاوز الاستقطاب الفكرى الحاصل لبناء تيار سياسى حضارى غالب يمثل الأمة فى عموميتها ويستوعب القاسم المشترك الأعظم للعمل الوطنى العام : (فيما عدا فئتين محددتين من العلمانيين: (أ) الذين يعتنقون التفكير المادى الذى ينكر الغيب تماماً، (ب) والفئة المغربة قلباً وقالباً التى تدور فى فلك المرجعية الأوروبية الأمريكية كنموذج أوحد للتقدم والعصرية قطعاً لأى جذور حضارية أو ثقافية). «أتصور أن الوطنية الإسلامية قادرة على جذب فئات عديدة بالمعيار السياسى للوطنية، وبالمعيار الاقتصادى للعدالة الاجتماعية والنهوض الحر المستقل، وبالمعيار الديمقراطى، فضلا عن المعيار الفكرى العقدى».

وعن علاقة الحركات الإسلامية بالقضية الطائفية، أى بالأقباط المسيحيين فى مصر مثلاً، يغيّر البشرى من النموذج التحليلى المعتاد والنمطى فى وضع «الإسلامية» فى علاقة ضدية تجاه الأقباط ويضع الفريقين فى سلة واحدة باعتبار أنهما الفئتان اللتان تعانيان مما أسماه «فقدان الأمن الاجتماعى» ويؤكد أن الحصار والنكران يولدان التعصب والغلو والتطرف بصفة عامة وليس الفكر فى حد ذاته. وهذه ملاحظة فى غاية الأهمية ولطالما جرى التنبيه أن الأزمة برمتها تعود إلى قضية السياق التاريخى والسياسى وما يفرضه من رد فعل أو مواجهة؛ وليس إلى جوهر فكر أو اعتقاد دينى، فإن أصل المطالبة بالنظام الإسلامى قام فى مواجهة حركة التغريب فى المجتمع، وليس فى مواجهة الأقباط قط، بل إن الأقباط كمواطنين مصريين وككنيسة ومذهب عانوا أيضاً من هذه الهجمة التغريبية. هذا يعنى أن إضعاف الإسلام فى مصر لن يتم لحساب الأقباط ولكن لحساب الحضارة الغربية المكتسحة، أى أنه هناك فريق ثالث من أهل التغريب والعلمانيين يثير مخاوف الأقباط من ناحية ثم يثير مخاوف الإسلاميين من ناحية أخرى، «ويحتمى بالقبط وبمبدأ المساواة فى صراعه مع التيار الإسلامى... ولا يدافع عن القبط ولكنه يدافع عن نفسه بالأقباط.... يستخدمهم سلاحاً يرمى به خصومه هو» (!) وإذا كنا نقول إن على الإسلاميين المطالبين بتطبيق الشريعة طمأنة الأقباط على أوضاعهم، فنحن سوف نعود مرة أخرى إلى البداية حين طرح ملحوظة أن الخائف على وجوده والمحاصر لا يستطيع طمأنة غيره أصلاً: «يصعب على غير الأمن أن يضمن الأمن لغيره» ولا يجب أن يتصور القبطى فى رأى البشرى أن الشيوع الإسلامى يهدد أمنه لذا يجب تقليل الإسلام، أو أن يتصور الإسلامى أن وجود القبطى هو ما يعوق تحقق دينه فى المجتمع. وهذه هى العقدة التى يكشفها البشرى ويطرح أفكاراً واجتهادات لحلها.

قضية أخرى تتقاطع مع الظاهرة الإسلامية ويدهشنا كيف أنها أيضاً وثيقة الصلة بأحداث اليوم والأمس القريب: مسألة «الحق فى التعبير» و«الثوابت الدينية». تقوم المشكلة بين مرجعيتين فكريتين: مرجعية ثوابت الدين، والمرجعية الوضعية التى تستخدم «حق التعبير» بوصفه مقدساً أوجده البشر فى مرحلة ما من التاريخ ليحل محل المرجعية الدينية ويزيح ثوابتها. ثم هناك العلاقة بين حق وحرية الفرد من ناحية وحق الجماعة من ناحية أخرى : يجب أولاً محاولة التوفيق بينهما ولكن إذا لم يمكن كان حق الجماعة أولى بالمراعاة، وحتى استناداً إلى الفكر الوضعى فيما أوردته الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق المدنية والسياسية يستشهد البشرى بالفقرتين الأولى والثانية من المادة١٨ التى تؤكد على مفاهيم «السلامة العامة أو النظام العام أو الصحة العامة أو الأخلاق» كمعايير تخضع لها فى النهاية حرية الفرد. والنقطة الأخيرة فى هذا الصدد أن النسبى من الحقوق والحريات والرخص مما هو شئون البشر يقف عند حدود المطلق من ثوابت الدين والتصورات الإيمانية: مثلاً فى الإسلام الإيمان بوجود الذات الإلهية وان الله سبحانه مطلق الوجود، مطلق القدرة، مطلق التنزيه، فضلاً عن الرسالة النبوية وأن القرآن هو كلام الله أنزله الروح الأمين على محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبالنسبة للمسيحية ما يؤمن به المسيحيون فيما يتعلق بالوجود الإلهى وصفات السيد المسيح.

ثم نصل إلى العلاقة بين الإسلام والعروبة والسؤال المطروح هو: هل يمكن إيجاد صيغة للتقبل المتبادل بين العروبة والإسلام من حيث الجامعة السياسية، صيغة تمكّن الجامعة الإسلامية من أن تحتضن الكيان العربى كواحد من مكوناتها، وتمكّن العروبة من أن تستشرف آفاق الجماعة الإسلامية؟ بعد ذكر العديد من الأمثلة المحددة من تاريخ مصر والشام والهند فى القرن العشرين كدراسات حالة، ينتهى الأستاذ البشرى إلى أن كلا من الحركة العربية فى النموذج الشامى والحركة الإسلامية فى النموذج الهندى غلب عليهما «الوظيفة الانسلاخية» عن أى جامعية توفيقية بين

يغيّر البشرى من النموذج التحليلى المعتاد والنمطى فى وضع «الإسلامية» فى علاقة ضدية تجاه الأقباط ويضع الفريقين فى سلة واحدة باعتبار أنهما الفئتان اللتان تعانيان مما أسماه «فقدان الأمن الاجتماعى»



التيارين القومى والدينى الإسلامى، بينما تميزت الحركات الإسلامية فى مصر وشمال أفريقيا بعدم المواجهة مع التوجه العروبى. المهم فى الأمر عند الحديث حول التقارب بين هذين التيارين أن نركز على «الآثار التوظيفية» الإيجابية لهما: أى «الترابط والتداخل الحادث بين العروبة والإسلام والأهداف المطروحة والغايات المرجوة». كعادته دوماً ما يعنيه الأستاذ البشرى والمعيار الذى يحتكم إليه فى التقييم والقراءة هو كيفية توظيف الشىء للصالح الوطنى العام أو كيفية توظيفه للصالح الأجنبى الطامع. وهذه الأداة التحليلية تقوده إلى إحدى الازدواجيات التى ذكرت فى بداية المقال بين «التفتت» والشرذمة من ناحية وبين «التوحيد» والجامعية من ناحية أخرى. فعلى مستوى الخطاب والدعوة فى مجال العروبة والإسلام تقوم إثارة التناقض وإفساد عوامل التوحيد بل وضربها ببعض حتى تؤدى إلى تفتيت مضاعف: فعندما تكون الجامعة الإسلامية قائمة على أساس الدين (مثل الدولة العثمانية مثلاً وضمها للعرب والترك) يثار العنصر القومى كعنصر مفتت (مثل حركة التتريك والحركة العربية كانسلاخين قوميين)، وعندما يؤتى ثماره، يثور من جديد عنصر الدين لشرذمة الكيانات المنقسمة من قبل. وإذا توجه الإسلام ضد الاستعمار أثيرت النزعة القومية لتشتيت حركته والعكس صحيح. وهو ما يشار إليه باللفظ الرائج فى التعبيرات السياسية: «الفتنمة» - أى بدلاً من أن يقاتل الأمريكيون الفيتناميين مباشرة، يثيرونهم ليقاتل بعضهم بعضاً. (ألا ينطبق ما سبق على المشهد المأساوى الآن بالعراق؟).

يجب أن نسعى إذاً إلى «العنصر الجمعى» بحيث نقيم الأوجه والعوامل إزاء بعضها فى وضع التكامل وليس التنافى، فأهم وجوه الاتفاق مثلا يظهر فى الجانب التوحيدى والتحريرى، أما وجوه الاختلاف فيتمثل فى أن الجامعة الإسلامية تشمل العرب وغيرهم والجامعة العربية تضم المسلمين وغير المسلمين، فالدائرتان لا تتطابقان ولكن تتداخلان، ويقتضى الأمر جهداً توفيقياً حول أوضاع غير المسلمين من العرب وغير العرب من المسلمين. وهكذا يمضى الأستاذ البشرى فى الكشف عن أبعاد هذه القضية بموضوعات عن الاختلاف بين النخبة والجماهير حول العلاقة بين القومية العربية والإسلامية. ثم عن الأقباط والوحدة العربية، وكذلك مناقشة لدراسة باحث عربى آخر عن «الإسلام والمسيحية العربية والقومية العربية والعلمانية».

لايفوتنا أن نذكر أن الأستاذ البشرى قد ناقش أيضاً الظاهرة الإسلامية الحديثة والمعاصرة فى علاقتها بالفكر السياسى والحركى بالتحديد: أى أنه قام بعمل قراءة تقويمية مقارنة لرواد فكر الإسلام السياسى فى القرن العشرين راسماً خريطة واضحة للخطابات المتباينة ونشأتها داخل التيار العام. سنكتفى هنا بالإشارة إلى عناصر وتفريعات هذه الخريطة حيث لا يسمح المجال بالخوض فى التفاصيل. يبدأ التاريخ المعاصر للمنطقة بحركتين للإصلاح إحداهما حركة تجديد فقهى وفكرى وهى حركة محمد بن عبد الوهاب فى نجد فى القرن الثامن عشر (١٧٠٣ - ١٧٩١) وحركات أخرى على غرارها فى بلاد عربية وإسلامية أخرى، والثانية حركة الإصلاح المؤسسى على امتداد القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بين استنبول والقاهرة على يد السلطان سليم الثالث ومحمد على. ثم تمتد مسيرة الفكر الإسلامى المعاصر وتتراكم لكن على موجتين: (أ) المد الأول يتمثل فى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد إقبال وحسن البنا. (ب) والموجة الثانية يمثلها سيد قطب وأبو الأعلى المودودى (وباختلاف فى الأسلوب: سعيد النورسى فى تركيا وجماعة التبليغ فى الهند). (أ): وضع الأفغانى اللبنات الأولى فى الفكر الإسلامى الحديث المقاوم للاستعمار ولتبعية القوى الأوروبية الكبرى الحاصلة؛ وقدم محمد عبده فكرة التجديد فى الفقه الإسلامى والتفسير أى أنه الوجه المجدد المقاوم للجمود؛ ثم محمد اقبال فى ربطه بين الروح والمادة، بين العبادة والعمل، بين المبادئ المثالية للدين والقوى المكانية والزمانية قدم الوجه الذى يربط العقيدة بالحياة على المستوى الفلسفى والوجدانى الروحى؛ ثم حسن البنا الذى قدم فكرة شمول الإسلام وربط العقيدة بالحياة العملية فى صورتها التطبيقية والتنظيمية - أى شمول العقيدة من حيث هى حركة وتنظيم وسياسة. (ب): أما الموجة الثانية فهى تتميز بالحدة والعنف لأنها تعتبر «استجابات مرحلية متغيرة لحالات طارئة» وليست فى ثبات وعمق الأوجه الأربعة السابقة. توصف الدعوة الأخيرة بالغلو لما تفضى إليه من الابتعاد عن المجتمع وفكر المصادمة بالمقارنة بفكر الانتشار والذيوع الذى يمثله حسن البنا. عند تقييمه لقطب وعقد المقارنات التحليلية لا تغيب عينا الأستاذ البشرى عن السياق والظرف التاريخى الذى يظهر فيه كل مفكر ولا يجانب أسلوب الموضوعية والعلمية فى النقد واستخدام الألفاظ. إذ أن الهدف هو «الفرز» وإعادة الترتيب والتمحيص، وليس التهجم أو إهالة التراب بسبب مواقف معروفة مسبقة. لا يفوته أن يذكرنا أن الحصار والتضييق يولدان العنف وأن الغلو ليس لصيقا بالفكرة الإسلامية السياسية فهى لا تنتج عنفاً بطبيعتها، وأن «كل تيار فكرى سياسى فيه إمكانات اعتدال وإمكانات تطرف: وجدنا ذلك فى الحركة الوطنية، ووجدناه فى الحركة القومية، وفى الحركة الاشتراكية». لا يصدر الغلو عن جمود أو تحجر فكرى، ولكن بسبب رؤية الواقع - الإحساس بالحصار والاغتراب وأن إمكانات التحقق لما ينادى به مسدود. كما أن «الوعاء العام للسببية» هو هيمنة التغريب والغزو الاستعمارى لبلادنا، وباختصار شديد «سيبقى الغلو ما بقى التغريب».

هل يمكن إيجاد صيغة تمكِّن الجامعة الإسلامية من أن تحتضن الكيان العربى كواحد من مكوناتها، وتمكِّن العروبة من أن تستشرف آفاق الجماعة الإسلامية؟

بعد مناقشة القضايا والمجالات السابقة نورد هنا على سبيل الخلاصة لهذا الجزء استخلاص عناصر الظرف التاريخى الحاضر كما يراه البشرى، والتى تستوجب المواجهة العامة: الملاحظة الأولى - نحن الآن فى وضع التبعية للقوى الغربية المهيمنة، نحن بوصفنا عرباً أو مسلمين أو أفريقيين أو آسيويين. ثانيا - نحن فى وضع تجزئة وكل عنصر من عناصر وجودنا يمثل الآن فى تشرذمه عنصر إضعاف وليس عامل قوة. ثالثاً - نحن نعانى حالة صدع فى حياتنا الفكرية ورؤانا الحضارية يشطر المجتمع بل ويفصلنا كأفراد وجدانيا ويجعل الأمة أمتين.

مفهوم «العصرية»

قبل الانتقال إلى مجال استشراف المستقبل حيث يقدم الأستاذ البشرى رؤاه عن المشروع الوطنى والتجدد الحضارى وكيفية النهوض ثم عن مفهوم الوسطية الإسلامية. يجدر التوقف قليلاً عند أطروحاته حول المعاصرة ومفهوم «وحدة العصر». والأخيرة تشير إلى خلاصة منهج فى التفكير وفى التقييم الحضارى والتاريخى يبدأ باعتبار أن تاريخ الإنسانية يسير فى خط مستقيم تصاعدى يحمل معه البشرية بالضرورة إلى درجات أعلى من التقدم والرقى والتنوير. ومن مستلزمات هذا الخط التطورى القطيعة المعرفية والثقافية مع الماضى وقيمه التقليدية فهذا جزء من نظرية «التحديث والعلمنة» الغربية أو «الحداثة» والمعاصرة التى تشطر المجتمعات البشرية بناء على هذا المقياس إلى شعوب «تقليدية متخلفة» عن الركب والسباق وشعوب «عصرية أو متقدمة». (نتذكر هنا فى المقابل نظرية ابن خلدون عن «النمط الدورى» لمسيرة التاريخ وتصويره كحلقة أو جملة حلقات تمثل كل حلقة حضارة وكل حضارة لها بداية ونهاية... إلخ) . إلا أن ذلك الفهم الخطى للتاريخ وكيفية تحول مفهوم «العصر» من عنصر زمانى حيادى إلى معيار للحكم الحضارى والثقافى قد تم فرضه عالمياً وعلى شعوبنا رغم اختلاف الأنساق والسياقات والتجارب التاريخية: فكيف يتبنى افريقيو جنوب افريقيا معايير موحدة للتقويم التاريخى والحضارى تضمهم مع المستوطنين الأوروبيين فى

بلادهم؟ وكيف يشارك مسلمو الجزائر عرباً وبربر الفرنسيين فى خريطة تاريخية واحدة، وكيف نتخذ نحن العرب معايير تقويم تضمنا مع الصهاينة؟ إن الإدراك أن العالم كله يقف على سلم صعود واحد وأن الحكم على درجة رقى مجتمعاته يتم من منظور شمولى يفرضه من قرر أنه الأعلى هو نوع من العنصرية : «وحدة العصر» هذه إنما هى فى حقيقتها «المركزية الأوروبية» التى فطن إليها عدد غير قليل من الباحثين الأجانب (مثلاً بيتر جران فى كتابه المشهور) وقام بنقدها تيار «نقد الحداثة» (الذى ذكرناه من قبل) وبتمحيص مدلولاتها العنصرية. أما الطامة الكبرى بلاشك فهى استيعاب أو استبطان شعوبنا لهذا المنظور الاستعمارى العنصرى لوحدة العصر ووحدة التقدم فتصبح العقول هى المستعمرة رغم تحرر الأرض، «وصرنا نصدق من أمر أنفسنا أننا فى بلادنا نحيا فى عصرهم».

ثم يشرح المستشار البشرى أهمية إعادة تقويم وتسمية مراحل تاريخنا وتغيير منهاج النظر، فلا نقسم تاريخنا وفقاً لأقسام التاريخ الأوربى بظن أن هذه التقسيمات هى تقسيمات لتاريخ العالم، وهذا جزء أساسى من عملية التخلص من التبعية ومن عملية التحرر الثقافى والفكرى والوجدانى الذى يستلزم وقتاً أطول من تحرير الأرض من الاستعمار، (وقد توسعت دراسات «ما بعد الكولونيالية» فى شرح هذه المراحل de-colonization وناقشت الوقوع فى فخ الوعى المستعمر colonized mind وأن تمارس الشعوب العنصرية ضد نفسها). يجب أن نحذر من محاولات إخضاع تاريخنا الماضى لمعايير التاريخ الغربى وإعادة كتابته وفقاً لذلك التصور: «وليسم الغرب حاضره بعصر الذرة، أو عصر الثورة الصناعية الأولى أو الثانية، أو ثورة المعلومات والاتصالات. أما نحن، فلا أظن اسماً يصدق على عصرنا منذ مائتى سنة حتى اليوم إلا اسم عصر التبعية ومقاومتها». ويضرب البشرى الأمثلة ليدلل على اختلاف المنظور التاريخى: حقبة «العصور المظلمة» الأوروبية التى لا تنطبق على تاريخ الحضارة الإسلامية، ثم المفهوم الأوروبى عن «الدين» المستقى من تجربة أوروبا المريرة مع بابوية الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى - هذا المفهوم الذى يراد له أن يكون النموذج لأى دين فى أى مكان وأى ثقافة. أما الاكتشافات الجغرافية الأوروبية لجنوب أفريقيا والطرق البحرية إلى الشرق وأعماق آسيا وأعالى نهر النيل، فقد كان البحارة العرب يجوبون تلك البحار القريبة منهم وينشئ الرحالة العرب طرق التجارة وقوافلها فى آسيا وافريقيا، «ومن الخزى إذاً أن نعتبر أنفسنا كإفريقيين قد وجدنا يوم رآنا الرجل الأوروبى، كأننا بذلك موضوع مدرك ولسنا أنفساً واعية مدركة». والمفارقة العظمى أن هذه «الوحدة التاريخية» التى أجرت إلحاقنا بالتاريخ الأوروبى قد واكبها ولازمها تفتيت وتقسيم لجماعتنا السياسية بأقطارها وجغرافيتها. فى نهاية الأمر علينا ألا ننسى أن العنصر الحاكم فى ظروفنا دائماً هو عنصر المواجهة والغزو الذى لا يظهر له وجود ولا أثر فى نشأة «الحداثة» الغربية.

٣ - ماذا عن المستقبل؟

بعد محاولات فهم الماضى والحاضر وتمحيص التاريخ والجغرافيا، هل لنا أن نتحدث عن مشروع وطنى يضم الجماعة العامة؟ نعم. إن الجماعة الوطنية تشتمل على وحدة انتماء أصلى حاكمة لغيرها من الوحدات، فبينما نقر بوجود وحدات الانتماء الفرعية إلا أن الانتماء للوطن السياسى العام هو الانتماء الحاكم والمصلحة السياسية المشتركة هى المصلحة الحاكمة، وهذا هو أساس شمولية المشروع الوطنى الذى يضم تحت لوائه مصالح أو مواقف متعددة. ومن هنا ننتقل منطقياً إلى سؤال آخر: هل هناك سبيل إلى «التجدد الحضارى» كمشروع حضارى عربى للنهوض؟ وهنا يقدم البشرى تعريفه لمفهوم «التجدد الحضارى» بأنه يفترض أن حضارة معينة تستبدل جديداً بقديم وتستعيض بمناسب عما لم يعد مناسباً. فالأمر منسوب لحضارة معينة والتجدد لايعنى طرحها كلها وإيجاد حضارة أخرى بديلة (وهو المنظور الحداثى الذى أشرنا إليه والذى يدعم القطيعة مع كل ماهو ماضوى بدون تمحيص)، وإنما هو إدخال تعديلات فى تكويناتها الفرعية واستيعاب عدد من المستجدات الجزئية فى كيانها الكلى، حتى يتحقق الاستقلال الحضارى. ويجب فى هذه العملية التمييز بين «الثوابت والمتغيرات الحضارية». ويقدم البشرى أمثلة سريعة مثل احتياجنا إلى منتجات الغرب فى العلوم الطبيعية والتكنولوجية وإلى النماذج التنظيمية وعلوم الإدارة، إلا أنه معنىٌ فى الأساس بمشاكل الهوية والانتماء ومخاطر أنماط علاقات السيادة والتبعية وقوة الآثار السلبية للاحتكاك الحضارى - الثقافى بالغرب، ويتخوف من النمط السائد فى تطور هذه العلاقة من «الاحتكاك إلى الاقتحام حتى الاستمالة حتى الإقناع ثم أخيراً حتى التربية والتعليم ومختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية....» يركز البشرى على تكوين ما أطلق عليه «وطن فكرى» يضمنا جميعاً بمرجعية شرعية واحدة تجمع المجتمع كله بما يفيد تماسك الجماعة مهما اختلفت وجهات نظرنا ومصالح جماعاتنا الفرعية: هذه الجماعة السياسية لابد لها من «اتصال جغرافى وامتداد تاريخى» وهوية تعتمد ليس على الأغلبية العددية ولكن على «العناصر الفعالة» بهذه الهوية. وهنا قد تبرز ملحوظة انتقادية على هذا الطرح: أن تناقضاً يظهر بين نقد البشرى لمفهوم الشمولية التاريخية (وحدة العصر) من ناحية وتشجيعه لشمولية الجماعة السياسية والمرجعية الفكرية الحضارية الواحدة من ناحية أخرى، وهو ما يؤدى إلى طمس أو التقليل من شأن مصالح وحقوق المجموعات الفرعية وإلى سحب بساط الشرعية من هذه المطالب، وإلى إسكات أصوات فردية لصالح رؤى شمولية جامعة لا تأخذ فى الاعتبار الاختلاف. كما قد يشعر القارئ بعدم التأكيد الكافى أيضاً على وجوب النهوض العلمى لبلادنا - وهو مجال يزداد فيه تقاعسنا بدرجة مخيفة ومحزنة ربما على أثر تخبط السياسات الاقتصادية والتجارية والتنظيمية - بسبب تخوف البشرى الأكبر من دمج ما أطلق عليه «النماذج التنظيمية» بالأسس أو الأطر المرجعية الثقافية والتاريخية.

وفى موضع آخر يناقش البشرى بالتفصيل أسباب التطور المعوق فى بلادنا، منها السبب الرئيسى المتعلق بعدم الاستمرار فى أى من الدروب التى سلكناها: «على مدى المائة عام الأخيرة، عشنا مرحلة الانتقال إلى التحرر، وقبل أن تتحقق (كاملاً) دخلنا فى الانتقال إلى نظم التنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية، وقبل أن تتحقق دخلنا فى مرحلة الانتقال إلى التعددية». وهكذا صارت عندنا أجزاء ممزقة من أنظمة مختلفة تتعايش حيناً وتتضارب أحياناً أخرى، وصرنا نتعامل دوماً مع واقع ليس متسقاً أو منسجماً. ثم حين نشرع فى التنمية «لا نعدل القديم ونجدده ونغيره، إنما نستبدل به غيره ونحطمه ونلغيه ونقيم بدلاً منه هيئات ليست (نابعة) منه ولا مصنوعة من مادته... فلم يجئ التطور) بالإحياء والبعث وإعادة التوظيف، إنما جاء بالهدم والبتر والإقصاء».

وللمستشار البشرى كلام مهم حول دور الوسطية الإسلامية فى الإصلاح المنشود، وهو يعرف ويحلل أصولها ليس فقط كقيمة إرشادية ولكن أيضاً كظاهرة تاريخية فى تاريخ الفكر الإسلامى على مدى القرون الخمسة الأولى تثبت قدرته على استيعاب التعدد وعلى سيادة «وسطيته» على أطرافه وعلى المرونة فى استيعاب الاختلاف : مثلاً الاختلافات التاريخية المعروفة حول النص والرأى، الشريعة والحقيقة أى العقل والوجدان، السنة والشيعة....الخ. أما حركة الفكر الإسلامى فى النصف الثانى من القرن العشرين خاصةً فهناك جهود تحاول الوصول إلى نقطة التعادل بين المحافظة والتجديد، ومن العلامات المضيئة لهذا الجيل فضيلة الشيخ المرحوم محمد الغزالى وفضيلة الشيخ يوسف القرضاوى. ويقدم البشرى مقترحات محددة لتحقيق هذه الوسطية: (أ) أن نقيم الوسطية لا بالمصالحة الفجة أو التلفيق الفكرى ولكن بوضع القواعد والمناهج أولاً. (ب) أن ندخل المصالح فى إطار النصوص وندخل النصوص فى قلب المصالح والمقاصد، فلا يحصل تعارض وتواجه بل تداخل عن طريق وجود معان مشتركة.(جـ) أن نوجب على الجميع

الفهم الخطى للتاريخ وكيفية تحول مفهوم «العصر» من عنصر زمانى حيادى إلى معيار للحكم الحضارى والثقافى قد تم فرضه عالمياً وعلى شعوبنا رغم اختلاف الأنساق والسياقات والتجارب التاريخية








الالتزام بالمرجعية الإسلامية ثم نترك لكل التحرك بين الآراء والمذاهب والاجتهادات فى إطار ما تسعه هذه المرجعية وأوامر الدين ونواهيه. (د)تحويل الخلاف والانقسام إلى تنوع وإلى بدائل. (هـ) أن نترابط بعلاقات الحوار الهادئ البنّاء الذى يتغذى من الآراء المتباينة.

استكمالا لمنهج استشراف المستقبل وتشخيص الحاضر تشخيصاً دقيقاً، ينتقل البشرى إلى موضوعات أكثر تحديداً مثل العلاقة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعى وقضية تطبيق الشريعة الإسلامية وماذا تعنى بالضبط. وهذا جزء متعمق من السلسلة معنى فى الأساس بالقانون لا يستطيع أى عرض مختصر أن يوفيه حقه أو يخوض فى تفاصيله، ويكفى التنويه هنا إلى فروقات يشرحها البشرى بين الشريعة والتشريع، بين الشريعة والفقه الإسلامى (أى عناصر الثبات والتغير)، وإلى الملامح العامة لأساليب التطوير فى التشريع الإسلامى فى القرن العشرين، مشيراً إلى القدرة الهائلة للشريعة الإسلامية على التجدد فى فروعها مع المحافظة على أصولها. كما يوضح أن المقصود من حركة العودة للشريعة الإسلامية هو العودة إلى الإطار المرجعى والمنهجى (الاجتهادى) وليس إلى أحكام تفصيلية بعينها، ويعتقد أن الخطأ فى الجدل حول هذا الموضوع هو أن نُستدرج إلى الحديث عن الأحكام الفرعية فقط فى حين أن الهدف الأسمى هو إثبات قدرة الشريعة الإسلامية على البقاء والتجدد وتنظيم حياتنا المعاصرة ووجوه النفع الاجتماعى من تطبيقها، ولكن أدى غلو هذا المسعى إلى الغرق فى الفروع فى حد ذاتها، مع أن المطلوب هو المرجعية: «هو المورد والمشرع وعين الماء، المطلوب ليس الموزون مجرداً بل الميزان فى الأصل والأساس. ونحن نطلبها كإطار فسيح يسع العديد من الاجتهادات وتنويعات الأحكام واختلافاتها وتغيرها ....».

كما ينتقل فى آخر كتاب من السلسلة (منهج النظر فى النظم السياسية المعاصرة لبلدان العالم الإسلامى) بطبعته الأولى (٢٠٠٥) من الرحلة الفكرية التاريخية والمفاهيمية (التجريدية فى بعض الأحيان) إلى واقع التطبيق السياسى والقانونى مباشرة كما نعايشه الآن. يناقش البشرى بالتفصيل مؤسسات الدولة والإدارة فى النظام الإسلامى وأدوارها الوظيفية فى مبحث خاص يمثل إجابة علمية مدعمة بتفاصيل فقهية وقانونية على السؤال الأزلى: كيف يكون الإسلام ديناً ودولة، أو ديناً ونظاماً للحياة، أو ديناً ومؤسسات تنظيمية؟ وفى مبحث آخر يتناول البشرى قضايا الديمقراطية والتعددية والمشاركة السياسية، وهى القضايا الأكثر ارتباطاً بما أصبح الجميع يتطلع إليه فى مستقبلنا القريب. ولكن مقاربة البشرى لا تتناول شرحاً للديمقراطية وضرورتها بقدر ماهى تحليل «لأسس» البناء الديمقراطى وهل نمتلك هذه الأسس أم لا، كما يقدم تحليلاً ونقداً «للدولة المركزية الحديثة» ويقارن بين مسوغات ولادتها وشرعيتها وتوظيفها فى الغرب وبين ما آلت إليه نظم الدولة المركزية الحديثة عندنا: فهى وردت أولاً ليس كامتداد لأصول حضارية ولخلاصات تجارب وافكار متبلورة عبر العقود (مثلما حدث فى الغرب)، ولكن وفدت بغرض القطيعة مع الأصول الفكرية والتراثية السائدة ؛ وثانياً: نشأت هذه الدولة الحديثة على أساس «قطرى» إقليمى وتحددت بالحدود الجغرافية التى فرضتها السيطرة الأجنبية على حسب احتياجاتها، فلم تعد الدولة تعكس جامعة تستند إلى أساس انتماء معين من روابط قومية أو دينية أو عرقية..... بل صارت «الدولة» هى أساس رابطة الولاء والانتماء والدولة تحدد شعبها وليس الشعب هو الذى يحدد دولته، أى أن مؤسسات المجتمع الحديثة وعلى رأسها الدولة الحديثة تقوم بأداء وظيفى لايسير فى طريق تكوين البنية الأساسية التحتية لتشييد الهيكل الديمقراطى.

وهنا نتذكر «فرانز فانون» (Fanon) - احد أساطين ومنظّرى دراسات مابعد الكولونيالية الأوائل (فى ستينيات القرن الماضى) - عندما نبه إلى سهولة تحول الدولة القومية بعد تحقيق استقلالها المباشر من الاستعمار إلى وجه آخر من وجوه الاستغلال والقمع وفرض هيمنتها بدلاً من المستعمر الأجنبى، وتحدث عن أن الأيدلوجية القومية (nationalism) الناتجة عن التحرر قد تسقط بسهولة فى براثن «القطرية» (regionalism) ومن ثم تتكرر الصراعات الإقليمية والانقسامات والتنافسات ورغبات فرض السيطرة التى زرعها الاستعمار فى الأساس، والحل عند «فانون» أن يتبع التحرر القومى والاستقلال تحرير الوعى السياسى والاجتماعى، وأن تنشأ تحالفات وتجمعات موسعة بين شعوب فرقها الاستعمار (مثلاً تجمعات أفريقية أو عربية أو إسلامية).. عندئذ يتحقق التحرر الكامل الذى يبدأ عند نقطة محددة عندما يقرر الشعب المستعمَر بنفسه أن على الاستعمار أن ينتهى: هى «ثورة معرفية» تنتقل بالشعوب ومفكريها إلى «المجال التنظيرى للتحرر» كما وصفها ادوارد سعيد. ومن المؤكد أن المستشار طارق البشرى يقوم بهذا الدور ويفطن إلى تلك المفارقات التاريخية عندما يذكّرنا أن حركات التحرر الوطنى فى العالم العربى وان استطاعت أن تزيح الاحتلال الأجنبى عن أراضيها داخل أقطارها وتحقق قدراً من إرادتها الوطنية فى فترة مابعد الاستقلال مباشرة، إلا إنها لم تستطع أن تستجيب لموجبات توحيد الجماعات السياسية الأشمل، لأن الإرادة الذاتية لمؤسسات الاستقلال الوطنى فى ظل الدولة المركزية الحديثة صارت معوقاً للتوحيد، واستمرت فى خضوعها لموازين القوى الدولية المهيمنة عن بعد. وهنا نصل إلى النتيجة أو الخلاصة المنطقية لكل ماسبق من تحليلات ودراسات فى هذه السلسلة فنختتم بهذه الفقرة الجامعة: «ما بقيت الدولة الحديثة - فى غالب البلاد حديثة الاستقلال - على حالها المتعارض مع.... جماعات سياسية متبلورة ومتكاملة، وما بقيت الجماعات السياسية مجزأة ومنقسمة وموزعة أشلاء، ومابقى الصدع بين أجهزة الدولة... والجماعة السياسية المحكومة بهذه الدولة..... فلا أظن أن الدول تكون قادرة... على حفظ الأمن القومى للجماعة وحراسة قوى التماسك الداخلى لها. ولا أظنها تكون دولاً قادرة على تحقيق ما يتعين أن نصبو إليه من توحيد أو من استقلال أو من تحقيق لنظام ديمقراطى».

«إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون»

هذا أساس لمشروع إسلامى معاصر ناضج يعتمد التفكير التحليلى والاجتهاد والاعتبار بدروس الزمان (كما توحى بذلك الآية الكريمة المكتوبة على الكتب الستة)، وهى قراءة تراعى أكثر ما تراعى: (أ) الصالح الوطنى. (ب) العنصر الجمعى، (حـ) النظر إلى السياق دائماً تجنباً للاجتزاء والابتسار. (د) مسألة التوظيف - توظيف الأنساق والأنماط عند انتقالها من بيئة إلى أخرى والالتفات إلى الآثار الناجمة عن تلك العملية.

قد تنقص بعض الأجزاء أمثلة حالية من الوقت الراهن ومما يجرى على الساحة لتوازن كثرة الأمثلة التاريخية من القرون السابقة على أهميتها. وقد نعتب على اللجوء فى بعض المناقشات إلى طرح موضوع المرأة وتكراره أكثر من مرة كمثال على انحدار الخطاب الوطنى إلى الانشغال بقضايا فارغة وافدة من شأنها التفريق وتشتيت الجهود. (مع الاعتراف أن ملف قضايا المرأة ملف شائك وله تاريخ طويل ومعقد يتراوح بين استغلاله والمزايدة عليه. لا نحبذ تهميشه كليةً والتقليل من شأنه بل التعامل معه بنفس المنهج التحليلى الذى بُنيت عليه السلسلة). فى النهاية من الصعب بل ومن المستحيل أن يوفى أى عرض هذه الدراسات المتعمقة، ولكن نأمل أن يتبنى الباحثون المتخصصون التوسع والبناء الدراسى. البحثى على كل من هذه الكتب حتى يتم الانتقال بها من مستوى التنظير والفكر والمنهج إلى مزيد من رسم الاستراتيجيات والمقترحات التطبيقية لتعميم الفائدة أو لخلق التراكم العلمى المنشود وتأسيس تيارات ومدارس تدفع بنا إلى النهوض. ■

يركز البشرى على تكوين ما أطلق عليه «وطن فكرى» يضمنا جميعاً بمرجعية شرعية واحدة تجمع المجتمع كله بما يفيد تماسك الجماعة مهما اختلفت وجهات نظرنا ومصالح جماعاتنا الفرعية



كما يرويه محمد الماغوط

تاريخ القمع السياسى

محيى الدين اللاذقانى

الأجيال العربية التى حلمت بالحرية لم تحصد غير تكثيف الحضور الأمنى والتطور التقنى فى الرقابة

حلمت ذات ليلة بالربيع
وعندما استيقظت
كانت الزهور تغطى وسادتى
وحلمت مرة بالبحر
وفى الصباح
كان فراشى مليئا بالأصداف وزعانف السمك
ولكن عندما حلمت بالحرية
كانت الحراب
تطوق عنقى كهالة الصباح

من السلمية خرج عاشق الحرية على قدميه حين كانت سورية تموج بالاضطرابات والانقلابات العسكرية مطلع خمسينيات القرن العشرين وإليها عاد محمولا الشهر الماضى ليترك فى فضائها وفضاء سورية علامة استفهام كبرى رهيبة عن تاريخ القمع السياسى السورى الذى شل جيلا بكامله وعطل مسيرة بلد وأمة، فالشاعر السورى محمد الماغوط لم يكن مبالغا حين قال فى آخر حديث له عن أدب السجون أن التجربة الأولى والهروب المستمر من أجهزة القمع كسر شيئا جوهريا داخله وأن كل ما كتبه من نثر وشعر ومسرحيات وروايات ومقالات لم يكن إلا محاولة لترميم ما تركه ذلك الجرح الذى زرع فى داخله خوفا دائما مفجعا ونزع من نفسه كل ذرة أمان.

قبل هذا الاعتراف النثرى بعشرات السنين سجل الماغوط سيرة القمع السياسى شعرا ولم يكن فردا ولا استثناء فى تلبس حالة الخوف من السلطة ورموزها، فالحالة التى يحكى عنها منذ قصائده المبكرة كانت شبه عامة إلى درجة عطلت معها الحراك السياسى فى مجتمع بأكمله وكيف لا تشله وتعطله ومعظم السوريين الذين عاشوا فى ظل أنظمة قمعية متتالية يعرفون جيدا ما تعنيه تلك الحالة التى يحكى عنها شاعر فرد بلسان المجموع الذى صار يدرك مع عدم دراسته للتجريد الفنى أن الشرطى ليس وجودا جسديا فى الشارع فحسب لكنه فكرة كابوسية ومع بعض المبالغات الشعرية خلية تجرى فى الشرايين:

ما إن أرى ورقة رسمية على عتبة
أو قبعة من فرجة باب
حتى تصطك عظامى ودموعى ببعضها
ويفر دمى مذعورا فى كل اتجاه
كأن مفرزة أبدية من شرطة السلالات
تطارده من شريان إلى شريان

ولأن الجراح وأحزانها لا بد أن تقترن بالسخرية المرة فى أدب الماغوط وحياته لا بد من ملاحظة أولية قبل أن ندخل فى دهاليز القمع السياسى السورى الذى أنتج ظاهرة الماغوط فقد ساعدت الأقدار على إكمال سيرة المقموع (المضحك المبكى) بخلق صدفة واقعية لا يمكن أن تحصل إلا فى مسرح الماغوط العبثى ففى اليوم المقرر لإعادة بث آخر حديث مع الماغوط على قناة الجزيرة على الساعة الخامسة وخمس دقائق بتوقيت جرينتش مساء الثلاثاء الواقع فى الحادى عشر من أبريل .نيسان الماضى حصلت الصدفة الماغوطية ـ العبثية، ففى ذاك التوقيت الدقيق بالضبط كانت جميع الكاميرات فى مختلف أنحاء العالم ومنها كاميرات القناة التى ستعيد بث اعترافاته تنتقل بقدرة قادر إلى ضريح الإمام الرضا فى مشهد بإيران لتنقل على الهواء مباشرة كلمة الرئيس الإيرانى أحمدى نجاد التى يزف فيها البشرى للشعب الإيرانى بنجاح تخصيب اليورانيوم.

وهكذا ألغيت إعادة حلقة اعترافات الماغوط وضاع صداها لينشغل الناس أثناء توقيتها بتصريحات البرادعى ولافروف ولاريجانى ورايس وكأن الواقع العبثى يقول للشاعر ما سبق ان قاله الماغوط فى قصيدة للسياب يحذره فيها من العودة للحياة فما من شيء يتغير فى بلاد ضائعة الملامح بين سوط المستبد المحلى ومهماز العدو الخارجى، وقد كانت خلاصة نصيحة الماغوط لزميل سنوات التسكع والحرمان فى بيروت قصيرة ومكثفة ملخصها:

تشبث بموتك أيها الشاعر

لقد كان الماغوط كاتبا مشاغبا فى فترة سياسية قلقة وكان التاريخ السياسى السورى قلقا على الدوام منذ خمسينيات القرن العشرين حين لمع الماغوط وإلى يوم رحيله ولمن لا يعرف التاريخ السياسى السورى جيدا يكفى أن نذكر أنه كان فى سورية عدة سجناء سياسيين عاشوا داخل الزنازين اكثر مما عاش نيلسون منديلا وهم كثر. منهم على سبيل المثال عماد شيحا (٢٩ سنة سجنا) وفارس مراد (٢٨ سنة) وهيثم نعال(٢٧ سنة) وعادل نعيسة وكامل حسين (ربع قرن لكل منهما) ناهيك عن رياض الترك والعشرات من مجايلى الماغوط فى تلك الحقب القاسية التى شهدت عشرات الانقلابات العسكرية التى كانت تعد جميعها بالديمقراطية والعودة إلى الشعب لكن شيئا من تلك الوعود لم يتحقق منذ طفولة الشاعر إلى شيخوخته.

إن تلك الملابسات مجتمعة تجعل من الماغوط نموذجا ممتازا لدراسة تجليات ذلك القمع السياسى وآثاره على أجيال كاملة حلمت بالحرية وناضلت من أجلها فلم تحصد غير التطور التقنى فى أجهزة الأمن والرقابة والزيادة المطردة فى عدد المعتقلات والسجون.

إن أكثر التجارب تأثيرا فى الماغوط كما فهمنا من حديثه على فراش الموت هى تجربة الهروب المستمر من الشرطة والاختباء فى الجحور والأقبية ثم الهرب من سورية بكل من فيها وما فيها خوفا من الاعتقال وكل جريمته انه انتمى دون تدقيق إلى الحزب القومى السورى الاجتماعى فى المرحلة التى غضبت فيها الدولة السورية على ذلك الحزب وحملته مسئولية اغتيال الضابط عدنان المالكى، وهى مرحلة مفصلية فى التاريخ السورى الحديث لأن اغتيال المالكى أوائل الخمسينيات وما أعقبه من تطورات دموية وانقلابات هو الذى مهد بعد سنوات قليلة من ذلك الاغتيال إلى استفراد البعث بالسلطة وفرض قوانين الطوارئ التى ما تزال مستمرة إلى اليوم.

عن ذلك الانتساب الذى جر عليه الويلات يقول الشاعر ساخرا انه كان شابا مقرورا وجائعا هرب من الريف إلى المدينة مفلسا. وقد انتسب إلى القوميين السوريين لان مكتبهم القريب من بيته كانت فيه مدفأة يستطيع اللجوء إليها فى أيام البرد وكانوا يقدمون الطعام مجانا لأعضائهم فى بعض الأمسيات.

لقد وصل الماغوط إلى دمشق فى عز احتدام الصراع بين القوميين السوريين الاجتماعيين والبعثيين وبقية القوى القومية وقد



في مجتمعات تفتقر إلى التسامح عموما والتسامح السياسي على وجه الخصوص يدفع المهزومون ثمنا باهظا يتجلى في السجن والتعذيب والفصل من الوظيفة والمطاردة الدائمة. وقد شاء حظ الفتى الريفي أن تكون تجربة الهروب من وجه أجهزة الأمن هي التجربة السياسية الأولى

انتمى دون تدقيق ودون قناعة ربما إلى الجانب المرشح للهزيمة وفي مجتمعات تفتقر إلى التسامح عموما والتسامح السياسي على وجه الخصوص يدفع المهزومون ثمنا باهظا يتجلى في السجن والتعذيب والفصل من الوظيفة والمطاردة الدائمة. وقد شاء حظ الفتى الريفي أن تكون تجربة الهروب من وجه أجهزة الأمن هي التجربة السياسية الأولى فقبل أن يتمرس في العمل السياسي صدرت الأوامر باعتقال القوميين السوريين واختفى الماغوط قبل أن يهرب إلى بيروت التي صنعت مجده الأدبي في غرفة حقيرة سيئة الإضاءة والتهوية عدة أشهر، فكانت تلك الغرفة زنزانته الاختيارية التي ولدت فيها معظم قصائده المبكرة التي تحكي عن جوع مزمن إلى الحرية وهي القصائد التي قربته من قلوب ملايين العرب الذين كانوا يعيشون قمعا سياسيا مماثلا ويجدون في الماغوط الصوت المعبر عن أحاسيس المقهورين والمقموعين سياسيا واجتماعيا لا في سورية وحدها بل في مختلف أنحاء العالم العربي فالقمع السياسي السوري لا يختلف عن القمع العربي العام إلا في الدرجة والتفاصيل وأسماء المساجين والسجون وهذا ما يعطي للحلم بالحريات وهجه الدائم ويجعل منه إدمانا فنيا محببا:

أه يا أمي
لو كانت الحرية ثلجا
لنمت طوال حياتي بلا مأوى

إن الطريق إلى الحرية ودفع الثمن الصعب لها يجبر حتى الأعداء على احترام المطالبين بها. فمن خلال مقطوعة قصيرة كتبها الشاعر لبلدته سلمية التي دفن فيها، نحس بكثافة ذلك الإحساس المركزي في تجربة الماغوط الفنية والحياتية:

سلمية الدمعة التي ذرفها الرومان
على أول أسير فك قيوده بأسنانه
ومات حنينا إليها

وكما يليق بحفيد مخلص لسبارتاكوس سار الماغوط طويلا على دروب المطالبة بالحريات لنفسه وشعبه فأصبح في بداياته وقبل أن يشتهر كشاعر وكاتب ساخر مطاردا وقد كان الهروب من وجه السلطة الرسمية وممثلي النظام يمتد عنده عدة أشهر وعند غيره سنوات. وفي واحدة من تلك المرات الكثيرة التي لم يحصها الشاعر اضطر للعيش كالحشرة في غرفة عجيبة نجد من حسن حظ تاريخ الأدب وصفا دقيقا لها عند زوجته الشاعرة سنية صالح الوحيدة التي كانت تزوره في غرفة بملايين الجدران وملايين الأحاسيس المروعة والأحلام المحبطة.

عن تلك الغرفة تقول المرأة التي كانت تعيش حينها قصة حب مع شاعرها:

(غرفة صغيرة ذات سقف واطئ حشرت حشرا في خاصرة إحدى المباني بحيث كان على من يعبر عتبته أن ينحني وكأنه يعبر بوابة الزمن، سرير قديم، ملاءات صفراء، كنبة زرقاء طويلة سرعان ما هبط مقعدها، ستارة حمراء من مخلفات مسرح قديم في هذا المناخ عاش الماغوط أشهرا عديدة...)

ذلك الوصف النثري نجد صداه في نص مبكر للماغوط يعكس ألم إنسان أسير ومحاصر حاله حال ملايين حرمتها حقب القمع السياسي من مجرد الحلم بغد أفضل:

بلا أمل
ويقلبي الذي يخفق كوردة حمراء
سأودع أشيائي الحزينة في ليلة ما
بقع الحبر
وآثار الخمرة الباردة على المشمع اللزج
وصمت الشهور الطويلة
والناموس الذي يمص دمي

في تلك الغرفة وفي مثل ذلك الجو الكئيب لا يستطيع الشاعر كائنا من كان أن يتحاشى المحنة الشخصية لذا تصبح معظم صور شعره ونثره مشتقة من الحرية والعبودية وحتى الحب نفسه يصبح له نكهة تلك التجربة. ففي نص معتق الرومانسية لا يجد الشاعر ما يشبه به أهداب حبيبته إلا صورة عبيد يجدفون بتناسق في مراكب عبوديتهم:

هكذا أودك يا حبيبتي
زهرة برية أو يمامة في عنق الريح
ولكنني يائس حتى الموت
اتقهقر بلا روية على تلال الحبر
وأهدابك الجميلة
تنحني على صفحاتي كعبيد في المراكب

ذلك الحزن المخلوط بذعر جلي والذي يطالعنا بغزارة في النصوص الماغوطية لم ينشأ من فراغ ولا بين عشية وضحاها، بل تراكم خلال سنوات طويلة من المواجهة مع سلطات قمعية بوليسية تحاول أن تمنع حتى الأشجار من التنفس، وتحت ظل هكذا ظروف لا يحس المقموع بحصار الجسد وحده، فالروح محاصرة والشعر محاصر والكلمات لها جلادها الخاص ومع طول التدقيق في ذلك الوضع المخزي يبدأ الشاعر بالبحث عن جذور خوفه ويأسه ويهجر دور البطولة الفردية الذي يمنح تلقائيا في التراث العربي للشاعر الفرد المقاوم وهو دور تخلى عنه الماغوط شعريا بطيبة خاطر لإدراكه أنه أمام ماكينة قمعية جبارة لا ينفع معها تمثيل أدوار الصمود والشجاعة.

ولأن القمع العربي له فعلا جذوره الممتدة عميقا في تراب المجتمعات البطريركية - الأبوية كان الاعتراف الماغوطي بالجذر التاريخي للقمع العربي مفهوما بمجرد التلميح إليه بصورة موحية:

آه يا حبيبتي
عبثا استرد شجاعتي وبأسي
المأساة ليست هنا
في السوط أو المكتب أو صفارات الإنذار
إنها هناك
في المهد.....في الرحم
فأنا قطعا
ما كنت مربوطا إلى رحمي بحبل سرة
بل بحبل مشنقة

ولنستمع إلى سنية صالح مرة أخرى وهي تصف تجربة الاختفاء في تلك الغرفة وسوف نرى كيف تحولت لعبة البطولة الفردية إلى كابوس،لأن الإنسان ومهما كان صلبا له احتياجاته الخاصة ولا بد له من هواء وشمس وبشر يحتك بهم في الشارع حتى لا يضمر ويتحول الى ورقة خريفية تستفرد بها الريح وتسقطها بعد شحوب واصفرار.

تقول سنية صالح في مقدمة مجموعة (حزن في ضوء القمر):

(بدت الأيام الأولى كاللعبة البطولية لنا نحن الاثنين ولكن لما شحب لونه ومال إلى الاصفرار المرضي وبدأ مزاجه يحتد، بدت لي خطورة اللعبة، كان همي الكبير أن يتلاشى الإعصار دون أن يخنق غباره (النسر).

ولم يتلاش الإعصار فقد كانت كل حكومة مستبدة تخسر السلطة لأخرى اكثر استبدادا منها وحين لمع نجم الماغوط في بيروت وصار شاعرا مشهورا في أجواء حلقة مجلة شعر، لم يعد هدفا سهلا وجرت بعد سنوات عدة محاولات لاسترضائه بلغت قمة العبثية حين أسندت إليه وظيفة رئيس تحرير مجلة الشرطة التي تصدرها وزارة الداخلية السورية، وهي مهمة لم يمارسها إلا على الورق فالذين عينوه فيها كانوا يدركون استحالة لجم الشاعر الذي لم تمنعه القيود الخارجية المفروضة على الحريات من ممارسة حرية داخلية شاسعة ساعدته على مواصلة الإبداع فالحرية الداخلية وكما نفهم من هيجل القائل: (إن النفس المحرومة من الحرية الداخلية لا تعرف الإفصاح عن ذاتها) هي من الشروط الأساسية للإبداع فالشعراء المطاردون يستعيضون عادة عن ظروف القمع الخارجي بحريتهم الداخلية التي لا يمكن أن تطالها أجهزة القمع مهما بلغت تقنياتها، لذا عوض الماغوط كما اعتقد عن الحرمان من الحريات الخارجية بحرية داخلية بالغة البذخ مكنته من تحويل تجاربه المريرة إلى نصوص كتبها فرد واحد لكنها حملت

معاناة المجموع فالحرية التى هى مطلب الجميع فى سورية والشاعر أولهم تتحول من جراء القمع المباشر والمستتر إلى نقيضها:

ما دامت كلمة الحرية فى لغتى
على هيئة كرسى صغير للإعدام

تحت ظل الأحكام العرفية والمحاكم الاستثنائية وقوانين الطوارئ التى تحولت إلى قوانين (دوائم) عاش الماغوط هاجسه الكبير وحلم بوطن حر يعيش فيه السوريون موفورو الكرامة والكبرياء لكنه وبعد كدر طويل لم يفز بكبرياء الحر ولا بطمأنينة العبد الموهومة فضاق ذرعا بتلك الحالة من الحرية الشكلية وتمنى على سبيل المجاز أن يكون عبدا حقيقيا ليعرف نفسه وشكل طمأنينته فى ذلك المجتمع الذى ضاعت تحت سلطة قمعه الهويات جميعها:

اه كم أود أن أكون عبدا حقيقيا
بلا حب ولا وطن
لى ضفيرة فى مؤخرة الرأس
واقراط لامعة فى اذنى
أعد وراء القوافل
وأسرج الجياد فى الليالى المطرة

وهنا أتمنى الا يلجأ المتحذلقون إلى التفسير الرمزى فى تحليل هذه الأمنية الخارجة عن نطاق عشاق الحريات بكليشيهاتهم المعروفة فالقمع المتواصل برعبه المزمن هو الذى قاد الشاعر والناثر إلى ذلك الإحساس العميق بلا جدوى ومن جراء تلك التجربة الوجودية المتشابكة صارت نصوصه حقول حزن مقطر فتحت كل آهة فيها نهر من الدموع وتحت كل حرف ألف سوط ومهماز يذكر أن القارئ بما ذهب إليه الشاعر الفرنسى فرلين حين قال:(عندما أبكى أعلم حق العلم أن ذلك ليس رمزا).

لقد عاش الشاعر التجربة الجماعية بكل زخمها وكانت مرارته جزءا أصيلا من مرارة المجموع ومن الإحباط العام. فهل هى صدفة أن يكون الحراك السياسى فى سورية التى اشتهرت تاريخيا بنضالاتها هو اليوم الأضعف والابطأ فى العالم الثالث..؟

ذاك الواقع المر الذى عاشه الماغوط وأحس به مبكرا هو الذى دفعه إلى التأكيد على استحالة قيام أوطان قوية بلا حريات حقيقية وهو الذى جعل من حزنه علامة فارقة حتى لا أقول يائسة:

حزنى لا حسب له ولا نسب
كالأرصفة
كجنين ولد فى مبغى

تلك الحالة المصفاة من الحزن لازمت الشاعر دهرا فقد حملها معه فى الوطن وفى الهجرات القصيرة القليلة التى قام بها إلى لبنان والإمارات وحين عاد ليعيش كهولته المبكرة على ناصية مقهى دمشقى وجدها تلاحقه كلعنة كافافيس عن المدينة الأولى التى تضيع فيه عمرك الأول. فتلاحقك نكباتها انى ذهبت وهكذا وجد الشاعر أن الزمن يمر والدنيا لا تتغير فالقمع السياسى الذى عاشه شابا. لاحقه كهلا وشيخا يتحرك بصعوبة على كرسى بعجلات لم يفته ان يسخر منه ومن نفسه حين قال إن الذين يتحركون على كراس بعجلات لهم ميزة هامة عن غيرهم فهم لا يضطرون للوقوف أثناء عزف النشيد الوطنى.

صحيح أنه قد أصبح لاحقا بعد الشهرة والعمر صاحب حصانة معنوية لكن هذا لم يمنعه من ملاحظة ان لا حصانة لأحد فى ظل الديكتاتوريات ومن جراء هذا الإدراك ربما يمكن فهم حزنه المترسخ فى الروح:

فليذهب القادة إلى الحروب
والعشاق إلى الغابات
والعلماء إلى المختبرات
أما أنا
فسأبحث عن مسبحة وكرسى عتيق
لأعود كما كنت
حاجبا قديما على باب الحزن
ما دامت كل الكتب والدساتير والاديان
تؤكد اننى لن أموت
إلا جائعا أو سجينا

فى مجتمعات القمع السياسى المكثف ليس مسموحا للفرد بأى حق بما فى ذلك حقه فى آن يمارس حزنه النبيل بكبرياء يليق بروحه الحرة ولعل تجربة الماغوط وهى وجودية وسياسية معا تعكس حجم المحنة السورية سياسيا وابداعيا فحين يعيش شاعر الى ان يتجاوز السبعين ويجد امامه احلامه واحلام جيله لم يتحقق منها شىء من يستطيع ان يلومه على ذلك الكم من السوداوية..؟

لقد كان الماغوط عند العرب كتشيخوف عند الروس لا يبيع وصفات الأمل فى صيدليات متنقلة لكنه يشير بمهارة الجراح الى موضع الألم والفساد والورم فى الجسد العربى ثم يمضى وهو على ثقة بأن الناس يوما ما سيقومون بما يجب فعله لدحر أنظمة الاستبداد والقمع والتأسيس لأوطان حرة مستقلة تلجم توحش أجهزتها وتحفظ لمواطنيها حقهم فى الاحساس بالكبرياء والكرامة. ■

كتاب الزاوية

مجلة الأستاذ

يا بنى الإنسان أدركوا إخوانكم

تنفطر الأكباد وتنقبض النفوس عندما تسمع خبر القحط الواقع فى بلاد الجزائر فقد تناقلت الجرائد والرواة خبر هذا الخطب المحزن ووقوع إخواننا فى شرك الفاقة ووهدة الاحتياج لما تحفظ به الحياة بعد أن كانوا فى أعلى ذروة الرفاهة وسعة العيش وليس لما قضاه الله تعالى مرد.

وقد تحركت همم ذوى المكارم والغيرة الإنسانية شرقًا وغربًا فافتتحوا قوائم الاكتتاب فى المجامع والمحافل تداركًا لبلاد عربية وقبائل إنسانية فاستحقوا الثناء على هذه النجدة والإغاثة خصوصًا ما كان من المحافل المصرية التى عقدت الاجتماعات المتتالية وفتحت أبواب الاكتتاب ووزعت جوابات الطلب والحث على الإعانة والإغاثة وعينت وجوها من ذوى الفضل لجمع تلك الإعانات حتى إذا توفر لديها من النقود ما يقوم بالمساعدة مع المساعدات الشرقية والغربية قدمت ذلك لجهة الحاجة.

ولقد أثرت حالة هذه المجاعة فى جميع النفوس فتسابق النساء مع الرجال وبرزت الستات فى ميدان المساعدة والدعاء إليها.

فعلى رجال الهمم أن لا يتأخروا حتى يسبقهن ربات الحجال فى مضمار هم أحق بالركض فيه.

قبلة الحياة

قراءة في رواية

حلمي محمد القاعود



■■ يمثل «فؤاد قنديل» نمطًا خاصًا من الكتاب القصصيين في فترتنا الراهنة، فهو ينطلق من رؤية مستقلة بعيدة عن الرؤى الحزبية والأيديولوجية، وهو خارج «التصنيفات» السائدة في المجتمع الأدبي التي ينشغل أصحابها بالدفاع عن قبائلهم إن حقًا وإن باطلاً، هو منشغل بالدفاع عن أفكاره وآرائه وتصوراته التي تتعلق بالوطن البائس التعيس، وقد يدفعه هذا الانشغال إلى نوع من الإهمال من جانب السادة المعنيين بالتقويم الفني والإعلام الأدبي، لتغريده خارج سربهم وغنائه بعيدًا عن قوالبهم وأنماطهم. لقد كان أحد موظفي المؤسسة الثقافية، ولكنه بدا متمردًا عليها في أكثر من مناسبة، مما تسبب في إهماله نوعًا ما، بيد أنه في كل الأحوال سجل لنفسه موقفًا، وأحرز هدفًا في مرمى السلطة.

كتبت عن روايتيه القصيرتين «السقف» و«الناب الأزرق» مقالة مختصرة، فرأيت انشغاله بالهم العام من خلال المزج بين الرمز والواقع، وتابعت بعض رواياته وقصصه الأخرى؛ فوجدت الانشغال ذاته مستمرًا ومتوهجًا.

وها أنا ذا أقرأ روايته «قبلة الحياة».. أحدث ما أخرجه من إبداع، فأجده يواصل حمل الوطن على رأسه بهمومه وأشجانه ومتاعبه، ويحاول مخلصًا أن يبشر بالأمل القادم، الذي تحقق بعضه على أرض الواقع، من خلال النبوءة التي لا تخيب.. لقد تنبأ بالحراك السياسي في الجسد المصري المجهد والمكدود والدائخ.. في وقت كان فيه اليأس من إعادة الحياة إلى هذا الجسد هو القاعدة، أو الحقيقة التي لا يختلف عليها اثنان، ولكن «فؤاد قنديل» تنبأ بدبيب الروح في الهيكل الجامد عام ٢٠٠٤م، وهو العام الذي كتب فيه الرواية، كما تنبأ بإجهاض هذا الأمل ومحاولة الالتفاف عليه وخداع الناس، وهو ما تحقق بالفعل في عام ٢٠٠٥م، وإن كانت «قبلة الحياة» لما تزل تشير إلى إمكانية مواجهة الإجهاض والالتفاف والخداع جميعًا، فحين تتحرك عقارب الساعة إلى الأمام، فمن الصعب تحويل مسارها إلى الخلف مرة أخرى، ما لم يكن هذا الوطن بلا تاريخ ولا حضارة ولا عبقرية.

«قبلة الحياة» عنوان هذه الرواية الجديدة يشي بالأمل، مع كل المعوقات والصعوبات، وتركيبة العنوان من لفظة «قبلة» ودلالتها الناطقة بالرغبة والعذوبة والإحساس، ولفظة «الحياة» بما فيها من حركة موارة معادية للصمت والسكون والجمود والبرودة، هذه التركيبة تعطي مدلولاً يشير إلى مغزى الرواية وغايتها، وهو ما تعززه عبارة المقدمة المكونة من فقرة قصيرة تقول:

«مهما كان الماضي عريقًا وسماؤه عالية وتأثيره بالغًا ورجاله أفذاذًا، فأنا أردت أم لم أرد لابد أن أنظر أمامي، وأغذ السير صوب المستقبل المجهول».

ويكاد يكون هذا التقديم مطابقًا لعنوان الرواية في تشكيله لمغزاها وغايتها، بالاتجاه نحو المستقبل، الذي يعني استمرار الحياة وتوهجها، مهما كانت الظروف غير مواتية أو غير فعالة.

إن العلاقة بين الماضي والحاضر، تبدو في هذه الفترة علاقة ملتبسة، ولكن الكاتب يفصح عن رؤيته من خلال حديثه عن السير صوب المستقبل (المجهول)، وهو يجعله مستقبلاً مجهولاً، لأنه لا يعرف ماذا ينتظره هناك بالضبط، ولكنه يعرف أن الحركة هي المطلوبة، أن الحياة هي القضية التي يجب أن يحتشد لها، لأنها المستقبل، ولأن الماضي مهما كان عريقًا، فلن يغني عن غذ السير إلى الأمام..

بالطبع لم يذكر كلمة تشير إلى الحاضر أو الواقع، ولعله اعتمد على ما يسطره في روايته، فهو يرصد فيها الواقع بكل أبعاده وعلاماته ومعطياته، وهي أمور أو أسباب تقدم حيثيات النظر إلى الأمام وضرورة الاتجاه نحو المستقبل.

ولعل الكاتب من هذا المنطلق آثر أن تكون روايته «تسجيلية».. تسجل الواقع وترصده بدقة، وعين ناقدة، إن التسجيل هنا يأخذ صورة مزدوجة، فهو يسجل الواقع الحي المباشر الذي نراه كل يوم في كل مكان، لدى عامة الناس الذين يمثلون الطبقة الدنيا، وخاصة الذين يمثلون الطبقة العليا (تم القضاء على الطبقة المتوسطة في خلال نصف القرن الماضي)، ويتوازى مع تسجيل الواقع الحي المباشر، تسجيل التاريخ الحي المباشر أيضًا.. وتسجيل الواقع مع تسجيل التاريخ، يقدمان نمطًا جديدًا من الرواية التسجيلية، التي تتجاوز الكتابة الباردة الجافة، إلى ما يمكن تسميته بالتسجيلية الفنية التي يصنعها عنصر التشويق والبناء المحكم، فهو في تسجيله للواقع لا يقف عند نقل الحوادث كما وردت في الصحف أو عناوينها، أو ينقل قصاصات صحفية يضعها متجاورة غير مترابطة، ولكنه يصوغ الحوادث صياغة فنية بأسماء رمزية من خلال بناء روائي يجعلها في سياقها الطبيعي، فلا تبدو غريبة أو مفتعلة.. وإن لم يمنعه ذلك من ذكر أسماء حقيقية لشخصيات حقيقية تعيش على مسرح الواقع، ومنهم على سبيل المثال شخصيات معروفة مثل رئيس مجلس الشعب ووزيره ورئيس مجلس الشورى الحالي وغيرهم، وهناك شخصيات أخرى معروفة في الواقع الثقافي والاجتماعي يقدمها بملامحها الكاملة ويأتي باسمها الأول مع الاسم الأول من شخصية أخرى معروفة، أو يغير قليلاً في الاسم، والقارئ لا تخفى عليه الأسماء الحقيقية في كل الأحوال..

«وهذه ميزة «التسجيلية الفنية» إن صح التعبير، حيث تعطي انطباعًا بالتلقائية والعفوية، على العكس من «التسجيلية الباردة» التي تكتفي بالتجميع الصحفي «إن جاز التعبير»، الذي لا ينهض بالتعبير الروائي في صورته الفنية القائمة على الإقناع والتشويق.

ولأن التسجيلية الفنية في «قبلة الحياة» تقوم على منطق الفن، فقد جاءت في فصول مرقمة تبلغ ثلاثة وثلاثين فصلاً، كل منها يعالج جانبًا من جوانب الحركة أو الشخصية أو الحدث.

يقوم القص في «قبلة الحياة» على التناظر، فالأبطال الأساسيون، وخاصة الشخصية الرجالية الأولى «رءوف»، والشخصية النسائية الأولى «ندى»، يروون الأحداث من وجهات نظرهم، وهي عمومًا ليست وجهات متعارضة، ولكنها متكاملة، تضيء الأحداث وتكمل الوقائع وتكشف جوانب أخرى لم تكن معلومة من قبل القارئ في حياة الشخصية الراوية، أو الشخصيات الأخرى.

ويحكي بطل الرواية قصة حياته أو واقعه بمعنى أدق، فهو من شباب الفترة الراهنة يعد لدرجة الماجستير في التاريخ، ويلتقي بـ «ندى» تلك الفتاة الحزينة التي لا تبوح بأسرارها أو أسرار أسرتها، وتتوازى مشكلات «رءوف» مع مشكلات «ندى»، فهما من الطبقة المتوسطة التي تحطمت، وكلاهما يعاني مع أسرته من شظف العيش، وأخلاق الزحام، ومتاعب الإخوة والأخوات.

وتعرض الرواية من خلال الأسرتين واقع البطالة الذي يعيشه الشباب بما فيه من فراغ وغيبوبة وسكر وسرقة وفساد وبحث عن المال والرغبة في السفر إلى الخارج التي تكلف أصحابها أحيانًا الموت غرقًا أو قتلاً في مياه المتوسط، كما تعرض للفجوة التي يعيشها هؤلاء الشباب بين أفكارهم وأفكار آبائهم، وتقدم نماذج للصوص المال العام والسماسرة والقوادين والنهابين الذين يعملون في مناصب مرموقة، ولا تنسى عرض نماذج من مثقفي السلطة المنافقين والصحفيين المرتزقة، وهؤلاء وأولئك يغيرون آراءهم بزاوية قدرها ١٨٠° ويعادون الجهاد الفلسطيني واستقلال الوطن.

وفي الرواية صورة مأساوية للموظف المصري الذي يدفعه الفقر والحاجة للبحث في القمامة عما يأكله هو وأولاده، في مقابل فجور الطبقة الجديدة الحاكمة وهيمنتها على كل شيء بدءًا من الشرطة حتى الصحافة لدرجة أن الشباب الذين يحاولون مقاومة فسادها، لا يستطيعون نشر شيء عنه في الصحف الكبرى، لأن هذه الطبقة تتمتع بأموال الدولة وسطوة السلطة، وتستبيح كل شيء، ولا يتوقف فسادها عند حد.

ومن خلال عرض الواقع، تعرض الرواية للتاريخ بطريقة موازية، ومن خلال منطق روائي مقنع، تستحضر التاريخ الذي يشير إلى بؤس الشعب على مدى التاريخ، خاصة تحت حكم المماليك

قبلة الحياة (رواية)
فؤاد قنديل
القاهرة: القاصد للطباعة والنشر، ٢٠٠٤

والعثمانيين والغزاة الفرنسيين والإنجليز. فعلى سبيل المثال، نجد «رءوف» يستعرض الإنترنت ومحتوياته من فضائح وغصب ودعارة، بمناسبة بحثه عن كلمة «فلاح» أساس رسالته للماجستير، فينقلنا إلى ما جرى في حفر قناة السويس، وموت ١٢٠ ألف مصري في «السخرة» وهم يعملون لشقها. كما نرى إسهابا في وصف اضطهاد الفلاح المصري تحت الحكم التركي على مدى القرون من السادس عشر إلى العشرين، الميلادية، بالإضافة إلى تقديم مآسي الظلم التي عاشها أيضا تحت حكم الفراعنة والولاة المماليك ومحمد علي، والفرنسيين والإنجليز؛ وهؤلاء كانوا يتصارعون على قطف ثمار مصر وخيراتها.

يكاد المكان الذي اختاره الكاتب مسرحا لروايته يشمل مصر كلها. قديما وحديثا. فعبر استدعاء التاريخ المصري القديم والوسيط نرى مصر حاضرة بملامحها وآثارها، وأهلها يعملون في السخرة أو يعذبون أو يعانون من الحكام الظالمين. مصر كلها موجودة في الرواية منذ عهد مينا موحد القطرين، مرورا بحكم المماليك والعثمانيين، حتى المستعمرين الغزاة القادمين من فرنسا وإنجلترا، وقناة السويس التي هلك فيها الألوف من الفلاحين البسطاء وهم يحفرونها لتصل ما بين البحرين حاضرة، وقائمة أمام عين القارئ الذي يطالع أحداث بلاده القديمة والجديدة.

وفي رصد الرواية لأحداث الواقع الراهن، فإنها تنطلق من الإسكندرية لتقف في القاهرة، وتقدم ألوانا من الأماكن الخاصة التي يعيش فيها الأبطال، ويتحركون من خلالها، فنرى المدينة من قاعها إلى قمتها، والإلحاح بالطبع على الأماكن الفقيرة والمتواضعة التي تحيا فيها جموع الشعب البائس المسكين.

القاهرة بصفة عامة مدينة الضجيج والضوضاء لا تساعد على الهدوء والسكينة.. مدينة مزدحمة بكل شيء.

والإسكندرية في الرواية تبدو فندقا ومطعما وشاطئا وبحرا ونورسا ومقهى.. وحسب، ولا نراها في أعماقها وعشوائياتها ومعالمها الأخرى، وذلك لأن البطل والبطلة، يمران بها لبعض الوقت، أو هما عابرا سبيل يقضيان ليلة أو ليلتين، مع أن فيها بعض الأصدقاء أو الأقارب لكل منهما.. ومع أنها تبدو خارج سياق المحنة العامة التي يعيشها المجتمع، إلا أنها تبدو مثل ورق التصوير الحساس الذي يسجل أو يتفاعل مع ما يجري في أرجاء الوطن بالتعليق أو الرأي أو النكتة، وتأمل مثلا هذه النكتة التي ترويها صاحبة المقهى:

«رئيس الحكومة جعل الدورة



في الرواية صورة مأساوية للموظف المصري الذي يدفعه الفقر والحاجة للبحث في القمامة عما يأكله هو وأولاده، في مقابل فجور الطبقة الجديدة الحاكمة وهيمنتها على كل شيء بدءا من الشرطة حتى الصحافة

الشهرية للنساء مرتين في الشهر.. لأن ابنه سيفتح مصنعا لحفاضات النساء» (ص٩).

وهي نكتة دالة على تطويع الواقع والقانون لرغبة المسئولين الذين يريدون جمع الثروات بكل السبل الممكنة، ولو جاء ذلك على حساب تغيير الطبيعة البشرية للناس.

الإسكندرية على كل حال، رمز للنقاء والصفاء بصورة ما، والصباح فيها له بهاء ونسيمه البارد المنعش يصنع حالة من الفرح والابتهاج، حتى لو كانت صحف الصباح تحمل تناقضا يفسد هذه الحالة مثل العنوان الذي يقول: «رئيس الوزراء يلتقي براقصة مصر الأولى، ويطلب إليها العمل بقوة لدعم مسيرة التنمية».

أما القاهرة التي لا يستطيع فيها الناس أن يتفاهموا، فالرواية تقدمها لنا من خلال «البراجيل» و«إمبابة» و«الوراق» و«شاطئ النيل» والأحياء الشعبية، ثم بعض القصور الباذخة التي يملكها أثرياء الطبقة الجديدة على الأطراف. وواضح أن الغلبة هنا للأماكن البائسة التي يعاني أهلها قصورا شديدا في الخدمات، فلا الطرق مرصوفة، ولا المياه النقية متوفرة، ولا البيوت اللائقة قائمة، بل إن بعض الناس اتخذوا من قوارب الصيد على شاطئ النيل مساكن لهم، يعيشون فيها ويتناسلون!! وكثيرا ما تجد الشقق التي تسكنها عائلات الرواية ضيقة، ورطبة، ومتواضعة الأثاث.

وتصف الرواية حي البراجيل بأنه «حي قذر» (ص١٩)، ويتكلم عنه البطل (رءوف) فيقول: «ولكي نصل إلى بيتنا نتقلب فوق أحجار، ونغوص في طين، ونخوض في مياه غسيل، ثم نصعد جبال قمامة، ونتجنب الاصطدام بالبط والدجاج الذي أطلقه أصحابه حتى يجد مالا يجده في البيوت» (ص١٩).

أما قصور السادة الجدد في الرواية، فحدث ولا حرج عن البذخ والفخامة وحمامات السباحة والحدائق والأضواء والتنظيم والتنسيق والتحف والتماثيل والألوان والرخام واللوحات، ناهيك عمن يسكنها أو حفلاتها المتلألئة ورجالها ونسائها اللاتي حولتهن الأضواء إلى ملكات جمال يبرق على صدورهن العارية الذهب والماس واللؤلؤ، و...

إن المكان في الرواية يرصد عالمين مختلفين تماما ولا ثالث لهما: عالم المتعبين المحرومين المقهورين وعالم السعداء الأثرياء المترفين.

أما الزمان التاريخي، فهو زماننا الذي نعيشه ونعاصره، وإن كانت الرواية تستدعي بطرق مختلفة الزمان القديم في عصور متعددة لتقيم عملية الموازنة بينها وبين عصرنا من حيث الاتفاق في السوء والشر والظلم.

إن الرواية تشير إلى أحداث الانتفاضة الفلسطينية الأخيرة مما يعني أن الأحداث الروائية قائمة في أيامنا، أو أيام نشر الرواية (عام ٢٠٠٤) بالتحديد، مما يعني أنها رواية معاصرة للغاية، بل إن الزمن الروائي نفسه يجري فيها على مساحة غير ممتدة، تشكل أقل من عام أو أكثر منه قليلا، لأنها لم تحدد وقتا معينا، ولكنها تتسع بالتذكر وتيار الوعي والرجوع (الفلاش باك)، بيد أنها في كل الأحوال تريد بل تقول لنا بصوت عال إن المقصود هو الزمن الراهن، الذي تسعى إلى الاحتجاج على ما يقع فيه، وتطمح إلى الخروج من أزماته ومنعطفاته الشائكة، وتحلم بمستقبل آخر أكثر عدلا وأمنا وحرية.

ومهما يكن من أمر، فإن المكان والزمان يصنعان معا سيمفونية حزينة الإيقاع لشعب عريق، كان قدره أن يواجه الأحزان على امتداد تاريخه بفعل بعض أبنائه، أو بفعل الغزاة الطغاة!

تغص «قبلة الحياة» بالشخصيات، وهذا أمر طبيعي، فهي تعالج قضية شعب بأكمله، وتطرح واقع مجتمع بأسره، فلا غرو أن نجد تمثيلا يكاد يكون شاملا لنوعيات الناس المختلفة التي تسكن الوطن، وتتحرك على أرضه، وتصنع حاضره البائس وربما مستقبله الملغوم.

لدينا - على الأقل - نوعان من الشخصيات، أولهما الشخصيات العادية المنتمية إلى الطبقة الشعبية البائسة بكل ما فيها من خير وشر، وأمل وألم، ورغبة ويأس، وآخرهما الشخصيات الاستثنائية التي تمثل الطبقة الجديدة بكل ما فيها من عبث واستهتار، وتدن وانحطاط، ووصولية وانتهازية.. والطبقتان تخوضان صراعا مكتوما يقبع في دائرة المشاعر والحركة المحدودة، كل طبقة تتربص بالأخرى، ولكن ميزان القوى يبدو دائما في صالح الطبقة الجديدة التي تملك النفوذ والجاه والسلطان، وتفتقد الأخلاق والضمير والرحمة!

قد نجد بينهما من يمثل منطقة وسطى، ولكنه لا حضور له ولا وجود فعال، فقد سلب المكان والمكانة وأضحى أقرب إلى الطبقة الشعبية البائسة.

في الطبقة الأولى نجد «رءوف» وأسرته، و«ندى» وأسرتها، و«نادر» و«مزاج» و«رجب» وزوجته، و«ياسر» و«ابتهال»، و«رزق الشامي» وأسرته.. وهؤلاء جميعا يشكلون قاعدة الحركة والانطلاق، كل في مكانه وموضعه، ولهم مشكلاتهم الراسخة المزمنة، وأحلامهم التي لا تنطفئ مع قسوة هذه المشكلات وصعوبتها.

«رءوف» شاب مثقف، تخرج، وتوظف، وله طموح علمي واضح، يسعى إلى الحصول على درجة الدكتوراة في التاريخ المصري الوسيط تحت إشراف «مثقف السلطة» «جابر عبد العظيم» الذي يعامله بفظاظة وازدراء ويفرض عليه ما يريد! يحب فتاة اسمها «ندى» - لاحظ دلالة الاسم - لم يستطيعا الزواج مع طول فترة التعارف، وتتهرب من التصريح له بما يعتمل في

نفسها أو بما تعانيه من ظروف. وتقف مأساة «رءوف» مع الجامعة التي لم تعينه معيداً، مع إحباطه أمام ندى وتعسف المشرف على الماجستير، والأزمات الأسرية وخاصة طلاق أخته نوال ذات الأولاد، لتصنع سداً أمام طموحه ورغبته العارمة في الحياة، ولكنه مع ذلك يقاوم، ويقوم مع زملائه وأصدقائه بمحاولات لتجاوز المحن والأزمات.

و«رءوف» المثقف يتأمل الحياة من حوله، وقد يتغلب عليها أحيانًا بالنكتة، كما هي عادة كثير من المصريين، أو بتحليل الأمور تحليلاً فلسفياً، يعود به إلى ما يمكن تسميته بفلسفة الصبر والتعايش مع الواقع كما هو، حتى لو لم نقدر على تغييره!!

ومن خلال دراسته عبر الشبكة الإلكترونية أو المراجع التاريخية حول موضوعه عن الفلاح نطالع المزيد من صور القهر التي عاشها المصريون على مدى حقب عديدة، وبمقارنتها بالواقع المعيش الذي يسجله هو، أو تسجله الرواية بشكل عام نجد أن المقارنة ليست في صالح زماننا. فنحن نعيش أسوأ العصور طرا، ولعل ذلك يرجع إلى فقدان الروح أو ما تسميه الرواية «الروحانية» وسعي الناس إلى المال بكل الوسائل حتى صار المال المعبود الأعظم لدى الأغلبية الساحقة من الناس، وهو ما تعبر عنه معظم شخصيات الرواية رجالاً ونساء على السواء.

أما «ندى» فهي شخصية تمثل الحلم بالأمن والاستقرار وانتعاش الروح، ولكنها تعيش مع أسرتها عناء كبيراً، فلها أخ اسمه «خضر» كان ضمن الجماعات الإسلامية، وهرب إلى أفغانستان ولها أخ آخر اسمه «سمير» يمثل نموذجا للانحراف الشبابي السائد بسبب الفقر والبطالة، ويطوح به الانحراف مع صحبة السوء إلى ممارسات غير خلقية وضد القانون، ويلقى حتفه غرقًا، وهو يسعى لعبور المتوسط مع آخرين (ثمانية وثلاثين شابا) في طريقهم إلى إيطاليا، ووالداها أضناهما الحزن والقهر والآلام، وإن كان الابن الأصغر الذي في الثانوية العامة يخفف من حزنهما وقهرهما وآلامهما إلى حد ما.

على المستوى الشخصي، تتوق ندى إلى «رءوف»، ولكن «صادق» رمز الطبقة الانتهازية الجديدة، يسعى إلى الزواج منها ويصبر على معاملتها له، ويحاول أن يقيم معها قبل الزواج علاقة آثمة وهما في زورقه المجهز للفسحة والمتعة، وتكاد تقع، لولا هروبها في اللحظة الأخيرة.. مما يهيئ لعودتها إلى رءوف في نهاية المطاف وزواجها منه.

هناك شخصية «نادر» صديق «رءوف»، وهو شاب سكندري مسالم دائماً، تعرف عليه في دار الكتب، ويعد رسالة ماجستير عن الشعر المصري في العصر الوسيط، زمن رسالتيهما واحد. هو عن الشعر و«رءوف» عن الفلاح، وفي كل الأحوال هو شاب جاد نقي، يتحمس أيضاً لرسالة الدكتوراة بسبب ساقه الصناعية، ويعمل مراقباً للجودة في مصنع مبارك للورق، ويتعرف على «نوال» أخت «رءوف» المطلقة ويتزوجها بعد مناقشة رسالته وحصوله على الدكتوراة.



الإسكندرية في الرواية تبدو فندقًا ومطعماً وشاطئًا وبحراً ونورسًا ومقهى.. وحسب، ولا نراها في أعماقها وعشوائياتها ومعالمها الأخرى

أيضاً، هناك شخصية «ياسر» شقيق رءوف، الذي تدفعه مثاليته، مع بعض زملائه إلى محاولة نشر صور الفساد الذي يمثله «كامل سركيس» أحد رموز الطبقة الانتهازية الجديدة، ومع صعوبة النشر في الصحف الكبرى بسبب قوة الفساد وفجوره وتمتعه بأموال الدولة وسطوة السلطة، فإن ياسر ينجح في النشر في بعض الصحف الأخرى، ولكنه يدفع ضريبة قاسية، هي حياته، حيث اختطفه كامل، ويموت ياسر من التعذيب في أحد أقسام الشرطة بمحافظة المنيا.

وإذا كانت الشخصيات السابقة من الشباب المعاصر الذي يعيش المحن والآلام والآمال، فإن شخصية «منصور الشامي» رب الأسرة الذي يبلغ الخامسة والستين، تمثل الطيبة والالتزام بالصلاة والدعاء، ويقوده خوفه على ابنه الشارد «سمير» إلى الوكر السري الذي يعيش فيه هذا الابن سعياً لانتشاله من المأساة أو الكارثة التي كانت تحدق به. الرجل العجوز لا يعرف غير المسجد والمقهى ومكانه البعيد جداً في طابور الخبز، وهو صابر غير متوتر يحلم بخمسة عشر رغيفًا نصفها محروق. وللأسف فإن ابنه سمير يعايره بأن زملاءه سبقوه: مهران يركب سيارة (نيسان)، وجلال بنى عمارة، وزميله لديه شاليه في الساحل الشمالي، أقل واحد من أبنائه مصروفه اليومي لا يقل عن ثلاثين جنيهاً، ويركبون التاكسي ويدخلون المحلات الكبيرة ويستوردون المستورد الغالي. ويرد الأب على معايرة ابنه قائلاً: «أعوذ بالله.. اخص عليه.. تريدني أن أكون.. هذه آخرتها؟!» (ص٦٤).

شخصية «منصور الشامي» لديها رصيد إيماني يعصمها من الانحراف، وهذا الرصيد يجعل قناعتها ورضاها بما قسم الله سلاحاً في مواجهة سعار جمع المال بالطرق المشروعة أو غير المشروعة.

على الجانب الآخر، نجد شخصيات معاكسة تماماً، لا أثر لديها للإيمان أو الخوف من الله، لا تعرف باب المسجد إلا رياء، وهي في كل الأحوال تنهب وتسرق بالقانون كل ما تستطيع سرقته ونهبه، والنماذج كثيرة، ونكتفي ببعضها..

«كامل سركيس» رئيس مجلس إدارة شركة الحديد، يحث عماله على الإنتاج، ويستخدم القرآن الكريم لبث الدعاية من أجل زيادة الإنتاج القومي، ولكنه يبذل أقصى جهده لسحب أكبر قدر من الإمكانيات والأموال والمزايا التي تتمتع بها الشركة لتصب في شركته الخاصة التي أنشأها في ديسمبر ١٩٩١. لقد استنزفت الشركة الخاصة الشركة القومية حتى تبادلتا المواقع، فأصبح إنتاج الشركة الأم ٢٩٪ من إنتاج الحديد في مصر، وشركة «كامل سركيس» تنتج ٥١٪ وباقي الشركات ٢٠٪. لقد تم بناء جدران الشركة الجديدة بأسمنت الشركة الأم، وتسليحها بحديد الشركة الأم، وبعض آلاتها من جسم الشركة الأم وعنابرها.

ومثل «كامل سركيس» شخصية «فادي شوقي راسخ»، الابن البكر المدلل لأحد كبار رجال الأعمال، لا شيء يستعصي عليه أو يعز.. أي شيء في الدنيا يستطيع بالتليفون. مهما غلا. أن يشتريه.. وأن يأمر فيحضر في الحال، من أي مكان بالعالم، وله علاقة براقصة شهيرة اسمها «مايسة» حققت له توازنًا نفسياً وجسدياً غير عادي.. لا يريد شيئًا من الدنيا.

ويلحق بهذين النموذجين، نموذج آخر للسمسرة التي لا تعبأ بأخلاق أو دين أو قانون أيضاً. إنه نموذج «زكريا» السمسار، الذي يجمع البنات لتزويجهن من عجائز الخليج، بل يعرض زوجته الثانية في المزاد، ويظل يجمع الأموال من المتاجرة في البنات الصغيرات، حتى ينتهي به الأمر إلى مستشفى الأمراض العقلية بعد أن انكشف انحرافه وإجرامه.

وهناك نموذج آخر لمثقف السلطة، الذي يمثله «جابر عبد العظيم» أستاذ الجامعة، المشرف على رسالة «رءوف»، فللرجل مناصب كثيرة في الثقافة ومجلس الشورى، والمجلس القومي للمرأة والمجالس القومية المتخصصة، وتأهيل الشباب، ونادي مصر الجديدة، والتعليم العالي، واتحاد الإذاعة والتليفزيون والجمعية التاريخية، وأكاديمية مبارك، بالإضافة إلى كونه أستاذاً منتدباً بكليات حكومية وخاصة عديدة، وعضواً بلجنة إعادة كتابة التاريخ، وله أكثر من مقالة أسبوعية في صحف مصرية وعربية، وهو ضيف دائم على جميع القنوات المصرية والعربية والأجنبية، الأرضية والفضائية. وهو بالطبع يدافع عن النظام بكل ما أوتي من قوة!

ترصد الرواية نماذج أخرى عديدة تمثل الانتهازية والفساد والنهب والانحراف، ومنها شخصية المقاول الذي كان في الأصل بائع بليلة وفشار، وبنى مواسير صرف فانفجرت، وبدأ مشروعه للنهب بمدرسة مبارك الإعدادية بحي البراجيل، وثنى بالمساكن الشعبية والمسجد القديم والسوق والحي القديم والشونة وحارة الحدادين وورش النجارة والدباغين ومخازن الخشب وورش الفخار.. ووصل إلى شركة مبارك للصباغة والتجهيز، ومعسكر قوات الأمن المركزي الخاصة بالمنطقة الغربية.. وصار من أعلام الأثرياء وذوي النفوذ والسطوة!

وهناك فريق ثالث من الشخصيات يبدو في دور الشخصيات المساعدة، لكشف الواقع أو التعليق عليه، ويمكن أن نأخذ شخصية «رزق الشامي»، شقيق منصور الشامي الأصغر. هذا الموظف الذي اهتدى إلى التنقيب في القمامة واكتشاف خباياها، ليواجه واقعاً صعباً، وقد صار. كما صورته الرواية «أستاذ كرسي القمامة» في جامعة الشوارع، وخبرة تتجاوز عشرين عاماً، والقمامة في خبرته كلها صالحة والرجل مرتبه لا يكفي أسرته الإفطار، أما الغداء والعشاء والملابس ومصروفات المدارس والانتقالات وأجرة الشقة والعلاج والأدوية والكهرباء أو أي طوارئ فلا يوجد ما يواجهها.

وهناك شخصية «مزاج» التي سبقت الإشارة إليها، ومع أنها بائعة هوى، وصاحبة مقهى بالإضافة إلى أنها سوداء ضخمة الجثة، فإنها تعشق النكت، وتنكت على الحكومة، وقد وضعها الكاتب لتشير إلى واقع آسن، وفي الوقت ذاته تتيح التعليق على منطلقات السلطة.

لا ريب أن الرواية اجتهدت في تصوير الشخصيات لتقدم واقعاً يغص بنوعيات مختلفة من البشر وقد رسمت بعض هذه الشخصيات من الخارج، فأعطتها ملامح جسمانية ولونية وسلوكية لإقناع القارئ بمنطقها وفعلها.. وإن كانت ركزت، وهو المهم، على الشخصيات الأساسية من الداخل، فأظهرت ما تفكر فيه هذه الشخصيات وما تحلم به، وما تسعى إلى تحقيقه، فضلاً عما يشغلها ويؤرقها.

تنتظم سرد الرواية لغة سهلة بسيطة اقرب إلى لغة الصحافة. قد تسقط أدوات الربط أحياناً، ولكنها تسعى إلى تقديم الدلالة من أقصر طريق وبأسرع الوسائل. وقد يمزج الفصحى بالعامية أحياناً، وقد يسعى إلى تفصيح بعض المفردات العامية ذات الأصل الفصيح، فهو مثلاً يستخدم الفعل «دفس» بمعنى دفن أو أخفى فيقول «ودفست رقبتي في الياقة»(ص٥) أو يقول: «الخبر مدفوس تحت إعلان عن أجهزة التخسيس»(ص١٠) وذلك بمناسبة فوز أحد المفكرين بأرفع وسام فرنسي تقديراً لإسهاماته الفكرية.

وإذا كانت لغة الرواية تفضل البساطة والوضوح بصفة عامة، فإنها لا تخلو من المجاز، في صوره الجزئية من تشبيه واستعارة وكناية، وهذه الصور لها دلالة خاصة حيث تمثل نوعاً من الطرافة إذ تعتمد مثلاً في بعضها على استخدام أنواع الأوعية (البرطمان، الصفيحة، البرميل) ولنقرأ هذه الأمثلة:

«إذا لم تصب في مجرى برطمان أسرارها المخللة فلن تتقدم نحوي خطوة» (ص١٤).

«أنا إنسان.. صفيحة فارغة مع الصباح تود أن يملأها من يعرفون حالها وحاجاتها..»(ص١٨).

«بحاجة أنا إلى رؤية رءوف.. روحي مغمورة في برميل المواقف التعسة، وأبدو كالخرقة المبتلة.. مشتتة وضعيفة وعاجزة ووحيدة.. بحاجة ماسة إلى رجل يحبني ويشد أزري»(ص٢٣).

وفي المثال الأخير يمكن أن نرى صورة كلية تصور حال البطلة (ندى). وهي تصور حرمانها وضعفها وحاجتها إلى رجل، من خلال الصورة الجزئية المتعددة في الفقرات السابقة على المثال، وهي صور تتلاقى وتتجمع لترسم لوحة كبيرة للوحدة والضياع.

ويلعب التضمين والاقتباسات دوراً مهماً في إثراء لغة الرواية وتلوينها



ترصد الرواية نماذج أخرى عديدة تمثل الانتهازية والفساد والنهب والانحراف، ومنها شخصية المقاول الذي كان في الأصل بائع بليلة وفشار

بألوان مختلفة تقطع الملل والرتابة أو تنفيهما إذا شئنا تعبيراً أدق.

هناك التضمين بما يسمى «شعر العامية»، وهو غير الزجل الموزون المقفى، والنكت الشعبية، والمذكرات أو الرسائل أو كتب التاريخ القديم والوسيط والحديث.

ودور التضمين أو الاقتباسات يصب في اتجاهات عديدة أبرزها، صناعة واقع قديم مواز لواقع حديث أو راهن، يتشابهان ويتماثلان.. بل يتطابقان في بعض الأحيان، وخاصة في الملامح والأبعاد التي تؤكد على مظلومية الإنسان المصري ووقوعه ضحية للطغاة والجلادين والمستعمرين.

شعر العامية الذي تستخدمه الرواية، يحمل شحنات حزن وأسى تعبر عن واقع مرير يعيشه المصريون على امتداد تاريخهم، وللأسف بدا لي معظم هذا الشعر غير موزون وغير مقفى، مع أن معانيه جيدة أو لا بأس بها وكان أمام الكاتب فرصة لاقتباس شعراء أكثر قوة وأكثر حضوراً في الوجدان المصري بدءاً من بيرم التونسي حتى فؤاد حداد.

أما النكت، فتمثل تضميناً موفقاً، وخاصة أن بعضها يعالج الأحداث الراهنة، ويتسم بالجرأة في التنكيت على الحكومة، كما رأينا من قبل، وهناك نكت ذات دلالة عميقة وتشي بالحزن والانكسار مع ما قد تثيره من ضحك وابتسام.

«استشهد فلسطيني، وصعد إلى السماء، وذهب إلى الجنة، ووقف يسأل عم رضوان عن السكة، وكان يوزع الموتى حسب الجنسية، قال له: أنا فلسطيني شهيد.

قال رضوان: الفلسطينيون في المخيم هناك، آخر الجنة على الشمال!» (ص٤٨).

ويأخذ التضمين بالمذكرات أو الرسائل مع التاريخ مساحة كبيرة من صفحات الرواية، وجميعها تصب في إثبات القهر الذي عاشه أو يعيشه المصريون.

تضمن الرواية صفحاتها ببعض رسائل لوسي الإنجليزية إلى زوجها الكسندر جوردون إبان عهد الخديو إسماعيل، فتشير إلى أحوال المصريين التعيسة: الأجنبي يهاجمهم وينهبهم، والحكام يظلمونهم ويقتلونهم وهم صابرون على البؤس والذل!

ويقوم الحوار بدور مهم في السرد الروائي، لأنه يكشف أعماق الشخصيات المختلفة، ويفضح الواقع، ويقدم لنا الطبقة الجديدة من الداخل، وأيضاً مأساة الشباب.

يقدم لنا الحوار صورة وصفية لقصور رجال الطبقة الجديدة التي يسمونها «رجال الأعمال»، إنها قصور باذخة، وتقام فيها حفلات أسطورية، وأعراس خيالية.. والزواج زواج مصالح!

«تصوروا معظم الحاضرين أقارب.

قلت باندفاع:

- مستحيل!

قال: نحن فقط الأغراب.. على مدى العشرين سنة الماضية تزوج رجال الأعمال وأبناؤهم من الوزراء وأعضاء مجلس الشعب.. الكبار تصاهروا مع بعض، وكونوا طبقة الكريمة التي تحكم البلد.. لم يعد هناك اختلاط في الأنساب أو الطبقات وكل طموحاتهم لن تخرج عن الشعارين.. الكرسي رمز لكبار المسئولين، والخزينة رمز لرجال الأعمال...».

وإذا كان الحوار يكشف ويفضح ويضيء، فإن المفارقة والسخرية تفعل الشيء نفسه بل أكثر، حيث تتحول أحياناً إلى نوع من السياط تجلد الظواهر السلبية المشوهة والمنحرفة.

تأمل مثلاً هذه السخرية المريرة من الأمن المركزي:

«أول مرة أشوف عربيات الأمن المركزي تنتشر بالليل فتصورت أن النهار طلع» (ص٤٥).

أو السخرية من القمع الذي تمارسه أجهزة الشرطة:

«رجال الشرطة تعبوا من القبض على الناس (يقصد السياسيين وأشباههم)».

أو يشير إليهم بأنهم «مضطرون للقبض تقريباً على كل الشعب» (ص٥٣).

ثم تأمل هذه المفارقة التي تلجأ إليها الرواية في أحيان كثيرة، وتخفي سخرية ما، وانتقاداً ما، بسبب ما آلت إليه أحوال الناس والدولة:

«جاءني صوت شادية اللذيذ تغني بمناسبة ٢٥ أبريل «سينا رجعت كاملة لينا.. ومصر اليوم في عيد»... عجبت لأن محطة السكة الحديد كانت محاطة بعدد كبير من سيارات الأمن المركزي، معبأة صناديقها الضخمة بأكداس الجنود في أزيائهم السوداء ووجوههم الجهمة، بينما العيون زائغة وآذانهم مشرعة في انتظار الأوامر. لم أستطع أن أمنع نفسي من الدهشة من حال القيادات وتفكيرها. هؤلاء الجنود يعيشون في الأغلب تحت خط الفقر، وتستخدمهم الحكومة في ضرب الشعب الذي يعاني من الغلاء وسوء الخدمات ووحشية التجار وغياب العدل على كل المستويات.. الشعب يضرب الشعب.. الفقير يضرب الأكثر فقراً..» (ص٢٥).

إن الرواية من خلال استخدامها السرد والمفارقة وبقية عناصر البناء الأخرى تطرح العديد من الأسئلة التي قد لا تقدم لها جواباً مباشراً، أو تقدم جواباً ضمنياً ولكنها في كل الأحوال تشد القارئ إلى طرح سؤال: ما الحل؟ لأن الحل يبدو صعباً ومعقداً، فبلادنا لن تتحرك فيها الجيوش للانقلاب بسبب استئناسها والتحكم فيها وإغراقها بالمغريات والمزايا.. ثم إنه ليست هناك قيادات كافية ومخلصة للتحرك بالآلة الشعبية والزحف لفرض التغيير.. وثالثاً ليست هناك أية مؤسسات ديمقراطية ولا مناخ يسمح بتداول السلطة من خلال الحوار السلمي والصراع الحزبي.. لذا.. فإن الرواية تتصور الحل عن طريق «الفانتازيا»، وهو قيامة الموتى، وخروجهم من الأجداث، وتلاقيهم في مظاهرات من أجل الوطن ومنحه «قبلة الحياة»، وإعادة بناء المجتمع على أساس النظام والنزاهة والعدل.. بيد أنه يتم الالتفاف حول هذه المظاهرات وصرف الموتى، لتبدأ مرحلة أخرى!

ولكن البطل «رءوف» يستشعر في النهاية حالة متأرجحة بين اليأس والأمل كما سبقت الإشارة وقد عقد العزم على ألا يترك الفرصة كاملة لليأس.. سوف يحاربه ويكافح أسبابه بكل ما يملك، على ثقة أن «ندى» أصبحت إنسانة أخرى، وتدرك إلى حد كبير ما يتعين عليها عمله.. غير مستبعد أن تكون له.. قبلة الحياة!!

هل يمكن أن تكون «ندى» رمزاً لندى الكبرى.. مصر؟ لعلها.. ■

صديقى صلاح

إلياس سحاب

■■ لو القينا نظرة استعادية على المسيرة العامة للعرب المعاصرين فى القرن العشرين. فإنى ممن يرجحون أن تاريخ الحراك الثقافى للعرب فى كل اقطارهم، كان أغنى من تاريخ حراكهم السياسى، ومع ذلك. فإن مدونات العرب عن تاريخهم السياسى (قديمه وحديثه) أكثر عددا واوسع تفصيلا بما لا يقاس، من مدوناتهم التى تهتم بتاريخ نشاطهم الثقافى. وهذه ملاحظة ابداها الكاتب الفنان محفوظ عبد الرحمن فى سياق حديثه معى عن موسوعة أم كلثوم.

ولو طبقنا هذه الملاحظة العامة على القرن العشرين بالذات. فسرعان ما نكتشف أن تقصير العرب فى تدوين نشاطهم الثقافى. بكل ما فيه من محطات وتيارات وتفاعلات. وبكل من صنع كل ذلك من أسماء لامعة فى شتى ميادين الثقافة من فكر وأدب وموسيقى وغناء وسينما ومسرح ونحت ورسم وصحافة وتربية وعلوم. يمكن أن ينعت (بلا مبالغة) بأنه تقصير فادح وفاضح.

انطلاقا من هذه الملاحظة انتابنى وأنا أمام الذكرى العشرين لرحيل صلاح جاهين. شعور جارف بضرورة تدوين شهادتى عن صلاح جاهين. لعلها تكون ذات فائدة ولو محدودة. فى اى جهد يمكن أن يبذله أبناء الأجيال العربية الصاعدة. فى التاريخ للرموز المؤثرة فى تكوين ملامح الثقافة العربية فى القرن العشرين.

وأبدأ من هذه النقطة بالذات فأقول إن رموز الثقافة فى بلادنا (وربما فى كل بلاد العالم الأخرى) ينقسمون الى فصيلين رئيسيين:

• فصيل من المشاهير الذين لا وجود لأى تطابق بين ما يتمتعون به من شهرة، وبين القيمة الحقيقية العامة لرصيدهم فى التأثير على الوجدان العام لشعبهم وامتهم، وفى صناعة ثقافة بلادهم وامتهم.

• وفصيل آخر من المشاهير الذين لا ريب فى انهم ينتمون إلى قائمة صناع ثقافة وحضارة شعوبهم وأمتهم، فى عصر من العصور، ومن المؤثرين الأساسيين فى تكوين ملامح الوجدان الإنسانى والثقافى للأفراد والجماعات من معاصريهم.

ولو لم يكن صلاح جاهين واحدا من طليعة رموز الفصيل الثانى. لما شعرت بهذا الإلحاح فى الإدلاء بشهادتى، خاصة أن صلاح جاهين كان بين أكثر صناع الثقافة العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين، الذين اتاحت لى الظروف، وكيمياء الأمزجة الشخصية والنفسية، فرصة عقد علاقة صداقة حميمة معه، لعلها كانت بين الأكثر حميمية وعمقا فى شبكة علاقاتى الشخصية بكثير من المثقفين العرب اللامعين فى النصف الثانى من القرن العشرين.

والحقيقة أن علاقتى الوجدانية والمعرفية بصناعة الثقافة العربية قد ابتدأت من أيام طفولتى الأولى فى يافا (وأنا من مواليد ١٩٣٧)، حيث كانت إذاعة القاهرة، ببرامجها العامة والثقافية والسياسية، وتلال أسطوانات سلامة حجازى وسيد درويش وعبد الوهاب وأم كلثوم، ومجلات الأطفال القادمة من القاهرة، هى حبل السرة الذى يشدنى بينابيع الثقافة العربية المعاصرة. وهو حبل ظل مشدودا حتى انتقلنا إلى بيروت فى أواخر عقد الأربعينيات (عبر إقامة قصيرة فى عمّان). ولكن تلك كانت كلها تعبيرا عن تجليات الثقافة العربية فى القاهرة فى أواخر العهد الملكى.

وبعد سنوات قليلة من الانتقال الى بيروت، استمرت علاقتى بالقاهرة، لكن بعد أن أصبحت قاهرة ثورة ٢٣ يوليو وجمال عبد الناصر، فكنت اقطع فى كل يوم كيلو مترات عديدة بين منزلى فى ضواحى بيروت والمكتبة المتخصصة فى استيراد الكتب والمجلات المصرية. أقضى أحيانا ساعات فى انتظار وصول عدد من أعداد مجلات دار الهلال ومجلات دار روز اليوسف، استكمالا لتواصلى الأول مع الثقافة الواردة من القاهرة، الذى كنت قد بدأته فى يافا.

بعد ذلك، وعندما وضعت قدمى فى أرض الكنانة للمرة الأولى فى حياتى، فى العام ١٩٦٥ (وكنت فى الثامنة والعشرين من عمرى) تعرضت لأحد أغرب المواقف فى حياتى العامة. عندما اكتشفت أن كل الوجود التى ألتقيها للمرة الأولى فى حياتى هى نجوم الصحافة والثقافة والفن فى القاهرة الذين كنت من جهتى على معرفة كاملة بهم، كأنهم من أفراد أسرتى، من أحمد بهاء الدين وكامل زهيرى ومحمد عودة ورجاء النقاش وإبراهيم عامر، (فى الصحافة) إلى صلاح جاهين وبهجت عثمان وحلمى التونى واللباد وحجازى (فى الفن) إلى محمد عبد الوهاب ومحمود الشريف ومحمد الموجى وكمال الطويل وسيد مكاوى (فى الموسيقى والغناء). إلى كثير سواهم فى شتى حقول الثقافة والمعرفة.

ومن المؤكد أننى بين هذه العلاقات الثقافية التى تحولت بمعظمها إلى صداقات ضاعفت فى رصيد مكاسبى الإنسانية والثقافية والسياسية، لم أخطط للتطور الذى طرأ على العلاقة مع صلاح جاهين، لتتحول إلى صداقة حميمة، كأننا تربينا فى كنف أسرة واحدة.

وأستطيع أن أزعم أننى بشكل دقيق ومؤكد، أتيح لى خاصة بين منتصف الستينيات ومنتصف السبعينيات، أن أعايش صلاح جاهين (بين القاهرة وبيروت) معايشة دائمة مستمرة، على خطين متوازيين:

• خط كل ما ينتجه من شعر مكتوب، وشعر مغنى، ورسم كاريكاتورى، وإنتاج مسرحى وإذاعى وسينمائى.

• وخط حياته الشخصية بكل ما فيها من انفعالات وأحزان وأفراح، ومن تداخل كثيف جدا بين العام والخاص فيها.

سأتجاوز طبعا المنهج الاكاديمى فى عرض أعمال صلاح جاهين فى حقول إبداعه المتشعبة، فهذا عمل لا يحتاج إلى شهادة شخصية مبنية على علاقة شخصية، ومن السهل القيام به وفقا لمناهج التاريخ الاكاديمية جمعا وتصنيفا ودراسة لإنتاج صلاح جاهين فى كل هذه الحقول. سأتجاوز كل ذلك إلى عرض شهادتى عن الملامح الإنسانية لشخصية هذا العبقرى الذى أعتبره بين أبرز صناع الثقافة العربية والوجدان العربى فى القرن العشرين.

أبدأ بانطباعاتى الخاصة عن ملامح الانتماء العربى كما عايشتها بشكل عضوى وحميم فى علاقتى بصلاح جاهين. وليس من خلال حوارات فكرية نظرية، كما كان الحال مع آخرين.

كنت ألاحظ دائما، خلافا لما كنت أسمعه من بعض البحاثة الأكاديميين فى علوم الاجتماع والأنثربولوجيا عن نزعة الإنسان المصرى للانكفاء عن محيطه العربى والاكتفاء بمصر، باعتبارها بلدا عربيا مركزيا ومتكاملا بذاته، كنت الاحظ شغفا غير عادى عند صلاح جاهين بالتعرف إلى مختلف اللهجات العربية المحكية، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق. وهو شغف كان يتجاوز مجرد التعرف السطحى إلى أشهر الكلمات الشائعة فى كل لهجة، إلى تشرب الروح العميقة الخاصة بكل لهجة، حتى كان يخيل إلى أحيانا أن هذا الشغف كان يدفع صلاح جاهين للتعرف إلى الأسرار الكامنة فى بعض اللهجات العربية المحكية، أكثر من أهل تلك اللهجة، الذين يمارسون لهجتهم بالسليقة، دون حاجة للتأمل فيها وفى اسرارها. وكان من حصيلة هذا الشغف لدى صلاح جاهين، أنه كان مسئولا عن تعريفى بكنوز الزجل اللبنانى، مع أنى كنت على تماس لا بأس به بالرئيسى من هذه الكنوز.

كان من أشد ما لاحظته عند صلاح جاهين أيضا شغفه بالاطلاع على تفاصيل الحياة اليومية للمصريين فى أيام الفراعنة، إلى درجة أن استغراقه فى هذا الحديث أمامى، كان يحيطنى أحيانا بشعور غريب كأننى وصلاح، انتقلنا فعلا للعيش فى العصر الفرعونى. وقد قال لى وهو يتأمل قطه الشهير «مشمش»

كنت ألاحظ شغفا غير عادى عند صلاح جاهين بالتعرف إلى مختلف اللهجات العربية المحكية، وكان يتجاوز مجرد التعرف السطحى إلى أشهر الكلمات الشائعة فى كل لهجة

جاهين



تمثال صلاح جاهين
للفنان آدم حنين

الذى أهدانى اللوحة المائية التى رسمه فيها مسترخيا على مقعد فى بيته الصغير بشارع محمد مظهر فى الزمالك (بين زواجه الاول وزواجه الثانى)، قال لى إن هذا القط حتما من سلالة القطط فى العصر الفرعونى، واغرقنى فى حديث شيق عن تفاصيل هذا الموضوع.

علاقة صلاح جاهين الوجدانية والعاطفية والسياسية بجمال عبد الناصر، كانت أيضاً بين المواضيع التى أذكرها فى نسيج العلاقة بيننا، وإن كان يفضل ردا على أسئلتى فى هذا الموضوع، اجوبة قصيرة مختزلة مضمخة بكثير من العاطفة والحياء. وعندما سألته عن مشاعره عندما تسلم جائزة من عبد الناصر فى عيد العلم (وكنا نشاهد صورة فوتوغرافية عن ذلك اليوم)، فأكد لى انه كان بالغ التأثر لدرجة انه لم يسمع كلمة واحدة مما قيل أمامه، ولا يتذكر أى تفصيل من تفاصيل ذلك اليوم.

شغف صلاح جاهين بالموسيقى كان لا يعترف معه بأى حواجز بين عيون الموسيقى العربية وعيون الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية. وذات حوار بيننا كنت أعرض له فيه شغفى اللا محدود بمؤلفات بتهوفن من سمفونيات وكونشرتات وسوناتات، فأجابنى بقوله: «أحبها، لكنى أفضل موسيقى باخ».

فلما سألته عن السبب قال: أنا بطبيعتى إنسان فوضوى «ملخبط» وقلق، وأشعر بمزيد من الاضطراب والقلق عندما أستمع إلى موسيقى بتهوفن بصخبها الدرامى، أما موسيقى باخ فإنها تنظمنى من الداخل وتمنحنى الهدوء والسكينة النفسية.

كان يعرف تماما، وبكل موضوعية، من هو اقدر منه فى فن الرسم، ومن هو أقل قدرة منه. وفى حديث طويل بهذا الشأن، كان يبدى افتتانا بليونة عجيبة (على حد تعبيره) فى خطوط الفنان جورج البهجورى، ويقول لى: ربما اتفوق على البهجورى بالمحتوى الفكرى لرسومى، لكنه بلا شك أقدر منى فنيا.

كانت زياراته المتكررة لبيروت تحوله طفلا يحب الاستمتاع بكل شىء، من الثقافة الفنية والفكرية الرفيعة، الى المأكولات اللبنانية التى كان يعشقها. حتى أنه رفع يديه إلى السماء أمام طبق ملىء بعظام الدجاج المشوى الذى التهمه: «ليه يارب مش قادر أكل كمان».

كان فى لقاءاتنا اللبنانية، يحرص على ان يطلعنى على كل تفاصيل ما لم أطلع عليه بعد من أعماله الفنية الجديدة فى القاهرة، ومن المؤكد ان من بين اكثر الأعمال التى كان معتزا بها عمله مع المخرج الفنان سعد أردش ومخرج ألمانى (لا أذكر اسمه)، والفنان سيد مكاوى، فى اغنيات مسرحيتى «بريشت»: الإنسان الطيب، ودائرة الطباشير القوقازية.

وكنت أكتشف من خلال شروحه المطولة والمعمقة لعمله هذا، كيف يصل هؤلاء العباقرة، إلى إنتاج نصوص غنائية عربية خالصة، تجسيدا لترجمات من ثقافة شديدة الاختلاف بكل تفاصيلها. وكان من بين ما اكتشفته أن عبقرية صلاح جاهين لم تكن كافية وحدها لذلك، بل اجتهاده فى عمله

صـــــــديقـي  صـلاح جـاهـين

إلى درجة التفاني. فقد كان يضع أمامه كلام الأغاني المسرحية مترجما إلى العربية نثرا، ثم يضع إلى جانب ذلك الترجمة الإنجليزية والترجمة الفرنسية، ويستمع إلى نص الأغنية بالألمانية (لحنا وكلاما)، ثم يحول كل هذه المعرفة وهذا الاطلاع، إلى مخزونه العربي من الشعر الكلاسيكي ومن اللهجات العامية، ويستخرج من كل ذلك، كلام أغنيات النص العربي لمسرحيات «بريشت».

لعل شغفه بالحياة العامة في مصر وسائر البلاد العربية، بل ربما سائر بلاد العالم، دفعه إلى توسيع دائرة إنتاجه الفني ليس إلى السينما فحسب، بل إلى كتابة المسرحيات الإذاعية لإذاعة صوت العرب، التي كان يضع فكرتها ونصها الإذاعي، ونصوص أغانيها.

لقد فاض هذا الشغف الإبداعي لدى العبقري صلاح جاهين، إلى درجة أنه كان يمارس سخريته العربية المصرية، باللغة الإنجليزية رسما ونظما شعريا.

فقد حدث أن وجهت إليه الدعوة لزيارة واشنطن لستة شهور أيام المرحلة الناصرية. وعندما سألوه في مقابلة صحفية هناك: لماذا تعتقد أنك دعيت لواشنطن (Washington)، استعار المقطعين الأولين من اسم العاصمة الأمريكية، ليطلق جوابه الساخر في تورية سياسية واضحة:

For a brain washing

ما ترجمته بالعربية: لعملية غسيل دماغ.

وعندما سألوه في المقابلة نفسها: هل لك أن تصف الشعب المصري بعبارة واحدة، استعار العبارة الإنجليزية التي تعني «الجنس البشري» (هيومان ريس) ليحرفها في تورية ساخرة:

(We are the humor race نحن الجنس الفكاهي).

ومن ألمع سخرياته الشعرية باللغة الانجليزية والروح المصرية، رسم كاريكاتوري لم يأخذ طريقه إلى النشر، أتيحت لي فرصة الاطلاع عليه في مكتب صلاح جاهين. فقد كلفته جريدة «تايمز» اللندنية اليومية الشهيرة، أن يزودها بعدد من الرسوم الكاريكاتورية لعدد خاص أصدرته عن مصر بمناسبة ٢٣ يوليو في إحدى السنوات. فلبى الطلب وقدم للجريدة عدة رسوم، على أن تتولى رئاسة التحرير اختيار ثلاثة منها. وكانت أروع تلك الرسوم نقدا لاذعا لإسرائيل، مما دفع الجريدة الإنجليزية لاستبعاده طبعا.

كان الرسم يمثل قصاصات عديدة من الورق مكتوب على كل قصاصة منها كلمة فلسطين، باللغة الانجليزية طبعا، ثم تضمن الرسم «ممحاة» على شكل رأس موشيه دايان، تمر الممحاة على كل قصاصة لتمحو كلمة فلسطين، فكانت النتيجة أن بقيت كلمة «فلسطين» واضحة على كل القصاصات، فيما ظلت الممحاة تتضاءل في حجمها من قصاصة لاخرى حتى تلاشت، ونظم تحت الرسم بيتين من الشعر:

There was a foolish rubber
Once upon a day
That rubbed and rubbed and rubbed
And rubbed itself away

ومعناها بالعربية: ذات يوم، كانت هناك ممحاة مجنونة، ظلت تمحو.. وتمحو... وتمحو، حتى محت نفسها.

مع أن صلاح جاهين كان يبدو مدنيا قاهريا في كثير من سلوكه وتصرفاته، إلا أن روحه كانت مغروسة حتما في جذور طين مصر من أقصى جنوبها النوبي، إلى شواطئ المتوسط في شمالها، المنفتحة على أوروبا والعالم.

ومع أنه نظم الرباعيات ذات المنحى الفني الفلسفي العميق، فقد قرأ لي ذات يوم مقطعا من الشعر العامي فيه خلاصة الروح الشعبية المصرية في الغزل على لسان صياد سمك، وروى لي قصة غريبة عن ذلك المقطع الذي كتبه للإيقاع بالنقاد الذين كانوا يعتقدون أنه بعيد عن الروح الشعبية المصرية بأعماقها الحقيقية. في بداية الأمر، عرض صلاح جاهين المقطع على النقاد باعتباره تراثا فولكلوريا اكتشفه في بطون الكتب القديمة. وبعد أن كتب هؤلاء النقاد مقالات مطولة تغزلا بعبقرية الفولكلور الشعبي، كشف صلاح السر، وأعلن أنه مؤلف هذه الأبيات.

وفي رأيي أن صلاح جاهين لم يكن بحاجة إلى هذه الألعوبة الثقافية، أليس هو صاحب «الليلة الكبيرة» التي لم يرتق شاعر شعبي مصري إلى ذروتها في وصف «الموالد» في أعياد مصر الشعبية؟.

كان، من هذه الزاوية بالذات، يشرح لي بعبارات بالغة الغرابة، إعجابه بعظمة تمازج الروح الشعبية والآفاق الراقية في موسيقى عبد الوهاب، فيعلق بعبارات مدهشة في بساطتها عندما ينتقل عبد الوهاب من مقطع رومانسي حالم في أغنية «اسمح وقل لي يا نور العين»، إلى مقطع ذي نفس شعبي خالص: «تزيد في وجدي/ واشتاق إليك/ وتفوتني وحدي/ وأهون عليك»: انظر كيف خلع عبد الوهاب البذلة السموكنج، وحزم وسطه ليرقص بلدي.

ولعل من أبلغ نظرياته في النقد الثقافي والسياسي تعبيره عن ضيقه الشديد بإصرار بعض الأدباء اليساريين على اعتبار «تمجيد الفقر واحتقار الترف» أرقى مؤشرات الانتماء اليساري. كان يرد على هذا المنطق ببساطة شديدة فيقول: ليس صحيحا أن الفقر جميل، وليس صحيحا أن الترف قبيح. انظر إلى الأدب الشعبي كيف يتوق إلى جماليات الترف فيقول: «العتبة قزاز/والسلم نايلون نايلون». القبح يكمن في غياب العدالة الاجتماعية، وليس في جماليات الحياة المرفهة أو المترفة.

ولكم راودني في فترات متباعدة أن أجمع بين عشقي لشعر صلاح جاهين وعشقي لموسيقى محمد عبد الوهاب، فحاولت مرات عديدة من خلال لقاءاتي المتعددة بعبد الوهاب، بأساليب مباشرة وغير مباشرة، أن أقنعه بأن تجديده الذي لا يتوقف في الموسيقى، سيكون رائعا لو التقى بتجديد صلاح جاهين في الشعر، وكنت أستقوي بإقدام أم كلثوم، ذات النزعة المحافظة، على مغامرة غناء ثلاث قصائد لصلاح جاهين: والله زمان يا سلاحي (لحنها كمال الطويل)، محلاك يا مصري (لحنها محمد الموجي)، ثوار ثوار (لحنها رياض السنباطي). كنت أقوم بكل هذه المحاولات بيني وبين الموسيقار محمد عبد الوهاب دون مفاتحة صلاح جاهين. ولعلي أحسنت بكتمان ذلك عن صلاح، لأن المحاولات باءت جميعها بالفشل، ولعل تفسيري المرجح لهذه النتيجة، هو حذر عبد الوهاب من «يسارية» صلاح جاهين.

غير أنه لا يمكنني اختتام هذه الشهادة في ذكرى صلاح جاهين، وفي تلمس ملامح شخصيته الثقافية والإنسانية، دون كلام صريح ومباشر عن التفسير الظالم لنتاجه الشعري العظيم الذي لحن معظمه كمال الطويل وغنى معظمه عبد الحليم حافظ، في ما يشبه تدوين يوميات إنجازات ثورة يوليو، وهو التفسير الذي بلغ من الظلم (والشطط برأيي) لدى البعض فوصفه بالانتهازية.

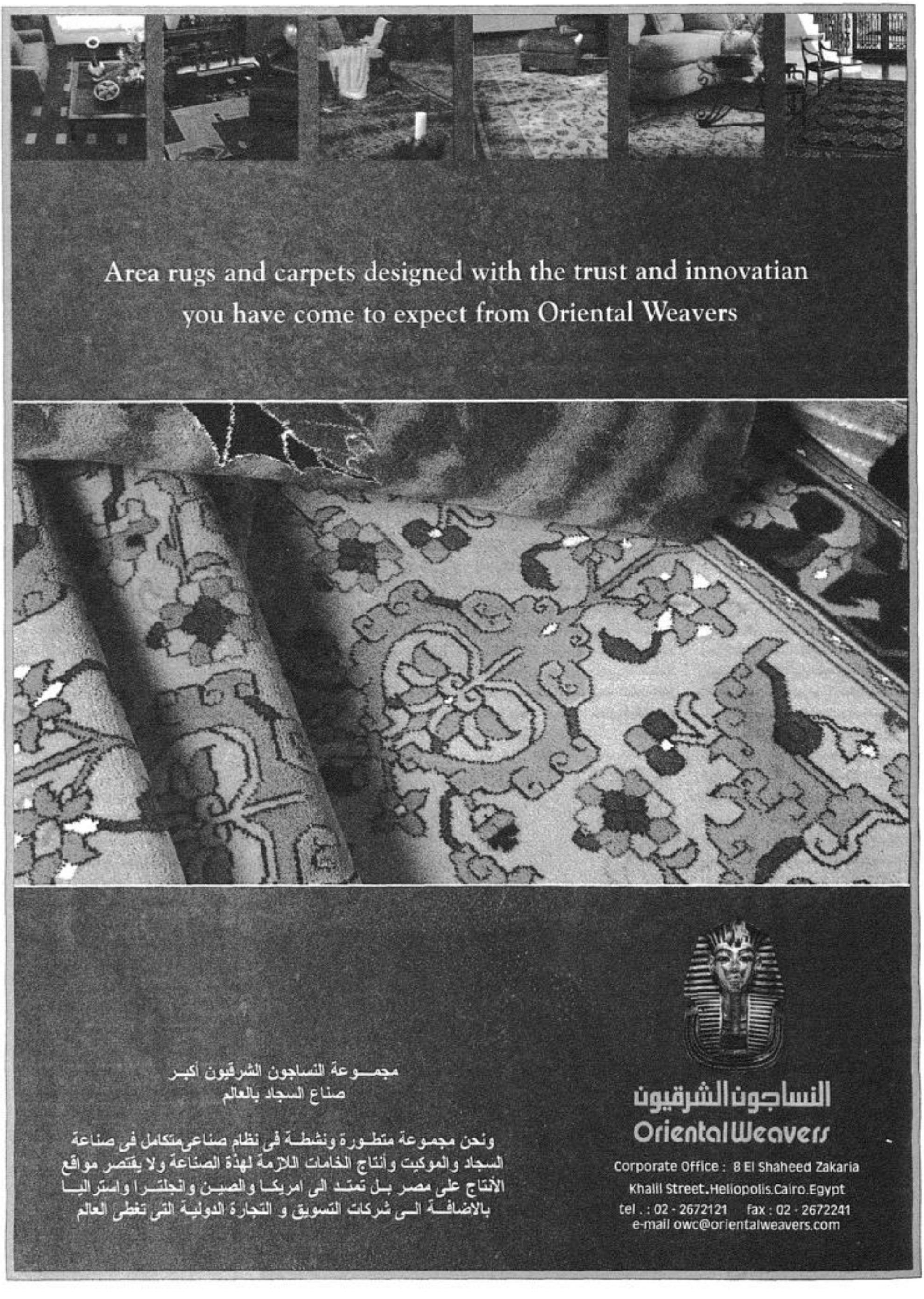
وقائع حياة صلاح جاهين بعد هزيمة ١٩٦٧، وخاصة بعد رحيل عبد الناصر، خير دليل على ذلك الظلم وذلك الشطط. فالانتهازيون عادة لا يمكن أن يصابوا بالاكتئاب عند الانتقال من حال إلى حال، بل يزداد فرحهم، ويزداد إقبالهم على اقتناص الفرص الجديدة المتاحة، بمجرد نقل البندقية من كتف إلى كتف. لقد توقف تدفق نبع الفرح أول ما توقف في حياة صلاح جاهين، عندما جاءت هزيمة ١٩٦٧، سقوطا شاهقا من علياء الأحلام القومية التي كان إيمانه بها يجعله يرى صورها في المستقبل كأروع ما يكون:

تماثيل رخام عالترعة وأوبرا
في كل قرية عربية.

كان ذلك حلما حقيقيا لدى صلاح جاهين حلق به وبنا عاليا. فكانت سقطة ١٩٦٧ شديدة الوجع. ثم جفت ينابيع الفرح نهائيا في حياة صلاح جاهين بعد رحيل بطله جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠. ولم تكن الرسوم الكاريكاتورية التي حملت بعد ذلك ما بدا تأييدا لخط سياسي مناقض لخط عبد الناصر، لم تكن برأيي خوفا من عقاب أو طمعا في ثواب بل كانت استكمالا لدائرة اليأس والاكتئاب التي دخل فيها صلاح جاهين، منذ النكسة وحتى رحيله في منتصف عقد الثمانينيات.

لا شك أخيرا، بأن قائمة العظماء والعباقرة من صناع الثقافة العربية والوجدان العربي في القرن العشرين، في نصفه الأول ونصفه الثاني، تضم عشرات الأسماء التي تستحق من الأجيال العربية الصاعدة في مطلع القرن الحادي والعشرين جهودا حقيقية لتاريخها، وتدوين وحفظ نتاجها، كما تفعل شعوب أوروبا مع عباقرة ثقافتها، ولا شك أيضا بأن اسم صلاح جاهين سيكون في الصفوف الأولى من هذه الأسماء، عندما يمسك العرب المعاصرون بكل أسباب دخول العصور الحديثة. ■

في ربيـــــع العـــــام ١٩٨٦، نعى الناعي الفنـــــان الشـــــامل صـــلاح جاهين عن ستين ربيعا، رحل قبل أشهر قليلة من اكتمالها


Area rugs and carpets designed with the trust and innovatian
you have come to expect from Oriental Weavers
مجموعة النساجون الشرقيون أكبر
صناع السجاد بالعالم
ونحن مجموعة متطورة ونشطة فى نظام صناعىمتكامل فى صناعة
السجاد والموكيت وأنتاج الخامات اللازمة لهذة الصناعة ولا يقتصر مواقع
الأنتاج على مصر بل تمتد الى امريكا والصين وانجلترا واستراليا
بالاضافة الى شركات التسويق و التجارة الدولية التى تغطى العالم
النساجون الشرقيون
Oriental Weavers
Corporate Office : 8 El Shaheed Zakaria
Khalil Street.Heliopolis.Cairo.Egypt
tel .: 02 - 2672121 fax : 02 - 2672241
e-mail owc@orientalweavers.com

التوحّد فى الإيمان

الأمير تشارلز

[١]

■■ لقد تأثرت بالغ التأثر عندما علمت أنكم قررتم دعوتى لأتحدث إليكم فى هذا الصرح الدينى والعلمى العتيد والتليد. ولقد أكرمتمونى بالغ الإكرام بدعوتكم هذه، كما أننى يشرفنى بصورة خاصة أن أزور جامعة الأزهر الشريف، وفى الحقيقة، أن أزور مصر التى أكن لها محبة خاصة، وهى البلد الذى يعتبره الكثيرون بلداً ذا قداسة خاصة إذ كان ملاذاً لجأ إليه السيد المسيح فى بواكير طفولته.

اسمحوا لى أن أبدأ حديثى بذكر محامد الرجل الذى كان أول من شجعنى على أن أقبل الدعوة لأتحدث فى هذا المكان. إنه صديق عزيز وأحد الذين تخرجوا فى هذه الجامعة العريقة، ألا وهو فضيلة الشيخ زكى بدوى، الذى كانت وفاته فجأة فى شهر يناير الماضى صدمة هائلة أحزنت العديد من الناس فى العالم حزناً عميقاً، فقد كان الشيخ زكى بدوى حقاً يتصف بالحكمة والمعرفة وبالتواضع الذى هو من شيم العالم الأصيل أدخل - رحمه الله - الآخرين فى رحاب علمه الواسع، وكان فى كل ذلك يأسر محدثه بما يتمتع به من روح الفكاهة وحضور البديهة.

أنا لا أدعى أننى من أولى العلم، اللهم إلا أننى درست التاريخ فى جامعة كمبريدج ولى اهتمام خاص بالتراث الذى ولدت فيه، وهو تراث إبراهيم الحنيف الذى يجمع اليهود والمسيحيين والمسلمين، فقد كان لهذا التراث الفضل فى تشكيل شخصيتى وتكوين ذاتى. واليوم أقف بينكم واحداً من أولئك الذين ينتمون إلى تلك الأسرة من الأديان التى يربط بينها تراث إبراهيم.

محاضرة ألقاها الأمير تشارلز فى جامعة الأزهر فى ٢١ مارس ٢٠٠٦

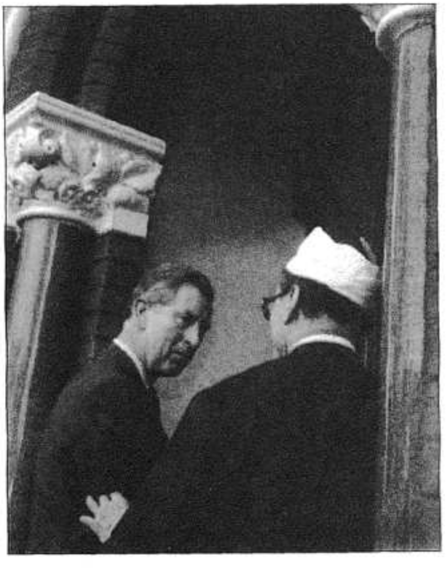
[٢]

إن جذور الإيمان فى أدياننا جذور مشتركة، فكلنا نؤمن بما آمن به إبراهيم بأن الله إله واحد، وهذا ما يسبغ علينا جميعاً قيماً ومُثلاً لا تبلى ولا تزول. علينا أن نتحلى بالشجاعة لنعبر عن هذه القيم ونؤكدها مرة بعد أخرى فى عالم مضطرب بما يشهده من التغيرات والاختلافات. وقبل أى شىء آخر، فإن هذا هو ما أود أن أتركه لكم من حديثى إليكم اليوم. أولاً: وقبل ما عداه، لنتذكر أسمى القيم فى تراثنا المشترك النابعة عن محبة الله، وهى الاحترام الذى يكنه بعضنا لبعض ولكل ما خلقه الله سبحانه وتعالى. فما الاحترام الذى نكنه للخليقة وللبيئة التى نعيش فيها إلا تعبير عن الاحترام الذى نكنه للخالق العظيم الذى أوحى بالوجود كله.

ثانياً: وتباعاً لما سبق، إن معتقداتنا والمبادئ والمُثل التى نؤمن بها تدعو إلى إقامة السلام لا إلى الحرب والخصام، فالإنسان مدفوع بحكم طبيعته إلى أن ينتقد أخاه الإنسان ويتنافس معه، ولكن ما يربط بيننا كمؤمنين بالله يدعونا جميعاً أن نسمو بأنفسنا إلى تبادل الاحترام والتفاهم.

وثالثاً: فإن تراث إبراهيم العظيم يعتبر أن مرسى الأديان هو القلب، وهو خارج حدود إدراكات العقل وأحكامه، فمهما كانت مكانتنا فى المجتمع الإنسانى ومهما كانت الامتيازات أو العوائق التى نجدها فى قدراتنا ومعارفنا فإننا ننظر إلى حقيقة الإيمان بتلك العين البصيرة، أى «عين القلب»، ويذكرنا النبى موسى عليه السلام بأن القلب هو عرش الإيمان إذ يقول: «فتحب الرب إلهك من كل قلبك» (تثنية ٦/٤). وإنى على يقين بأن الأديان السماوية العظمى تخاطب عبر نصوصها المقدسة القلب، فالإيمان بحد ذاته شعور نابع من القلب.

وعلى الرغم من أننى أقدر حق التقدير الروابط التاريخية التى تجمع بين الأديان التى تعود جذورها إلى رسالة النبى إبراهيم عليه السلام، فأنا لا أريدكم أن تظنوا، ولو للحظة واحدة، بأننى أعتبر تلك الأديان كلها متساوية ومتشابهة فى كل الأمور، فهناك فوارق علينا أن نعتز بها ونجلها، ولكن لأدياننا فى الأمور ذات الأهمية القصوى جذوراً مشتركة، وفى نظرى أن غاية الله فى خلقه لا شك فيها ولا ريب، فقد أراد الله لنا أن نتعارف ونتآلف، متحدين رغم تنوع أدياننا واختلاف مذاهبنا. وكم هى مؤثرة فى النفس حقاً تلك الآية القرآنية الكريمة حيث يقول الله تعالى «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير» (سورة الحجرات الآية ١٣).



[٣]

كانت المرة الأولى التى عبرت فيها علناً عن رأيى بالنسبة للعلاقات بين الإسلام والغرب فى عام ١٩٩٣ فى كلمة ألقيتها فى جامعة عظيمة أخرى هى جامعة أكسفورد. وذكرت فى حديثى آنذاك أمراً سبب لى منذ تلك اللحظة كثيراً من القلق والتحسب. فقد قلت فى كلمتى:

إنى على يقين تام بأن على المسئولين رجالاً ونساءً أن يعملوا على إعــادة الاحتــرام المتبادل بين الأديان وأن نجتهد ما وسعنا للقضاء على عوامل ســوء الظـــن وعـــدم الثقـــة اللـــذين يسممان حياة العديد من الناس

«... رغم ما تحقق من تقدم فى التكنولوجيا وفى انتشار الاتصال الجماهيرى فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورغم قيام جماهير غفيرة من الناس بالسفر والترحال واختلاط الأجناس والأعراق، فإن سوء التفاهم بين الإسلام والغرب مازال قائماً، والواقع أنه فى تزايد» (محاضرة «الإسلام والغرب» فى مسرح شيلدونيان، أكسفورد، ٢٧ أكتوبر ١٩٩٣).

والمأساة هى أن السنوات الاثنتى عشرة التى مضت منذ إلقائى ذلك الحديث برهنت على مخاوفى، فقد كانت تلك السنوات فى معظمها مظلمة ظلاماً حالكًا وكئيباً بالنسبة للكثير من الناس، ولا أخفيكم أن قلبى موجع يمتلئ حزنًا وأسى لمشاهد الموت والدمار التى لا نهاية لها. فأنا أدرك تماماً ما يعنيه القتل والدمار، فقد لمست بنفسى فداحة الخطب عندما فقدت خال والدى الحبيب اللورد مونتباتن الذى اغتيل فى العام ١٩٧٩ على يد إرهابيين استخدموا المتفجرات لقتله، فكم هى ملوعة تلك الصور الدامية لمجتمعات تمزقها الصراعات الدينية، من البوسنة إلى بغداد، ومن الشيشان إلى فلسطين، وكل هذه ما هى إلا شواهد على استفحال الخلافات القائمة وتفاقمها، فالعنف الذى كثيراً ما يرتكب غالباً باسم الدين ويبرر به له آثار رهيبة تحجر القلوب وتزيدها قساوة. فما الفائدة التى يمكن أن تجنى من كل ذلك؟

وتناولت فى حديثى تاريخ أوروبا والعالم الإسلامى وكيف ارتبطت أوروبا بالعالم الإسلامى ارتباطًا وثيقًا وكيف جرى التعاطى بين الطرفين عبر القرون المتعاقبة، وتحدثت عن تبادل المنافع بين الطرفين وإسهامهما الكبير فى تشكيل عالم اليوم، وقد أظهر لنا التاريخ الطفرات الهائلة لموهبة الابتكار والإبداع فى مجال المعارف، كالعلوم والآداب والفنون، التى يمكن للبشرية تحقيقها عندما تتضافر قوى أعضاء الأسرة التى رفع قواعدها إبراهيم عليه السلام، وتتعاون فيما بينها، فهل لنا أن نستدر الإلهام من ذلك التفاهم والتفجر الهائل فى العلوم والمعارف إبان عهد العباسيين بين القرنين التاسع والثالث عشر عندما كانت حاضرتهم بغداد مركزًا عالميًا للمعرفة والعلوم، أو نستدر الإلهام من الأندلس فى عصرها الإسلامى بين القرنين العاشر والرابع عشر حين شهدت مدنها من أمثال قرطبة وطليطلة كيف تآزر العلماء المسيحيون والمسلمون واليهود فقادت نشاطاتهم إلى ازدهار عصر النهضة فى أوروبا. وعلينا نحن الذين نعيش فى الغرب أن نتذكر أننا ندين بالكثير لعلماء المسلمين، فقد كان الفضل لهم فى أنهم حافظوا فى العصور المظلمة فى أوروبا على كنوز العلوم والمعارف الرومانية واليونانية القديمة.

ولكننى قلت أيضاً فى حديثى ذاك الذى أشرت إليه، إنه من المؤسف رغم هذا التبادل الغنى فى الآراء والأفكار، أن نجد أناساً عديدين فى الشرق والغرب مافتئوا يكنون تعصباً لا هوادة فيه ولا لين تجاه ثقافة بعضهم البعض، وانعدام الثقة المتبادلة بين الطرفين مايزال قائماً يتمخض عن نتائج رهيبة. وأفكر فى التجربة التى يمر بها المسلمون الذين يعيشون فى أوروبا ويعانون من مظاهر متعددة مستمرة من هوس العداء ضد الإسلام والمسلمين من قبل مواطنيهم من الأوروبيين. وأفكر أيضاً فى المسيحيين الذين يعيشون فى بعض الأمم الإسلامية والذين يجدون أنفسهم وقد كبلتهم قيود صارمة ومهينة، أو قد يتعرضون للإساءة والأذى من قبل بعض إخوانهم من المواطنين، وأفكر أيضاً فى أعمال العنف والإرهاب التى ترتكب فى العالم بصورة تشوه اسم الدين.

إنى على يقين تام بأن على المسئولين رجالاً ونساءً أن يعملوا على إعادة الاحترام المتبادل بين الأديان وأن نجتهد ما وسعنا للقضاء على عوامل سوء الظن وعدم الثقة اللذين يسممان حياة العديد من الناس. ومما يجعل هذا الأمر أكثر صعوبة فى الصور المشوهة للطرف الآخر والسخافات التى تنشرها بعض وسائل الإعلام. وقد حاولت أنا شخصياً وبصورة متواضعة جداً أن أجد الوسائل التى يمكن بها دمج الجماعات المختلفة والاعتزاز بقيم ومُثل الثقافة الإسلامية فى المملكة المتحدة. وسعيت إلى تحقيق ذلك عن طريق نشاطات صندوق الأمير ومؤسستى المعروفة بالبيئة المُعمرة ومدرستى الخاصة بالفنون التقليدية. وآمل أن تصبح هذه البرامج مع نموها وتطورها عبر بلاد أخرى نماذج تحتذى من قبل مجتمعات فى أماكن أخرى. فحتى من خلال أصغر المشاريع والنماذج يمكن إعادة وضع أسس الاحترام المتبادل ومراعاة شعور الغير والتحلى بالآداب والأخلاق. ومن الممكن أحياناً إعادة وضع هذه الأسس من خلال بناء المسكن والمحيط المادى والبيئة الخاصة بالناس. فالمحيط المطلوب هو الذى يساعد على زيادة شعورنا بإنسانيتنا المشتركة عوضاً عن إحساسنا بأننا ملحقات تكنولوجية فيما يحيط بنا من عالم يزداد آلية.

[٤]

لقد كان للتركة التى خلفتها صراعات الأديان وسوء التفاهم فيما بينها دور رئيسى فى التاريخ الفظيع للحرب والعنف. وما أشد انطباق هذا بالطبع على ما خلفه أيضاً «المذهبان العلمانيان» اللذان انتحلا صفة دينية خلت من كل تقديس وهما الشيوعية والفاشية بكل ما تأتى عنهما من دمار وبطش وحشى فعلى مما ينذر بعظيم الويلات والكوارث.

وفى مقدورنا الآن التعرف على رد فعل المجتمعات الإنسانية مع تطورها عبر القرون تجاه هذه التركة. فنجد أن رد الفعل هذا كان من نوعين متميزين: الأول منهما يتمثل فى تمسك البعض بدينه تمسكًا شديداً كمصدر للاستقرار فى حياته. ولا يرى فى الأديان الأخرى عند أى صراع سوى أخطار تهدد وجوده. وأما الثانى فيتمثل فى فقدان الناس هيبتهم للدين وما له من نفوذ غيبى وبعد يتخطى حدود ذواتنا. إنه التخلى عن كل إيمان بالله وتبن للاعتقاد القائل بأن الدين مظهر من مظاهر «التخلف» و«البدائية» و«الزلل». إن عدم احترام الناس للدين يشكل خطراً على إرثنا الدينى وعلى قيمنا الإنسانية العامة وتراثنا الحى. وإذا اقترن هذا الوضع بهوس التشبث بالماديات وبالأمور الدنيوية التافهة، فإن ذلك لا يشكل خطراً على التراث الثقافى لديننا المسيحى وحسب، بل وعلى العالم بأسره.

ففى أوروبا فكر بعض المخلصين من الناس مدفوعين برد فعلهم تجاه الحروب التى بدت لا نهاية لها بين الطوائف المسيحية المختلفة، بأنه لو تم تكوين مجتمعات علمانية حقاً يختفى فيها ما ينسبه الناس إلى الدين من تعصب وعنف وتنطع، وتزول منها الأسباب الكامنة فى أساس الصراعات الدينية، فإن ذلك يعود علينا جميعاً بالخير ويمكننا من التعايش على نحو أفضل، وكان أملهم أن يحل محل النظام الدينى القائم برنامج لتحسين الأوضاع المادية للناس وضمان أمنهم وسلامتهم عن طريق الاكتشافات

التوحـــد فى الإيمـــان

العلمية، وأن يساعد ذلك مسيرة التآلف والتقدم والرفاهية الإنسانية فى المضى قدماً عندئذ دون عراقيل.

وكان من المحتوم ألا تسير الأمور بهذه السهولة، فقد اتضح أن المعرفة العلمية التى جلبت لنا وأغدقت علينا الكثير مما نقدره حق التقدير ونسلم بأنه نعمة من النعم ليست بمثابة الحكمة ذاتها، لأن الحكمة وحدها هى القادرة على أن تكشف لنا تلك الحقائق الشاملة الدائمة التى تكمن فى صميم كل الأديان الكبرى. لكن هذه الحقائق التى وفرت لأسلافنا هيكلاً آمناً لوجودهم وأمدتهم بمجموعة واضحة المعالم من القيم الأخلاقية قد انحجبت اليوم عن كثير من الناس وتلاشت كلياً من حياتهم، وهذه ظاهرة لا تخص الغرب وحده، بل نراها فى كل عرق ينتمى إلى أسرة إبراهيم الروحية.

فلقد كان لما فقدناه آثار عميقة الجذور، فأنا أومن بأن الاعتدال مصدره الحكمة التى انحدرت إلينا من التراث، وأما التطرف فهو استغلال لوضع فقد فيه احترام التراث. ففقدان اليقين المبنى على الإيمان يدفع بالعديد من الناس إلى اللجوء إلى المنطلقات الجديدة التى تأتى كأى معتقد بدائى، لا تتقبل أن تكون موضع السؤال أو التحفظ ولكنها تؤدى إلى أشكال مختلفة من أشكال التطرف.

علينا أن نعود إلى إحياء ما تمتع به العالم الإسلامى فى عصوره الذهبية من عمق وحس مرهف، ورحابة صدر فى التفكر والرؤية واحترام وإجلال للحكمة، فلقد كرم الإسلام اليهود والمسيحيين بأن أطلق عليهم اسم «أهل الكتاب»، لأنهم كالمسلمين يجتمعون على دين كُتب سماوية: القرآن والتوراة والإنجيل. ولعل ما يميز تلك العصور العظيمة من عصور الإيمان كان الإدراك السائد بأنه بالإضافة إلى الكتاب هناك حاجة إلى تفسيره وتبيانه فى علم خاص به يتسم البحث فيه بالدقة والصعوبة، فأدى ذلك إلى وضع أسس علم التفسير وقيام المدارس الكبرى لتدارس الفقه والشريعة.

فبين النص وتفسيره، أى بين معنى كلمة الله الباقية لكل زمان، وما تعنيه لنا فى هذا الزمان، يأتى التفسير، ولقد كان من عظمة الإسلام أن أدرك المؤمنون به هذه الحقيقة إدراكاً عميقاً كما أدركوا ما يواجهونه من تحديات، وأنتم أيها الأفاضل فى هذا الصرح العريق يمكنكم أن تسهموا بمثل هذا ليس بالنسبة للعالم الإسلامى فحسب، بل عن طريق المثل الذى تضربونه بالنسبة لكل الآخرين من أسرة إبراهيم.

فاليوم، وفى أغلب الأحيان، هناك اتجاه بأن النصوص المقدسة يمكن قراءتها دون أن يحتاج ذلك إلى تفسير وتبيين، وكأنما المفروض أن نقرأ تلك النصوص قراءة سطحية، إن مثل هذه القراءة تسىء إلى حقيقة كلمة الله، والإساءة فى فهم كلمة الله تقود فى مآل الأمر إلى الإساءة إلى الإنسان والإساءة إلى العالم.

إذا كنا لا نسمع فى النصوص المقدسة سوى حقائق قاطعة مبسطة، وإذا كنا لا نرى فى رحاب الله الواسعة ذات الألوان سوى الأبيض والأسود، نكون عندئذ قد شطرنا الإنسانية إلى شطرين مبسطين مضادين هما: أهل الخير، وأهل الشر، أهل التقى وأهل الشطط، ونحن وأعداؤنا. وهذا ما يقود إلى الحقد والكراهية والعنف. وبهذا نفقد المبدأ الوحيد الذى لا يعلى عليه والذى يجمع الأديان التى تكون أسرة إبراهيم الروحية، وهو المبدأ الذى عبرت عنه التوراة بالقول: «... بل تُحب قريبك كنفسك» (اللاويين ١٨/١٩)، ثم الإنجيل بقوله: «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم» (إنجيل متى، إصحاح ١/٧) وفى الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» (حديث شريف).

[٥]

إذا كان لنا أن نلتزم بطاعة هذه التعاليم لضمان الاستمرار فى إسماع صوت الاعتدال والعمل على مجابهة التطرف والتصدى له، فماذا يمكن لمفاهيمنا عن الله سبحانه وتعالى، وهى المفاهيم الكامنة فى صميم دياناتنا، لتساعدنا وتمدنا بالعون لتحقيق هذا الغرض؟ إنه أولاً: لا شك فى أن الله تعالى لا يريد لنا أن يقتل بعضنا بعضاً، وهذا ما تأمر به أدياننا جميعها. ثانياً: فى هذا العالم التجريدى المادى الذى يضيع فيه المعنى الروحانى، ألا ينبغى أن يتحد الذين يتشاطرون الإيمان ويتخطون الذات ويسمون على الأنانية والشهوات ويترفعون عن عبادة العلم للعلم ذاته، أولئك الذين يؤمنون بوجود كون شامل متكامل يوازن بين العقل والجسد والروح، أى بين الفكر والضمير عبر إدراك شامل لذلك النظام الذى أراده الرحمن للعالم هبة مستورة من لدنه ومحبة من عنده ليكرم به خليقته؟ ألم يعد مؤكداً أن علينا أن نتحد معاً بناء على ما يجمعنا من المبادئ المشتركة فى أدياننا؟ أفلا ينبغى للحكمة التى سبق وأشرت إليها أن تنبهنا إلى أنه يجب علينا أن نعمل متحدين على أساس معتقداتنا المشتركة للتصدى لأعظم أزمة بيئية يمكن تصورها والتى تهدد العالم بأسره، وأن نفعل ذلك دون أن نقاتل بعضنا بعضاً أو نتجادل فى أمور تافهة لا طائل تحتها؟ ثم ما الذى يمكن أن نتعلمه من الإسلام ليساعدنا على العودة إلى الاندماج اندماجاً سليماً مع الطبيعة التى أبدعها الخالق العظيم؟ أفلا نستطيع أن نتبين الحاجة الملحة لدمج عبقرية الشرق البدهية وعبقرية الغرب الواقعية قبل فوات الأوان؟

إن التشديد على احترام بعضنا البعض هو فى صميم تعاليم أدياننا كلها. وهذه المسألة أهم شأناً من أن تكون مسألة جدل سياسى حول حقوق الأقليات، فالمسلمون والمسيحيون واليهود متفقون فى الإيمان بكرامة الإنسان وقيمته. فكل إنسان منا فريد بذاته وذو قدر فريد عند الله. ونحن عندما نتعرف على أنفسنا وندرك وهننا ونقاط ضعفنا نستطيع أن نتبين أهمية تفهمنا للآخرين ورؤية وجهة نظر الغير.

إن احترام الغير، واحترام ما يعتز به الآخرون، بمعنى آخر، إن السلوك الحميد والأدب ودماثة الخلق وحسن الاستماع إلى الرأى الآخر، كل هذه المزايا تضمن وتؤمن احترام القيم والمبادئ. وقد برهنت الأزمة الرهيبة مؤخراً وما صاحب ذلك من انفجار الغضب العارم بسبب الصور الكاريكاتورية الدنماركية على مدى الخطر الذى يتأتى عن إخفاقنا فى الاستماع إلى الآخرين وفى احترام ما هو عزيز على الغير ومقدس عنده. فالسمة المميزة لأى مجتمع متحضر، فى رأيى، هى ما تجزيه من احترام للأقليات والغرباء، وإكرام الضيف وحسن استقبال الغرباء وعابرى السبيل من مسافرين عنصر يعتز به حقاً فى الحضارة العربية. ونحن فى بريطانيا بذلنا جهداً كبيراً للترحيب باتباع الديانات الأخرى وفى تمكينهم من المحافظة على هوياتهم الفريدة وتكيفهم فى الوقت ذاته مع الثقافة البريطانية، وهناك الآن أكثر من مليون ونصف المليون مسلم بريطانى، يثرون المجتمع البريطانى ويغنونه بطرق عديدة، كما أننى على يقين بأن الأقليات المسيحية هى أيضاً تُثرى مجتمعاتها الإسلامية وتغنيها بأساليب شتى.

ونحن كأهل الإيمان نعلم أيضاً أن روح الإنسان تعود إلى بارئها، إلى أفق الحياة الخالدة، وندرك بالحدس والبديهة أننا كثيراً ما نركز اهتمامنا على العالم الظاهرى الذى غالباً ما يستبعد ما لا يمكن قياسه ووزنه. ولذا يسقط من الحسبان ما لا يقاس أو يكال ويوزن. ولكن كيف يتسنى لنا أن نقيس ونزن الإيمان أو الجمال أو الولاء أو الفرح، أو حتى كيف يكون لنا أن نقيس المحبة ونكيلها، وكل الأمور التى تجعل الحياة جديرة بالعيش وتساعد على تحديد جوهر إنسانيتنا؟ ألا تشكل هذه السجايا حقيقة روحية داخل نفوسنا؟ وعندما نتحدث عن الحقيقة الكامنة فى داخل الإنسان فإن ما نقصده فى الواقع هو ذلك

البعد الذى وراء المادة ويتخطى حدودها. وبمعنى آخر نتحدث مرة أخرى عن القلب. نتحدث مجازًا عن الفؤاد كمنبع للرحمة والتراحم، أى «المحبة» التى وردت على لسان القديس بولس فى إحدى تراجم الإنجيل (الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح ١٣)، والمحبة عند المسيحيين غاية الفضيلة.

وعندما تواجهنا مشكلات التفاهم بين الأديان والثقافات، أليس ما نفتقده بالذات هو ذلك الشعور القلبى المتسم بالاعتدال والتسامح؟ إنه ذلك الإحساس الذى يمكننا جميعًا أن نتقاسمه. ويذكرنا به أدباؤنا العظام من أهل الرؤية والفكر فيما كتبوه وفى المثل الذى ضربوه. ألم ينصحنا هؤلاء العظام من أصحاب الحكمة الخالدة، رجالاً ونساءً، من أمثال جوليانا راهبة نوريتش والحَبْر اسحاق لوريا والإمام محمد إدريس الشافعى - ألم ينصحنا هؤلاء بضرورة أن نعادل تصرفاتنا العدوانية السطحية بسلوك لطيف تأملى، أى التحول عن منطقة الرأس والعقل إلى مجال القلب حيث توجد طيبة إنسانيتنا المشتركة وخيرتها؟

واسمحوا لى بأن أوضح أن ما أعنيه ليس الانكفاء إلى التأمل الانطوائى، وإنما هو وصفة لتفاهم ناشط فعال فى تعاملنا مع الآخرين. ونحن فوق كل هذا نشترك فى الإرث التقليدى القائم على الوحى الذى شكل أساس أدياننا. ولعل ما يدعو إلى الاهتمام أن العلم بدأ يكتشف النظام والانسجام المتأصلين فى الطبيعة، وهو أمر تكشف للقدامى منذ آلاف السنين. وهذا لا شك مؤشر ينم عن حقيقة أساسية تتعلق بنمط الحياة فى داخل نفوسنا، إنه نمط سر الله الغامض للعالم الظاهر.

[٦]

اعتقد أن علينا واجبًا مشتركًا بالنسبة للتعبير عن المبادئ التى تقوم عليها معتقداتنا الدينية، كما اعتقد أن علينا أن نحافظ على سلامة كل دين من أدياننا الإسلامية والمسيحية واليهودية، ونعترف بتنوعنا الغنى ونحترمه فهو فى نهاية المطاف ضماننا الوحيد ضد سيطرة ثقافة عالمية موحدة أحادية الثقافة سواء دينية كانت أو علمانية.

ولكى ندافع عن عالم الروح ضد المادية الدنيوية وعن الكرامة الرفيعة لكل منا ضد التطرف وعبادة الذات، يجب علينا أن نرعى ونشجع ونفعل كل ما يترجم الصفات الإلهية المتمثلة فى التراحم والتعاطف.

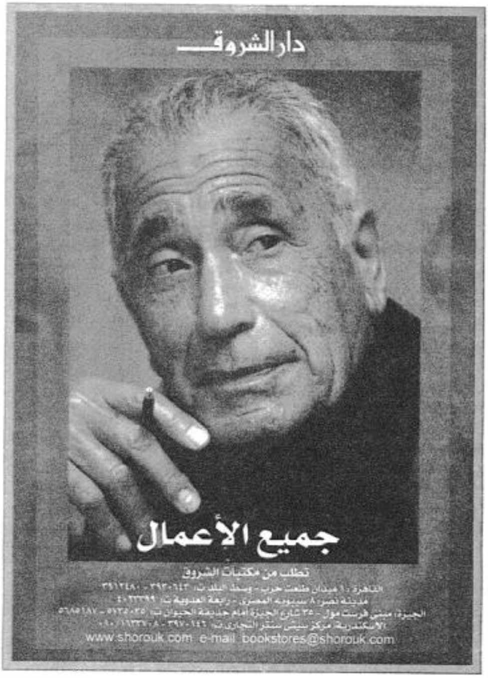
وهذا بحد ذاته يدعو إلى الروية والهدوء وضبط النفس، وهو، إن جاز لى القول، يتطلب من كل ذوى النفوذ فى أدياننا المختلفة إسداء الموعظة وإيضاح قيمة تلك الصفات والمزايا الإلهية للآخرين.

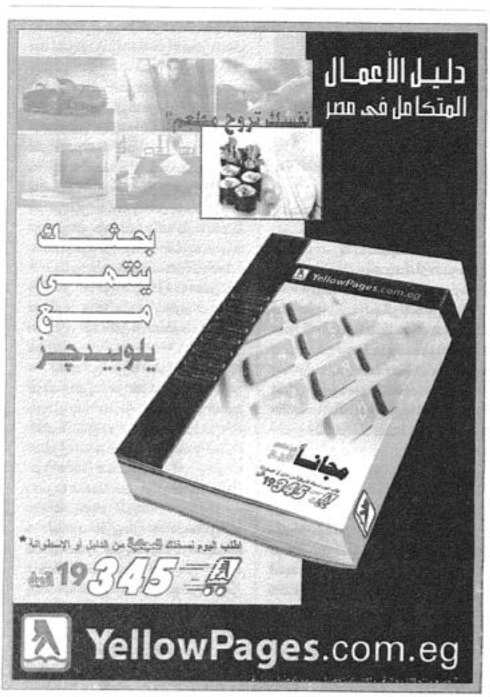
قال الملك سليمان بن داود قبل نحو ثلاثة آلاف سنة: «بلا رؤية يجمح الشعب» (أمثال ٢٩/١٨) وإننى لأتطلع بشوق إلى عالم نشترك فيه برؤية تعترف بما بيننا من فوارق وتحترمها وتتفهمها، عالم نرى فيه أنه لا يمكن، ولا ينبغى لنا، أن نسىء إلى أدياننا العظيمة وتعاليمها باتخاذها سلاحًا نخدم به مصالح أية سلطة دنيوية تتسم بالأنانية وحب الذات.

لا يخالجنى أى وهم بالنسبة لصعوبة أداء هذه المهمة، لكننى أعتقد أنها مهمة يتحتم علينا أن نضطلع بها، ونأخذها معًا على عواتقنا وننجزها اليوم قبل أى وقت آخر. فليس هناك من سبيل آخر للحفاظ على روح القيم والمبادئ التى نعتز بها فى أدياننا أيما الاعتزاز.

ولذا فإن علينا أن نتعاون فى إيجاد عالم تُثرى فيه ثمار الإيمان، بما توحيه من تفاهم وتسامح وتعاطف، عالم أبنائنا وأبناء أبنائنا ونحافظ على أمنه وسلامته.

ويجب ألا ندع هذه الفرصة تفوتنا دون أن نلبى هذا النداء فى عصر يتطلب منا بذل جهود مخلصة للعيش معًا فى سلام. ■





تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكـر الناشـرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك، وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

بالعربى الجريح

محمود عوض

القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦، ٣٦٨صفحة



عشرات المقالات، من الحب إلى الحرب إلى السياسة إلى العنف وأحوال المجتمع والناس، هى بعض ما كتبه المؤلف لمجلة الشباب الشهرية على مدى سنوات، فهو مرة يعلق على هذا الاهتمام الشعبى الجارف - بفعل الإلحاح الإعلامى وبقوة التليفزيون - بمسلسل «الجرىء والجميلات»، وهو مسلسل أمريكى شغل المصريين لشهور طوال بحلقاته المتتابعة وفتياته الحسناوات وعلاقاته المحرمة وإعلانه المقصود لقيم الفردية والسيطرة والقوة بصرف النظر عن الوسائل، وفى الوقت ذاته كان التليفزيون المصرى يعرض المسلسل اليابانى «أوشين»، الذى كان على النقيض، يعرض حالة من الفقر المدقع والسعى الكادح لتحصيل الرزق وتحقيق الثروة وإنما فى إطار عمل جماعى وارتباط بالمجتمع. منظومتان من القيم جد مختلفتين تابعهما الناس وعلق المؤلف على تأثيراتهما معا.

يكتب أيضا عن عبدالحليم حافظ والصداقة التى جمعت بين الاثنين، وكيف ولد من بين أصابعه وداخل عقله، المسلسل الإذاعى الوحيد الذى مثله عبدالحليم حافظ وأذيع فى الإذاعة المصرية «أرجوك لا تفهمنى بسرعة»، وكيف كان عبدالحليم يواصل أداء دوره فى الوقت الذى كان ينفعل ويتفاعل مع ما يجرى فى حرب أكتوبر ورغبته فى أن يقدم عملاً يليق بالمناسبة.

يكتب عن أمريكا التى منذ البداية عرفت ما تريده من المنطقة، ويحلل حوارا دار بين الملك السعودى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية والرئيس الأمريكى، إنه البترول، أما إسرائيل ووجودها والصراع حول الأرض فتلك مسألة أخرى مهمة بقدر ما تحافظ على سير ناقلات البترول عبر المحيط إلى أمريكا.

مقالات أخرى عن عبد الوهاب وسعاد حسنى اللذين اقترب منهما المؤلف بدرجة كافية سمحت بكشف كثير من الخبايا والسمات الشخصية التى تغيب عن متابعى إبداعهما على الشاشة أو عبر الأثير، كيف يعانيان، ما الذى يؤلمهما، ساعات الأرق الطوال حتى يصل المنتج الإبداعى فى نهاية المطاف إلى المشاهد أو المستمع.

هناك أيضا حديث عن أحمد زويل والطريق إلى نوبل، وتعدد اهتماماته بالرغم من جهوده العلمية التى استغرقت سنوات طوالا حتى حصوله على أرفع جائزة علمية فى العالم، وعشقه لصوت أم كلثوم والموسيقى العربية رغم اغترابه وعيشه فى بلاد الجاز والصخب الذى لا ينتهى.

مقالات عن حرب أكتوبر وحرب الاستنزاف والنكسة والسلام المستحيل، وأخرى يمكن تصنيفها ضمن أدب الرحلات الرفيع، وثالثة تناقش هموما مصرية ضاغطة كظاهرة الدروس الخصوصية وتأثيرها على كل بيت.

سياحة ثقافية وفكرية ضمتها عشرات المقالات تغطى نحو ٦ سنوات من عمر المجلة الشابة.

■

نحو إقامة مجتمع المعرفة

إبراهيم قويدر

بنغازى: دار الكتب الوطنية، ٢٠٠٦، ٢٥٦صفحة



لا يبدو مجتمع المعرفة خيارًا يمكن التعاطى معه بالقبول أو بالرفض فى المجتمع العربى، المسألة صارت أعقد كثيرا، مجتمع المعرفة بالنسبة للعرب قضية حياة أو موت. والحقيقة أن الدراسات المتاحة بينت كيف أن ما تنفقه إسرائيل مثلاً على البحث العلمى يتجاوز ما تنفقه الدول العربية جميعها. وكيف أن عدد علمائها فى تخصصات علمية معينة يتجاوز - قياساً بعدد السكان - ما تفرزه الدول العربية كلها، هذا فضلاً عن حالة الأكاديميات العلمية هنا وهناك، ومقارنات أخرى جميعها لا تصب فى مصلحة العرب.

هذا الكتاب يطلق صيحة تحذير، وهو يبدأ من المخاطر التى ينبه إليها تقرير التنمية البشرية الذى اعتبر أن التعليم وإقامة مجتمع المعرفة فى الوطن العربى لهما أولوية قصوى، خصوصاً مع ارتفاع نسبة الأمية وتردى مستوى التعليم بدرجة لافتة فى مستوياته المختلفة. ولأن المؤلف هو المدير العام لمنظمة العمل العربية، فقد جاءت دراساته وثيقة الصلة بسوق العمل العربى أو سعى هو إلى تطبيقها على هذا الواقع لتكتسب درجة أعلى من المصداقية.

يقع الكتاب فى ستة فصول وكتب التقديم له الأمين العام لجامعة الدول العربية عمرو موسى.

■

الجماعات العربية فى أفريقيا

عبدالسلام بغدادى

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٨٠٨ صفحات



موضوع الكتاب مركب وثنائى، فهو لا يبحث فى الجاليات والأقليات العربية فى أفريقيا - جنوب الصحراء، وحصرا فى الدول الأفريقية غير الأعضاء فى جامعة الدول العربية.

وعلى الرغم من أن الوجود الاغترابى العربى قد حقق حضورا اقتصاديا وتميزا ثقافيا، وساهم فى تكوين تاريخ أفريقيا وحاضرها الراهن، إلا أن هذا الحضور قد عانى فى الماضى، ويعانى اليوم فى أفريقيا مشكلات وأخطارا وتحديات جمة، بعضها يرتبط بالبيئة المحلية الأفريقية، فيما يرتبط بعضها الآخر بالبيئة الدولية.

ويقدم الكتاب معلومات موثقة عن هذه الجماعات تقدم للمرة الأولى فى كتاب جامع، يبحث عن مشكلات الاندماج فى المجتمع المحلى الجديد، كما يحلل علاقات هذه الجماعات بالوطن الأم.

■

السيميائية وفلسفة اللغة

امبرتو ايكو

ترجمة: أحمد الصمعى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٥١٠ صفحات



صدر هذا الكتاب لأول مرة سنة ١٩٨٤ متناولاً جملة من التصورات المهمة التى شغلت بال المفكرين فى فلسفة اللغة وفى السيميائية: العلامة والاستعارة والرمز والسنن والمقابلة بين القاموس والموسوعة، وهى مقابلة مركزية فى الكثير من النقاشات بخصوص علم الدلالة والمعجمية والذكاء الاصطناعى والأنظمة السيميائية.

وقد مثلت هذه الإشكاليات الناتجة عنها موضوع فلسفة اللغة، انطلاقًا من افلاطون وأرسطو، وصولاً إلى مفكرى القرن العشرين. ويقوم المؤلف فى كل باب من الأبواب الخمسة التى يتكون منها هذا الكتاب برحلة فى تاريخ هذه الإشكاليات، بحثًا عن المحطات المهمة التى مر بها الفكر الإنسانى فى فلسفة اللغة عبر القرون.

والنظرة التاريخية التى تتخلل هذا الكتاب ليست مجرد سرد لما قاله القدامى كما أنها ليست مكملة لخطاب يريد متابعة الأبحاث فى هذه المسائل، بل إن المراد بها هو حل الكثير من المعضلات بالرجوع إلى اللحظة التى نشأ فيها هذا التصور أو ذاك.

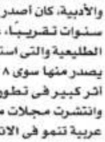
هذه النظرة التاريخية تلخص أهم ما قيل بخصوص العلاقة والرمز والسنن والقاموس والموسوعة، إضافة إلى الإسهامات المهمة التى قدمها إيكو قبل ذلك فى كتابيه «دراسة فى السيميائية» و«القارئ فى الحكاية».

■

مواجهة المستحيل

إدوار الخراط

القاهرة: دار البستانى للنشر، ٢٠٠٥



مثلت تجربة «جاليرى ٦٨» انعطافة مهمة فى مسيرة إدوار الخراط الفكرية والأدبية، كان أصدر كتابه الأول قبلها بـ ٨ سنوات تقريبًا، غير أن هذه المجلة الطليعية والتى استمرت ثلاث سنوات ولم يصدر منها سوى ٨ أعداد فقط، كان لها أثر كبير فى تطور الحياة الثقافية، وانتشرت مجلات مشابهة فى عدة دول عربية تنمو فى الاتجاه ذاته، لكن تجارب إدوار الخراط وبين أيدينا جزؤها الثانى «مواجهة المستحيل» بعد الأول «مجالدة المستحيل» يتداخل فيها إلى حد الاستحالة، الذاتى بالموضوعى، دخوله السجن فى أيام الملكية عام ١٩٤٨، وترجمته لمسرحية «فى الحضيض» لجوركى التى تم تمثيلها داخل السجن، وعلاقته بالأدب الروسى والفرنسى والإنجليزى فى الوقت

ذاته الذى كان يستعد لإصدار كتابه الأول حيطان عالية.

انشغاله بالأفكار الاشتراكية وأحوال الفقراء والطبقة العاملة. وهى الأفكار التى كانت سائدة فى الخمسينيات والستينيات، وانشغاله كذلك بما كان يعرف آنذاك بالنقد الواقعى، واعتباره النقد تجربة إبداعية وليس مجرد دراسة أكاديمية تتلفح برداء الموضوعية.

فى مجالدة المستحيل يبدو البحر والإسكندرية والفصول والميلاد فى الصعيد وتجارب الكتابة الأولى وعشق السفر والمغامرة عناوين كبرى للسيرة الذاتية، إضافة طبعاً إلى آراء فى الفن والحياة، فيما تغلب فى «مواجهة المستحيل» الهموم العامة فى الكون وفى الواقع الاقتصادى والسياسى والثقافى المصرى والعربى، وهى فى معظمها تستند إلى حوارات صحفية أجريت مع المؤلف على مدى سنوات، تأملات فى الأصالة الثقافية والهوية الوطنية والتنوير والالتزام فى الأدب والقيم الجمالية فى الفن والحداثة فى الرواية العربية والتجريب والتجديد فى التراث، ثمة تساؤلات أخرى عن الشبقية وكتابة الجسد وعن كتابة التسعينيات ودور الكنيسة الوطنى، وغيرها كثير، فضلاً عن شهادات عن الراحلين على الراعى وعبدالحكيم قاسم ويحيى الطاهر عبدالله، وكذلك عن أدونيس، مقاطع الخراط من سيرته الذاتية هى فى جانب منها سيرة للإبداع الفكرى والزخم الثقافى والسياسى المصرى والعربى لأكثر من ستين عاماً خلت.

■

أحبك حتى البكاء

فاروق شوشة

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٦، ١١٢ صفحة



بعد ثلاث عشرة مجموعة، هذه هى المجموعة الشعرية الرابعة عشرة لشاعر من حراس اللغة العربية، فصاحب البرنامج الإذاعى الأشهر فى الإذاعة المصرية «لغتنا الجميلة»، مع حرصه على لغة الضاد وجهوده فى هذا الإطار مثقفاً وإذاعياً وباحثاً وشاعراً، لم يتخل أبداً عن التجريب فى اللغة وإيقاعاتها، ولم يرفض تياراً جديداً، بل تجاوب مع كل آت دون أن تشطح به المغامرة إلى حد التجديف.

وهذا الديوان إلى ما فيه من قصائد عاطفية، رومانسية الطابع واللغة (يتم - أحبك حتى البكاء - ثلاثة وجوه لثلاث نساء) يحاور اللغة فى قصيدة (لغة)، ويشتبك مع الواقع بتحولاته الاجتماعية الصادمة الإحساس شاعر يراقب ويحلم بغد آخر (وحيد كحبة رمل - شجون عام جديد) وقصائد أخرى ذات طبيعة سياسية وفكرية (خَدَم - شبيه زماننا - رهان - كلهم يعرف نفسه).

من أجواء الديوان (قصيدة خدم):

خدم/ خدم/ وإن تبهنسوا/ وصعّروا الخدود كلما مشوا/ وغلّظوا الصوتَ/ فزلزلوا الأرض/ وطرقعوا القدم/ خدم/ خدم/ وإن تباهوا أنهم/ أهل الكتاب والقلم/ وأنهم - فى حلكة الليل البهيم/ صانعو النور/ وكاشفو الظُّلَم/ وأنهم - بدونهم -/ لا تصلح الدنيا/ ولا تفاخر الأمم/ ولا يعاد خلق الكون كله/ من العدم/ لكنهم خدم/ بإصبع واحدة/ يستنفرون مثل قطعان الغنم/ ويهطعون علهم يلقون/ من بعض الهبات والنعم/ لهم، إذا تحركوا/ فى كل موقع صنم/ يكبرون أو يهللون حوله/ يسبحون باسمه، ويقسمون/ يسجدون/ يركعون/ يمضون فى رياء زائف/ وفى ولاء متهم.

■

دور النخبة القانونية فى تأسيس الدولة العراقية

عبدالحسين الرفيعى

بيروت: دار الرافدين، ٢٠٠٥، ٣٧٧صفحة



شهد العراق فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين تبدلات حادة عميقة، بدأت فى العام ١٩٠٨ بحركة الاتحاديين ومحاولاتهم تغيير اتجاهات ومسارات الدولة العثمانية، وحين قامت الحرب العالمية الأولى، دخلت الدولة العثمانية طرفاً إلى جانب دول الوسط مما فتح الطريق أمام الأطماع الاستعمارية فى الدول الخاضعة للإمبراطورية الآفلة، وبدأ صراع بين إنجلترا وفرنسا على العراق، ونزلت القوات البريطانية إلى العراق واحتلته وفرضت عليه حكماً عسكرياً، واستنفر الاحتلال قدرات الشعب العراقى وبقية النخب، وفى مقدمتها النخب الدينية تطلعاً نحو الاستقلال.

وفى إطار هذه التطورات زاد الوعى السياسى والفكرى، وكان لمدرسة الحقوق فى بغداد دور بارز فى تدعيم فكرة الوطنية والنزوع نحو الاستقلال، وقد حاول الإنجليز غلقها بأساليب شتى للقضاء على دورها الوطنى، كما حاول ذلك الملك فيصل الأول لإجهاض تمرد طلاب الحقوق بين عامى ١٩٢٤ و١٩٢٧، خصوصاً وقد بدأوا يتحركون داخل أروقة السلطة التشريعية لحملها على رفض المعاهدات الاستعمارية.

وكثيرون من أبناء مدرسة الحقوق تبوأوا مناصب مهمة فى الدولة تحت الانتداب، وكان منهم الوزراء ورؤساء الحكومات فى الكيان العراقى الجديد، وكانت لهم مساهمات بارزة فى مجال التشريع والقضاء وترسيخ فكرة النظام والقانون، دون أن ينفى ذلك وجود آخرين عملوا لأهدافهم الشخصية وكسروا رقبة القانون نزولاً على رغبة قادتهم السياسيين وطموحاتهم فى النفوذ والسلطة.

ويشير المؤلف فى إطار تتبعه لمسارات النخبة القانونية فى العراق إلى ملاحظة مهمة، وهى أن مدرسة الحقوق ظلت فى بغداد، وبقى لهذه المحافظة الحصة الكبيرة من خريجيها، وبقى قليلون من أبناء المحافظات غير قادرين على الدراسة فيها، وهو ما خلق فراغاً عانى منه الكيان العدلى بعد تأسيسه.

هذه الدراسة - وهى فى الأصل رسالة ماجستير - تحفل بالدور الذى لعبته النخبة القانونية فى تأسيس الدولة العراقية من ١٩٠٨ وحتى ١٩٣٢.

■

العلاج النفسى بين الشرق والغرب

آلان واطس

ترجمة: ثائر أديب

دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥، ٢٠٨صفحات



لم يحاول أحد حتى الآن أن يكشف على نحو شامل عن مخطط أساسى مشترك بين طرائق العلاج النفسى وغاياته وبين تعاليم البوذية واليوجا وغيرهما، وعلى الرغم من أن هذه التعاليم قد لا تكون علاجات نفسية بالمعنى الدقيق، إلا أنها متضمنة فى هذه العلاجات أو بعضها مستند إليها حتى وإن دون وعى، وبدأ علماء النفس الغربيون يبحثون عن حرية الروح فى حكمة الشرق ودياناته، وشهدت العقود الأخيرة اهتماماً غربياً بطرائق الحياة الشرقية، غير أن ذلك لا يعنى أن العلاج النفسى الحديث يستند فحسب على ما يرد من الشرق، وإنما من هذا التلاقح المثمر بين حكمة الشرق وحكمة الغرب، ومن ثم فالفلسفة التى يستنبطها هذا الكتاب تنظر إلى الكون بوصفه كوناً عضوياً ومترابطاً، ولهذا فهو يقيم وزناً كبيراً لصلة التعاليم الشرقية بأشكال العلاج النفسى ذات الفلسفة الاجتماعية الخاصة بالعلاقات الاجتماعية والاتصالية، وقد أضحت هذه الفلسفة بقعة خلفية للطب النفسى الغربى.

وقد استفاد المؤلف فى تحليله هنا من نقاشاته مع أشخاص منخرطين فى العلاج النفسى على نحو فاعل ونشيط، وإقامة ملفات دراسية حول موضوع الكتاب، ومحاضراته فى كليات الطب ومعاهد الطب النفسى. وقد مثلت كل هذه المصادر حصيلة الاستنتاجات التى انتهى إليها المؤلف.

■

وردة أم قنبلة؟

إعادة تكوين سوريا

محمد كامل الخطيب

دمشق: المؤلف، ٢٠٠٦، ١٠٠ صفحة



تقوم المجتمعات على روابط معينة تتغير بتغير الظروف والأحوال، هذه الروابط قد تكون قبلية أو طائفية أو عقائدية، والروابط هى هويات واقعية بقدر ما هى متخيلة ومؤقتة بقدر ما هى قديمة، وبعض الهويات يختارها الفرد وبعضها يكون مفروضاً عليه، وبقدر ما، وفى عالمنا المعاصر، يزداد الميل نحو الهويات المختارة على حساب الهويات المفروضة، وهكذا تخترع الهويات القومية بديلاً عن الدينية، أو الشيوعية بديلاً عن القومية، أو الرأسمالية بديلاً عن الشيوعية وهكذا. وحينما يتصل بسوريا، فقد قام الكيان السورى بعد تكوين عدة دول من بقايا التركة العثمانية على أساس الرابط القومى العربى وليس الرابط الدينى، وهو ما أتاح إدماج التعدد الطائفى والدينى فى هذا الكيان الجديد، ولهذا بقى الفكر القومى قوياً ونشيطاً فى سوريا، برغم عدم حماس البعض للفكرة، وبهذا المنطق يرى المؤلف أن الدعوة إلى برنامج سياسى يقوم أساساً على رابط دينى إسلامى، هو عودة إلى ما قبل العقد القومى الوطنى الثقافى، وهو التوافق الذى قام عليه الكيان السورى، بما يهدد بتفتيت هذا الكيان فى حالة توظيف الدين فى السياسة.

وبرأى المؤلف فإن الاستبداد الدينى أو القومى أو الطائفى أكثر خطراً من الاستبداد العسكرى الحزبى، فالنوع الأخير لا يتدخل فى شئون الإنسان الحياتية اليومية، ويكاد يكون مرهوناً برحيل الطغمة العسكرية أو الحزبية الحاكمة، وهى المخاوف التى يبررها ما جرى فى سوريا الثمانينيات، حين تحولت المعارضة السياسية إلى معارضة دينية،

وتشكيل جمعيات ومجتمعات طائفية، بما يؤدى إلى مزيد من التوترات والتعقيدات وربما الفوضى والحرب الأهلية والإقليمية.

لهذا كله يقف المؤلف فى الخندق الرافض لخيار الدولة الدينية ومشروعها، ويدعو إلى مقاومة هذا الخيار فى سوريا فى إطار إعادة تكوين الدولة والذى يطالب بأن يجرى على أساس عقلانى علمانى ديمقراطى مدنى.

■

محرقة اليهود

معسكر اعتقال أو شوتيز - بيركينو

رمسيس عوض

القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٥، ٣٢٣صفحة



ليس أكثر من محرقة اليهود إثارة للجدل بين وقائع التاريخ المعاصر، وما أن يقترب منها مفكر أو مؤرخ أياً كان موقعه ومهما كانت قيمته، حتى تقوم الدنيا ولا تقعد. وفى كثير من دول أوروبا وأمريكا طبعاً، ثمة قوانين تجرم التشكيك فى الواقعة وعدد ضحاياها كما يرويها اليهود أنفسهم، ولعلنا نذكر ما أصاب المفكر والفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى، حين تجرأ أو هبط بالضحايا من ستة ملايين إلى أقل من مليون يهودى، وحين قال إن كثيرين فى أوروبا كانوا ضحايا للنازى وواجهوا عمليات تصفية أقسى وأشرس من تلك التى واجهها اليهود كالبولنديين مثلاً، على الرغم من أنه لم يشكك فى الواقعة تاريخياً إنما سعى إلى تشذيبها وتخليصها من المبالغات فحسب. المؤلف الذى سبق له أن أصدر كتاباً فى الموضوع تحت عنوان «الهولوكوست بين الإنكار والتأييد»، يتناول هنا معسكر الاعتقال الشهير فى بولندا والمعروف باسم «أوشوتيز»، والذى كان مجرد ثكنات للجيش الألمانى، ثم تم تحويله إلى معسكر للاعتقال، كان معسكراً للاستعباد والسخرية فى الفترات التى اشتدت فيها حاجة النازيين إلى عمال، وتنازعت النازى رغبتان مع وصول أعداد كبيرة من اليهود إلى المعسكر والرغبة فى إبادتهم نهائياً والرغبة فى تسخيرهم لإنجاز أعمال معينة.

وقد بدئ فى إنشاء هذا المعسكر فى العام ١٩٤٠، وحررته القوات السوفيتية بعد دخولها بولندا فى يناير ١٩٤٥، وبلغ عدد المعتقلين به آنذاك ٤٠٥ آلاف سجين من جميع الجنسيات، إضافة إلى ٢٠٠ ألف لقوا حتفهم دون وجود أية وثائق تثبت هوياتهم، ضم هذا المعسكر نحو ٤٠ معسكراً عملت فى أنشطة اقتصادية عديدة.

ولم يكن هذا المعسكر يتميز عن سواه بالوحشية، بل ترجع وحشيته أساساً إلى قيام النازيين فى معسكر بيركنو القريب منه باستحداث آلية للقتل الجماعى، واختاره هتلر كى يكون مركزاً للإبادة الجماعية.

يحكى هذا الكتاب عن واحدة من تجارب الحياة القاسية التى عاشها معتقلون من السياسيين والمثقفين والمعارضين للنازى، وأيضاً من معتادى الإجرام ومن اليهود وكيف كانت الحياة بداخله، كيف تعامل المعتقلون مع ظروف اعتقالهم، كيف كانوا يقضون أيامهم فى هذه المعسكرات الرهيبة، معاناة ضمت بشراً من جميع الجنسيات والأديان. ولم تقتصر على اليهود وحدهم.

■

موسكو ١٩٣٧

ليون فيخْتفانجر

ترجمة: عدنان جاموس

دمشق: دار الطليعة، ٢٠٠٥، ١٢٧صفحة



فى عام ١٩٣٣ صنف النازيون المؤلف بوصفه العدو الأسوأ للشعب الألمانى، نزعوا عنه جنسيته وصودرت ممتلكاته فى برلين فلجأ إلى سنارى جنوب فرنسا. بعدها بسنوات أربع سافر إلى موسكو بهدف الدفاع عن المتهمين فى المحاكمات ضد النازى وظهر عمله هذا فى أمستردام، وكان ليون مقرباً من ستالين وناصر موقفه فى مواجهة أعدائه خصوصاً من التروتسكيين، وفى ضوء هذه الاعتبارات يمكن فهم كتابه هذا الذى رأى فى الاتحاد السوفيتى وجهين: وجهاً فى ميدان النضال، صارماً وقاسياً يكتسح أى عارض، وآخر فى مجال البناء تتجلى فيه - بحسب قوله - الديمقراطية وينتقد ليون سلوك كثير من المثقفين الغربيين تجاه الاتحاد السوفيتى ويتهمه بقصر النظر وعدم اللياقة، وعدم القدرة على «رؤية النجاحات التاريخية ذات الأبعاد العالمية التى أحرزها الاتحاد السوفيتى».

وفى سعيه لتجميل صورة الاتحاد السوفيتى، رأى ليون استحالة بناء الاقتصاد الاشتراكى دون إدخال تعديلات على الديمقراطية، ويضع المعادلة على هذا النحو: إما أن تقل كميات اللحم والخبز والزبدة المتاحة للجماهير ويتاح قدر أكبر من حرية الكلام، أو أن يقل القدر المتاح من الكلام وتزيد كميات اللحم والخبز والزبدة المتاحة للجماهير، ويعيب على الحضارة الغربية «هذا الجو الخانق الذى تشيعه الديمقراطية الكاذبة»، فى مقابل ما يعتبره أجواء الهواء النقى فى الاتحاد السوفيتى حيث تسود مبادئ السلوك الأخلاقى العقلانية، ووفق هذه العقلانية الأخلاقية يبنى الاتحاد السوفيتى.

على هذا النحو يرى المؤلف موسكو قبل عامين اثنين من الحرب العالمية الثانية التى خرج منها الاتحاد السوفيتى قوة عظمى، وهو إجمالاً عمل دعائى لا يخفى انبهاراً بدولة كانت قبل عقدين عظمى، وقد كتب فى سياق تاريخى ونفسى قد يبرر ما ذهب إليه المؤلف.

■

عبد ربه التائه وقصائد أخرى

إبراهيم راشد

القاهرة: المؤلف، ٢٠٠٦، ٢٥٣ صفحة



قصائد من الشعر الحر ومن الشعر العمودى، بينها واحدة فى نحو ثمانين بيتاً هى تلك التى يحمل الديوان اسمها، وهى تحية لنجيب محفوظ عنوانها حرفوش الأكبر عبد ربه التائه، والتائه هو إحدى شخصيات نجيب محفوظ فى «أصداء السيرة الذاتية»، ويضم الديوان عشرات القصائد فى عدة أقسام: غيبيات، الجاذبية الأرضية، روما والقياصرة، غناء الكروان، نكديات، فروسيات، عدوانيات.

والملاحظة الأساسية على قصائد الديوان هى هذه الأخلاط التى يجمعها صاحبه بين الجدى والهزلى، والغيبى والمغرق فى الواقعية، وهى مسألة يعزوها المؤلف فى كلمة ختامية إلى تنوع الموهبة الإبداعية.

■

نحن وأمريكا بين الحضارة والهيمنة

صلاح الدين إبراهيم

القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠٠٦، ٢٣١ صفحة



يتضمن الكتاب مجموعة من الدراسات والمقالات المتعلقة بالعلاقات بين أمريكا ومصر فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١، حيث يبدأ المؤلف وهو دبلوماسى مصرى سابق من عملية خلط الأوراق التى صاحبت اعتداءات سبتمبر حتى ألصقت التهمة فى نهاية المطاف بالعرب والمسلمين كما أراد مخططو العملية والأجهزة التى تقف وراءها، وما تلى ذلك من تحولات داخل المجتمع الأمريكى ذاته والتغييرات والتعديلات التى طالت قوانين السفر والهجرة وأتاحت قدراً كبيراً من اختراق خصوصية الأشخاص وحقوقهم الإنسانية. وقد بدا للجميع أن أمريكا ما قبل اعتداءات سبتمبر ليست هى أمريكا بعدها، ليس فقط على صعيد القوانين الداخلية، وإنما - هذا هو الأهم - فى إطار علاقاتها الخارجية وتوازناتها ومصالحها، حتى إنها تبرأت تماماً من كل دعاوى الحرية التى طالما تشدقت بها ورفعتها فى مواجهة من أسمتهم بالدول المارقة. ولعل هذا بالذات هو ما يركز عليه المؤلف فى القسمين التاليين من الكتاب، إذ بدأت أمريكا محاولات جادة ومنظمة لفرض سطوتها وسيطرتها على العالم، وبسط غطاء من الهيمنة والقوة الباطشة بزعم الرغبة فى تحقيق الديمقراطية فى دول العالم التى تفتقدها، وهو ما سمح لها بتجاوز القانون الدولى وخرق مواثيق الأمم المتحدة فى عدة مناسبات، وقد مهدت مواقف المحافظين الجدد الذين بدا أنهم يلعبون دوراً متنامياً فى الولايات المتحدة فى الاتجاه بقوة نحو هذه المواقف دون كابح، وهو ما يتناوله المؤلف بالتفصيل فى عدد من المقالات.

ويكشف المؤلف فى عدد آخر من المقالات، النوايا الحقيقية لهذه الطغمة التى تحكم الولايات المتحدة الآن وتتحكم فى توجيه سياستها الخارجية، وتتحكم بالتالى فى مصير العالم، بوصفها القوة العظمى الوحيدة فى عالم اليوم.

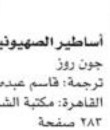
■

أساطير الصهيونية

جون روز

ترجمة: قاسم عبده قاسم

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ٢٨٣ صفحة



على العكس من حياتهم فى أوروبا والتى عانوا فيها من الرفض والحصار والاضطهاد، عاش اليهود فى المجتمع الإسلامى جزءاً من نسيجه دون ضغوط من أى نوع، ولم تبدأ المشكلة معهم إلا حين ظهرت الصهيونية إلى الوجود، بوصفها تعبيراً سياسياً عن أساطير

دينية يأتى على قمتها: أرض الميعاد وشعب الله المختار. استهدفت زرع الكيان الصهيونى فى المنطقة العربية وهو ما وجدت فيه أوروبا حلاً مثاليا لمشكلة اليهود بداخلها.

ثمانية عشر قرناً من المعاناة هى أولى هذه الأساطير التى دفعت المؤسسين الأوائل إلى القول بأنه حان وقت نهاية المعاناة بإقامة وطننا على أرضنا الموعودة. والحقيقة أن جزءاً من هذا الاضطهاد صنعه اليهود بأنفسهم. فالصيارفة والمرابون اليهود كانوا جزءاً من أزمة البارونات وملاك الأراضى وكانت خزائنهم قسماً من الخزانة الكبرى للمملكة البريطانية على سبيل المثال، ولذا عمد الصيارفة المسيحيون إلى استئصال شأفة المرابين اليهود حين حلوا مكانهم. كما أن محاكم التفتيش الإسبانية عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، كانت أكبر رمز دموى عنيف فى عمليات طرد اليهود وحتى حين انفجرت حركة الإصلاح الدينى بقيادة مارتن لوثر كينج، تحول قائدها غاضبا على اليهود بعد أن كان متعاطفاً معهم حين وجد أنهم لا يأبهون لمجادلاته.

أما أسطورة «أرض بلا شعب» التى يطلقها اليهود على فلسطين، فيكذبها ساسة اليهود أنفسهم حين يقررون أنه كانت هناك أرض جدباء مليئة بالمستنقعات لم يراعها أصحابها أو يزرعوها أو يعتنوا بها، وهو ما يعنى أن لهذه الأرض أصحاب تم استئصالهم منها حتى لو لم يكونوا مهتمين بأرضهم كما ينبغى، ومع ذلك فقد كان لصابون نابلسى وبرتقال يافا وزيتون المزارع شهرة كبيرة، وتم توزيعه على نطاق واسع فى العالم كله، وهو ما يدل على وجود اقتصاديات نشطة وراءها شعب يعمل فى الزراعة والتصنيع بعكس الادعاءات اليهودية. أما حكاية شعب إسرائيل الذى هو بلا أرض فهى بقية الأسطورة لأن اليهود الذين عاشوا فى أوروبا الغربية والشرقية وفى الولايات المتحدة لم يهللوا فرحاً حين استولت العصابات الصهيونية على فلسطين، ويقرروا الرحيل إلى «الوطن» بحسب الزعم اليهودى، بل بقى أكثرهم فى «مواطنهم» التى عملوا واستقروا بها، وكان لابد من وعود إسرائيلية بمساندة السياسات الغربية ـ الأمريكية خصوصاً ـ فى حالة مساعدة إسرائيل على تهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليها.

أما الهولوكوست اليهودى الذى لا يمكن إنكاره تاريخياً وإن رفضت المبالغات حوله واستخدامه فى عمليات ابتزاز مستمرة حتى اليوم، فإنه ليس أبشع من عمليات الإبادة والطرد والسحق التى يلاقيها الفلسطينيون يومياً على أيدى قوات الاحتلال الإسرائيلى.

هذه نوعية من الأساطير الصهيونية التى يناقشها المؤلف فى هذا الكتاب المهم.

■

سوسيولوجيا الثقافة

عبد الغنى عماد

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٣٦٣صفحة

صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية كتاب «سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والإشكاليات.. من الحداثة إلى العولمة» للدكتور عبدالغنى عماد.

سؤال الثقافة شغل السوسيولوجيين والانثروبولوجيين ولا يزال. وهم لطالما رددوا أن الثقافة هى لحظة ما بعد الطبيعة. ولأنها كذلك فهى طريقة فى معرفة الأشياء وفى إدراكها. والمعرفة والإدراك يتمان من خلال إنتاج صور ذهنية تسبغ المعنى على الأشياء والظواهر، وتؤسس معايير لفهمها من خلال ترتيب العلاقة بين عناصرها بحيث تتضح الغاية منها.

يهدف هذا الكتاب إلى طرح إشكالية الثقافة، ويستعرض أبرز المقاربات الأنثروبولوجية والأيديولوجية والسوسيولوجية التى تناولتها بالنظر والتحليل.

إنه يتوقف عند تأثرها بظاهرة العولمة والتفاعلات الحادثة والمصاحبة لها بفعل التطور الهائل على صعيد تقنيات الإعلام والاتصال عموماً. والذى ازدادت أهميته مع مطلع هذا القرن الجديد بما لا يقارن مع ما كانت عليه الحال فى القرن الماضى، ما يستوجب إعادة تحليل ظاهرة الثقافة: ودراسة كيفية اشتغال العناصر الثقافية وتفاعلها بعضها مع بعض.

■

الملاك يواجه العاصفة

مايكل نور ثكوث

ترجمة: عبدالرحمن الشيخ

القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦، ١٤٥صفحة



على الرغم من الإجماع غير المسبوق الذى أبداه الزعماء الدينيون المسيحيون لرفض الحرب الأمريكية على العراق، فقد وجدت هذه الحرب بين الزعماء الدينيين من يؤيدها، خصوصاً فى الكنائس المحافظة التى ازدهرت ازدهاراً سريعاً وفى الكنائس العملاقة فى الضواحى والأرياف، كان تأييد ملايين المسيحيين الذين رفعوا أعلام أمريكا والصقوها على نوافذ سياراتهم داعماً لنشوب هذه الحرب القذرة برغم كل الاعتراضات. وقد استغلت إدارة بوش هذا الدعم لبيع مزاعمها الكاذبة عن العراق ورئيسه «الذى يدعم تنظيم القاعدة ويملك أسلحة دمار شامل ينوى تسريبها للإرهابيين الذين يعدون لهجوم كاسح على الساحل الشرقى لأمريكا».

ولذا لم يكن مستغرباً أن تستأجر إدارة بوش كارولين بيرز خبيرة الدعاية المسئولة عن بيع الشامبو المزيل للقشرة هير آند شولدرز لتبيع الحرب ضد العراق للشعب الأمريكى، وهى الحرب التى تم التخطيط لها منذ أول يوم لإدارة بوش فى البيت الأبيض، وقد كان البحث يجرى على «علامة تجارية» لتسويق هذه الحرب، وقد وجدوها فى هذا العنوان الذى ضمن لهم دعم الشعب الأمريكى «الحرب على الإرهاب».. لقد حظى بوش بدعم حقيقى من اليمين المسيحى بوصفه زعيمهم المختار، الأخلاقى الذى يقاوم الإجهاض ويدعم القيم الأخلاقية والأسرية وأيضاً.. إسرائيل، وحين تم انتخابه، كان عليه أن يدعم أجندة اليمين المسيحى المحافظ بكل قوة، وفى الوقت الذى منع فيه التمويل الحكومى الموجه للتعليم والخدمات الاجتماعية، فقد حوله كلياً لمنظمات الخدمات الاجتماعية القائمة على أساس دينى، وهو ما يترجمه اعتقاده بأن الله اختاره ليكون رئيساً لبلاده فى هذه اللحظات الفارقة.

يكشف المؤلف فى ثلاثة فصول تحمل عناوين: سفر الرؤيا الأمريكى، ضياع الحلم، الإمبراطورية تكشف عن وجهها، عن هذا الامتزاج بين الدينى والسياسى والاقتصادى لتحقيق الحلم الإمبراطورى الأمريكى، وكيف يتم استدعاء الرؤيا لتبرير العنف المقدس وإضفاء القدسية على الإمبريالية الأمريكية الجديدة.

■

الرقابة المركزية الأمريكية على الإنترنت فى الوطن العربى

مصطفى عبدالغنى

القاهرة: العين، ٢٠٠٦، ١٧١صفحة



تراقب الولايات المتحدة كل شىء فى العالم عبر الشبكة الدولية (الإنترنت)، وسلمت شركة مايكروسوفت السلطات الأمريكية الكود الخاص بكل جهاز كمبيوتر تبيعه، مما يسهل على هذه السلطات مراقبة واعتراض الاتصالات الهاتفية العادية والجوال عبر برامج تجسس وتقنيات عالية.

وتتعدد صور الرقابة الأمريكية من تدمير المواقع التى لا تريدها بنشر الفيروسات فيها، واستخدام برامج تجسس خفية وحجب الرسائل المهمة ومحركات البحث التى لا تريدها، وكذلك السيطرة المعلوماتية الكاملة من خلال أجهزة تكنولوجية متقدمة وأدوات تنصت بالغة الدقة، وانتهاك الخصوصية بالبرامج التجسسية على الشركات والأفراد. فضلا عن أجهزة كمبيوتر مزودة بتكنولوجيا الباب السحرى بيعت لشركات فى عدة دول. وتتيح هذه التكنولوجيا للفنيين العاملين فى أجهزة المخابرات الأمريكية اختراق شبكة المعلومات على تلك الأجهزة.

هذه بعض المخاطر التى يرصدها المؤلف فى تتبعه للرقابة الأمريكية على الإنترنت فى العالم كما فى الوطن العربى من خلال فصول ستة.

■

منطق البحث العلمى

كارل بوبر

ترجمة: محمد البغدادى

بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٦، ٦٠٧ صفحات



ترجمة للطبعة الألمانية العاشرة لكتاب بوبر الشهير الذى واصل التعديل والإضافة إليه خلال ستين عاماً. وهى الترجمة الوحيدة الكاملة لهذا الكتاب لأن الترجمات الأخرى ـ بما فيها الإنجليزية الصادرة سنة ٢٠٠٢ ـ لم تشمل الملحقات والكثير من الإضافات والهوامش.

وربما تلخص مقدمة بوبر للطبعة الإنجليزية الأولى الصادرة عام ١٩٥٩ مغزى الكتاب. يقول بوبر: «إن اهتمامى بالعلم وبالفلسفة ات من رغبتى بالتعلم والدراسة لأسرار العالم الذى نعيش فيه وأحاجيه وكذلك لأسرار المعرفة الإنسانية لهذا العالم. إن إحياء الاهتمام بهذه الأسرار هو وحده الكفيل بتحرير العلم والفلسفة، من حكم المتخصصين ومن إيمانهم الخرافى والخطير بسلطة معرفة المتخصص الشخصية. إنه هو الذى يحرر من الوهم الذى يليق جيداً، ويا للأسف، بعصرنا بعد العقلانى وبعد النقدى الذى وضع على عاتقه باعتزاز تهديم الفلسفة العقلانية ومعها تقاليد الفكر».

■

أين نحن وإلى أين نتجه؟

صبري قنديل

المنصورة: أدب الجماهير، ٢٠٠٦، ٣٢٨ صفحة



نحو ٧٠ مقالاً ودراسة تمثل رؤية للواقع المصري والعربي في العقد الأخير من القرن الماضي، وهي في مجملها لا تجيب عن سؤال العنوان: إلى أين نتجه؟، لكنها تفتح آفاقًا للتفكير وسبلاً للنقد الذاتي كي يمكن مواجهة رياح الاستبداد والسلطوية والعشوائية والنفاق والانهيار الإداري والأخلاقي الذي لا تخطئه عين، وهو ما تشير إليه قراءات المؤلف في الواقع المصري معلقًا على توجهات حكومية وسياسات هدفها تكريس الأمر الواقع وتحقيق مصالح فئات بعينها. وهو حين يتساءل في مقالته: ماذا تريدون بمصر؟ يرصد هذا التناقض الفاضح بين تصريحات المسئولين عن تعمير الصحراء وزيادة المساحات الخضراء، والسلوك الحكومي الرسمي الذي أصر على طرد المهندسين الذين صدقوا المسئولين واجتهدوا وثابروا في استزراع مئات الأفدنة وكان مصيرهم هو الطرد منها. هذا مجرد نموذج يتكرر في حالات كثيرة يرصدها المؤلف وجميعها يؤكد حالة الانفصال الحاد بين الرسمي والشعبي، وأن ما يتحقق من إنجازات ليس في حقيقته سوى دعايات كاذبة. يجري هذا على صعيد الإصلاح السياسي والديمقراطي والتعليمي والإداري وكافة مناحي الحياة. ولا يبدو الواقع العربي أفضل حالاً، فحالة الانفصال بين الشارع العربي والقيادات الحاكمة جلية في مناسبات عديدة، كانت فيها ردود أفعال الشارع أكثر صدقية وتأثيرا من استجابات الحكام المقيدة بمصالح وعلاقات وتوازنات، ليس من بينها دائما الصالح العام، وإن حضرت بقوة مصالح وأطماع السلطات الحاكمة.

■

تعليم الفلسطيني في إسرائيل بين الضبط وثقافة الصمت

ماجد الحاج

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٦، ٣٣٥ صفحة



تعتبر قضية التعليم لدى الشعب الفلسطيني بشكل عام، ولدى المجتمع الفلسطيني في إسرائيل بشكل خاص، من أهم القضايا وأكثرها حساسية، فعلى الرغم من أن الفلسطينيين في إسرائيل تحولوا إلى أشلاء مجتمع، وعلى الرغم من حالة الضياع والتشرد بعد النكبة، بقيت فسحة من الأمل بإعادة بناء نسيج هذا المجتمع من خلال الاستثمار في الإنسان.

يعرض هذا الكتاب محاولة نقدية وشمولية لفهم الدور الذي يمثله التعليم الرسمي لدى المجتمع الفلسطيني في إسرائيل الذي تحول إلى أقلية قسرية في دولة إثنوقراطية. والسؤال المركزي الذي تتناوله الدراسة هو: هل يشكل التعليم آلية للتغير الاجتماعي بالنسبة إلى الأقلية، أم أنه على العكس آلية للضبط الاجتماعي والسياسي تستخدمها المجموعة المهيمنة؟ وفي محاولة للإجابة عن هذا السؤال بشكل علمي يرصد الكتاب التعليم لدى الفلسطينيين على مدى قرن واحد، أي من العهد العثماني إلى العهد الإسرائيلي مرورا بالانتداب البريطاني.

■

دوريات

الحركات النسائية العالمية

القاهرة: مؤسسة المرأة الجديدة



هذا هو العدد السادس من تلك المجلة غير الدورية التي تصدرها واحدة من المنظمات النسوية التطوعية التي بدأت عملها منذ عام ١٩٨٤، والتي تسعى إلى إقامة مجتمع ديمقراطي تختص فيه كافة أشكال التمييز ضد المرأة. يتضمن العدد دراسات بينها تعريفات مختارة للحركة الاجتماعية، وتأثير الحركة النسائية العالمية على العلاقات الدولية، والحركة النسوية في فلسطين المعاصرة، واتحاد المرأة السودانية. يتضمن العدد أيضا عروض كتب ذات علاقة بالحركات النسائية. وهذا العدد كما قال المسئولون عن المجلة في التقديم، مقدمة لعدد جديد سيصدر عن الحركات النسائية في مصر.

■

دبي الثقافية

دبي: دار الصدى للنشر



بانوراما العدد عن مدينة دبي، تلك المدينة الساحرة التي استحقت عن جدارة لقب «لؤلؤة الخليج».

أما رجاء النقاش فيكتب عن نزار قباني في الذكرى الثامنة لرحيله عن الأزمات الثلاث التي عصفت بحياته.

يتضمن العدد أيضًا تحقيقًا عن ترجمة الأدب العربي الإشكاليات والحلول وآخر عن مصطلح الإبداع النسوي، وحوار مع الشاعر العماني حسن المطروش يقر فيه بأن ثمة مافيا تهيمن على الثقافة العربية، وآخر من بيروت مع الشاعر جودت فخر الدين يطمئننا: لا خوف على مستقبل الشعر، وثالث مع المستشرق الفرنسي جان لامبرت، يبرئ فيه الاستشراق الجديد.

بالعدد أيضا تحقيق عن السينما في الأردن.

■

العربي

الكويت: وزارة الإعلام، مايو ٢٠٠٦



كاسترو كما يراه ماركيز عنوان المقالة التي يكتبها محمد كامل حسين، وفيها يحلل الأديب الكولومبي الأشهر شخصية كاسترو، وفي القسم نفسه تراث وأشخاص يكتب يوسف الشاروني عن ألفريد فرج.

وفي القسم الخاص بالفنون يكتب أشرف أبو اليزيد عن وجوه رمبرانت، ويزور يحيى سويلم لوحات غادة الكتوري، كما يكتب بشار ابراهيم عن السينما العراقية وأسئلتها المعاصرة وتكتب زينات بيطار عن فن العمارة الإسلامية في أفغانستان.

في المستقبليات دراسة للدكتور أحمد أبو زيد تحت عنوان المدينة هي المستقبل ولكن أي مدينة.

وفي حديث الشهر يتناول سليمان العسكري فكرة العنصرية وازدواجية المعايير انطلاقة من أزمة الرسوم المسيئة للرسول الكريم.

■

عالم السينما

القاهرة: جمعية نقاد السينما المصرية



العدد الأول من هذه الدورية الفصلية التي تصدر عن جمعية نقاد السينما المصرية، يتضمن حوارا مطولاً مع المخرج داوود عبدالسيد يتضمن رؤاه عن السينما وغيرها من القضايا وكتابات عن أعماله.

كما يتضمن عروضا لإصدارات سينمائية حديثة.

وفي العدد أيضا ترجمة لكتابات عن المخرج بيرناردو بيرتولوتشي صاحب التانجو الأخير في باريس والإمبراطور الأخير وغيرها من العلامات السينمائية الكبيرة.

بالعدد دراسات عن الجدل بين السينما والفنون التشكيلية وكذلك بين السينما النسوية، وأخرى عن السينما الكوميدية والنقد الاجتماعي وكذلك عن السينما السياسية.

■

A History of Modern Libya
(تاريخ ليبيا الحديث)
Dirk Vandewalle
Cambridge University Press,
260PP, $23.99, 2005



يبدا التاريخ بهذا الكتاب فى أوائل القرن الماضى، حيث يبدأ الكاتب بوصف تضاريس الصحراء الليبية، والشخصيات التى ساهمت وشكلت الشخصية الليبية، ثم يستطرد الكاتب ليغطى فترة الاستعمار الإيطالى لليبيا (١٩١١-١٩٤٣)، ثم الحكم الملكى بين عامى ١٩٥١ و١٩٦٩، وصولا إلى ثورة الفاتح بقيادة العقيد «معمر القذافى»، مستمرا فى نقاش النظام اللاحق للثورة والتطورات الأيدلوجية والسياسية والاقتصادية التى حلت بليبيا، مرورا بحالة العزلة التى مرت بها ليبيا والتى خرجت منها مؤخرا.

ليس هذا الكتاب الأول لديرك فانديوال المتعلق بالشأن الليبى، فقد كان قد ألف فى وقت سابق كتاب (ليبيا منذ الاستقلال: النفط وبناء الحالة - ١٩٩٨).

■

Impostor: How George W. Bush Bankrupted America and Betrayed the Reagan Legacy
(المحتال: كيف أفلس جورج بوش أمريكا وخان تراث ريجان)
Bruce Bartlett
Doubleday, 320PP, $26.00, 2005



المعلقون الليبراليون دائبون على التذمر دوما من ادارة بوش الحالية ولكن عندما يقول «بروس بارتليت»، أحد مسئولى إدارة ريجان السابقة، أن جورج بوش قد خان الحركة المحافظة، فان هذا يثير الاهتمام نظرا لانتمائه المحافظ. هجوم «بارتليت» على بوش ينتهى إلى مسلمة واحدة، أن بوش شخصية انتهازية، أهمل مبادئ ثورة ريجان من أجل مكاسب سياسية قصيرة الأمد ستؤدى إلى إيذاء الاقتصاد الأمريكى كما تأذى - وربما بصورة أكبر - من قبل جراء سياسات نيكسون.

يستعرض «بارتليت» فاتورة الرعاية الطبية لعام ٢٠٠٣ التى يعتبرها ناتجة عن أسوأ تشريع يمكن أن يسن فى العالم، وهى تعتبر مثالا فاضحا لارتفاع الإنفاق الحكومى والذى يجعل من ارتفاع الضرائب أمرا محتوما.

أيضا يرى «بارتليت» أن بوش اضعف من الحزب الجمهورى بإخفاقه فى تقديم وريث يستطيع المنافسة فى الانتخابات الرئاسية القادمة، كما ينتقد «بارتليت» الإدارة الأمريكية نظرا لحالة الفساد التى تؤدى إلى انتهاك مبدأ الاختلاف الذى أعلنه الحزب الجمهورى خلال الحملة الانتخابية ضد الديمقراطى «كلينتون».

الكتاب والنقد اللاذع الذى يحمله، لن تستطيع الإدارة الأمريكية تجاهله.

■

The War for Muslim Minds
(الحرب من أجل العقول الإسلامية)
Gilles Kepel
Translated by Pascale Ghazaleh
AUC Press, 336PP, $24.95, 2006



كان لتعطل عملية السلام الفلسطينية الإسرائيلية عام ٢٠٠٠ دور كبير فى بداية دوامة العنف والدموية التى كان أحد شواهدها أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وخاصة مع بداية الثورة المحافظة فى الولايات المتحدة التى أدت إلى زعزعة السياسة الأمريكية الشرق أوسطية، التى اهتمت فى تلك الفترة بالأمن الإسرائيلى، ونفط الخليج فقط.

كان لهذا أثره على الراديكاليين الإسلاميين الذين رأوا أن السياسة الأمريكية وصلت إلى الحد الذى يستوجب معه نقل ميدان العمل الإرهابى من الأراضى الإسلامية إلى الغرب فأعلن «بن لادن» ورفاقه الجهاد ضد أعدائهم عالميا.

«كيبل» يتحرى، فى هذا الكتاب، تأثير الإرهاب العالمى والعمليات العسكرية التى تتبعه، ويشكك بقدرة الولايات المتحدة على مواجهة هذا التحدى على طريقة خطابات الحرب الباردة، كما يقترح مخرجا لمستنقع الشرق الأوسط يخدم مصالح أطراف النزاع، الإسلاميين والغرب والنخبة العربية والإسلامية الحاكمة، محددا شروطا لقبول إسرائيل، ولتطبيق الديمقراطية فى المجتمعات العربية والإسلامية، موصيا الغرب بمحاولة الفوز بقلوب وعقول المسلمين.

■

Precious Egypt
(مصر النفيسة)
Matthias Seidel And Regine Schulz
AUC press, 608PP, 34.95$,2006



دليل شامل عن مصر، يركز على التاريخ المصرى والآثار القديمة، مليئا بالرسوم التوضيحية، والنصوص المطعمة بالمعلومات المفيدة.

الكتاب يجلب المواقع الأثرية بين يديك، يظهر جمالها وأهميتها، محتويا على ما يقرب من ٦٠٠ رسم توضيحى و٦٠ خريطة، بالإضافة إلى مخططات مختلفة، وملحق شامل يزودك بكل المعلومات المساعدة، مقسم جغرافيا من الإسكندرية إلى أبو سمبل.

يحتوى أيضا الكتاب على مقالات عديدة عن مواضيع ثقافية وتاريخية، بالإضافة إلى حسابات الوزن والمقاييس، وحسابات التقويم، وملحق عن الآلهة المصرية القديمة.

■

America, Islam, and the War of Ideas
Reflections in a Bloodshot Len
(أمريكا، الإسلام وحرب الأفكار)
Awrence Pintak
AUC Press, 394PP, $29.95, 2006



الصحفى المخضرم ومراسل أخبار السى بى إس السابق «لورانس بينتاك» يتعرض فى هذا الكتاب للاختلاف الأساسى فى الفهم بين الأمريكان من جانب والمسلمين من جانب آخر، الذى يعتبره نتيجة طبيعية للانقسام الدائم منذ قرون والعلاقة التضادية السائدة.

يرى «بينتاك» أيضا أن الإعلام المسيطر عليه من قبل أجهزة الدولة على الجانبين، كان سببا فى تفاقم المشكلة، فالقادة والزعماء على الجانبين على السواء لا يعرفون أو لا يفهمون كيف تؤثر كلماتهم على مصير العالم بشكل عام على المدى الطويل.

الكتاب يستكشف كيف يصور الإسلام بوسائل الإعلام الأمريكية، وكيف تتعرض وسائل الإعلام العربية والإسلامية لأمريكا وسياستها، وكيف يؤثر سوء الفهم والتحريف الذى تقوم به وسائل إعلام الجانبين إلى كوارث كبرى.

■

Disciples of Passion
(توابع الانفعال)
Hoda Barakat
Translated by Marilyn Booth
AUC Press, 148PP, $17.95, 2006



العواطف المتاخمة والتالية للحرب الأهلية اللبنانية التى تطارد كل لبنانى عاش وعايش الحرب، تظهر فى رواية «هدى بركات»، التى تدور أحداثها حول شاب لبنانى مر بتغيرات جذرية بشخصيته كنتيجة طبيعية للحرب، مشاعره المختلفة، التى نتجت عن مروره بتجربة الاختطاف، ثم تم إبداله فى عملية تبادل الرهائن، تعرضه لإصابة أدت إلى احتجازه بالمستشفى، أماكن ما عادت كما يعرفها وتعود عليها، إعادة حسابات علاقته بامرأة على دين آخر يحبها.

الحرب الأهلية اللبنانية، وكيف شكل الدمار والعنف شكلا مختلفا لحياة شعب همش فى نزاع ليس له معنى، هو ما تتعرض له «هدى بركات» فى روايتها.

رواية عربية لهدى بركات ترجمتها «ماريلين بوث» إلى الجمهور القارئ بالإنجليزية.

■

Software Security : Building Security In
(أمن البرمجيات: بناء الحماية)
Gary McGraw
Addison-Wesley Professional, 448PP, $49.00, 2005



«عندما يأتى الأمر لأمن البرمجيات، فالشياطين تسكن فى التفاصيل، وهذا الكتاب يعالج التفاصيل» هكذا علق «بروس شنيير» رئيس مجلس إدارة شركة (Counterpane) لأمن الانترنت، على هذا الكتاب، الذى يأتى مليئا

مجلة الأستاذ

حنفى ونديم

«ح» أنت يا سيدنا عملت كدا ليه كل جمعة نقول إياك يفتكرنا بكلمتين ويتحفنا بعبارتين نلاقيك ماسك فى العضمة الخشنة ونازل على عيون الخاينين والمنافقين، بقى ما فيش لنا خاطر عندك والا الفقرا يروحوا فى داهية. «ن» أنت يا معلم حنفى لم تزل على جهلك، آرى حنيفة تكلمنى بكلام طيب موزون وأنت تقول ما فيش وليه وتتكلم بالكلام العامى مع أنك صاحبتنى من مدة أذهنك أضعف من ذهن حنيفة؟ يمكنك أن تتكلم بالكلام البلدى فى عبارة لطيفة تعجب الجاهل والعالم ولا يعيبك فيها أحد. فجاهد نفسك وقلدنى فى الكلام تكن من صف اللطفاء. «ح» أنا وحياتك يا سيد أقدر أكلمك بكلام مليح يعجب السلطان وإنما الإنسان آخذ على الكلام مع الجهلة فغلب عليه كلامهم. وإلا أنا دائمًا أسمع الجرائد وأفهم عبارتها. «ن» ومن أين تأتيك الجرائد؟ «ح» أنا والمعلم عفيفى والمعلم بيومى والحاج يوسف والحاج دسوقى عملنا جمعية واشتركنا فى جملة من الجرائد واستأجرنا كاتبًا يقرأها لنا. «ن» حيث إنك تقرأ الجرائد فقل لى على ما رأيته فيها وأخبرنى عن الجريدة الطيبة والجريدة الرديئة لأتحقق انتفاعكم بها من عدمه. «ح» أول ما اشتركنا اشتركنا فى الأستاذ لكون كلامه على قدر عقولنا ولما اتسع فهمنا رأينا المؤيد ماسكاً على الجد وماشيًا مع الأستاذ فى طريق واحد فاشتركنا فيه ورأيناه يخدم الوطن بنية خالصة ويكتب الفصول العجيبة ويدافع عن حقوقنا بقوة قلب. وبعدها التفتنا لقينا النيل ينادى بصوت رقيق فاشتركنا فيه فوجدناه من المجتهدين فى خدمة الوطن الساعين فى تهذيب الناس وحفظ الحقوق العثمانية.

بالتفاصيل ومعالجا لكل دقائق أمن البرمجيات.

مؤلف الكتاب يعمل كاستشارى لأمن البرمجيات لعدة شركات عالمية، كما يعمل مستشارا لقسم البرمجيات وتكنولوجيا المعلومات لأربع جامعات أمريكية، مما يجعله مؤهلا للخوض فى تفاصيل أمنية لم يخض فيها أحد من قبل.

لست بحاجة إلى تعديل نظام عملك جذريا كى تحافظ على أمن برمجياتك، الكاتب يعطيك النقاط التى يجب عندها وضع عوامل الأمن والحماية فى الاعتبار، كما يعطى إطارا كاملا وآلية العمل على إدارة المخاطر التى تجابه أمن البرمجيات، كما يوضح العديد من نقاط الاختبار والتحليل لمدى كفاءة البرمجيات لمواجهة المخاطر التى تهددها.

■

Crazy

(المجنـــــون)

Pete Earley

Putnam Adult, 384PP, $25.95, 2006



«بيت ايرلى» الصحفى المخضرم، يحقق فى هذا الكتاب عن جرائم المرضى النفسيين، متناولا حالة ابنه «مايك» المريض عقليا والذى ينفذ حكما بالسجن إثر اقتحامه شقة احدهم لأخذ حمام فقاعات، ونتجت عن هذا الاقتحام أضرار واسعة بالشقة، وتمت محاكمته كمجرم وليس كمريض بمرض عقلى وذهنى يستوجب العلاج، مما أدى إلى معاقبته بالسجن. يمضى «ايرلى» فى كتابه مضطربا اضطرابا واضحا بين كونه أبا للحالة التى يدرسها وكونه صحفيا مخضرما يتناول الموضوع بواقعية مجردة من المشاعر.

ساعد «ايرلى» على السير فى رحلته، استطاعته الدخول إلى سجن مقاطعة ميامى الامريكية لما يقرب من عام كامل مؤديا لعمل روتينى، فسنحت له فرصة مقابلة العديد من السجناء والتحدث معهم، كما تحدث مع عائلاتهم وأطبائهم، ومحاميهم.

جمع «ايرلى» المعلومات التى توصل إليها جميعا، ثم حلل أسباب جرائم المساجين والأمراض النفسية والعقلية التى يعانون منها، إلى أن وصل إلى النتيجة النهائية، ليوضح كيف تحولت سجون الولايات المتحدة إلى مستشفيات نفسية جديدة.

■

The Wealth of Networks

(ثروة الشبكات)

Yochai Benkler

Yale University Press 528PP, $40.00, 2006



«مع التغيير الجذرى فى منتجات المعلومات الذى أدى إليه ظهور الإنترنت، فنحن نقف عند نقطة تحول مهمة». هكذا قال «يوتشى بنكلر» فى هذا الكتاب المثير للفكر. فمع تطور تكنولوجيا الشبكات وتطبيقها فى العديد من المجالات، ظهرت نقلة واضحة فى الأداء والفاعلية للمجالات التى تتعامل مع تطبيقات تكنولوجيا الشبكات.

يصف الكاتب أنماط المعلومات، والمعرفة، والتغيرات الثقافية المواكبة للتطور الشبكى، ومدى تأثير ذلك على التطور فى منتجات تكنولوجيا المعلومات ككل. كما يرى إن ما يحدث حاليا من نتاج ربما يعيد تشكيل شكل السوق، كما يرى أن الفرصة سانحة لتحسين أمور مثل الحرية الفردية والتنوع الثقافى والحديث السياسى والعدالة كنتيجة لتطور الشبكات.

■

Overthrow : America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq

(الإسقاط)

Stephen Kinzer

Times Books, 400PP, $27.50, 2006



للإدارة الأمريكية سوابق كثيرة على مدار القرن الماضى فى تغيير أنظمة الحكم وإسقاطها حول العالم، بدأت تلك السياسة بهاواى عام ١٨٩٣ عندما تآمر البيت الأبيض مع الأقلية البيضاء بهاواى من أجل إسقاط حكم الملكة «ليليووكالانى»، كخطوة لضم الجزر وجعلها جزءا من الولايات المتحدة الأمريكية.

تلا هاواى العديد من الدول الأخرى، فالولايات المتحدة أحبطت حركة الاستقلال فى كوبا، بورتيريكو، الفلبين

ونيكاراجوا. كما قامت بإخراج العديد من الحركات السرية والانقلابات فى إيران، غواتيمالا، جنوب فيتنام، وتشيلى، كما غزت جرينادا، بنما، وبالطبع افغانستان والعراق. على مدى العقود الأحد عشر الماضية نشرت الولايات المتحدة قواتها فى جميع أنحاء العالم، لتضع يدها على الموارد الطبيعية فى العالم.

■

Dongola
A Novel of Nubia
(دنقلة «رواية نوبية»)
Idris Ali
Translated by Peter Theoroux
AUC Press, 126PP, $16.95, 2006



«إدريس على» الكاتب النوبى المثير للجدل، وروايته «دنقلة» المثيرة للجدل بدورها، التى صاحب صدورها عام ١٩٩٣ موجة من الغضب لدى العديد من المثقفين المصريين الذين رأوا فيها دعوى انفصالية لإقليم النوبة الواقع فى الجنوب المصرى . كما أثارت الرواية، على الجانب الأخر، سخط العديد من النوبيين الذين رأوا فيها تطاولا على تقاليدهم الاجتماعية، وهذا الغضب والسخط والجدل هو الذى دفع مؤلفها إلى محاولة انتحار لم تشأ الأقدار نجاحها.

الرواية تدور حول «عواد شالالى» العامل النوبى البسيط، الذى يحلم بعودة دنقلة، عاصمة النوبة فى القرون الوسطى، التى تستقر الأن فى قاع بحيرة ناصر الناتجة عن السد العالى، فأيام دنقلة كان النوبيون فى قمة مجدهم، كانت لهم السيطرة على صعيد مصر بأكمله، واشتهر رماة الرمح فى جيشهم بدقتهم الشديدة فى المعارك، وكان يطلق عليهم «اللماحون».

«حليمة» زوجته تتعامل مع حقيقة النوبة هذه الايام، الفقر المدقع، فرجال مثل عواد يأتون إلى القاهرة هذه الأيام من أجل فرص عمل بأجر ضئيل، بينما تبقى نساؤهم فى البيت لا يجدن شيئا يفعلنه.

الأرض المفقودة، والأحلام المستحيلة، آلام عواد وحليمة ومعاناتهم، ذكاء «ادريس على» وإحساسه وأصله النوبى، ساعده فى صياغة هذه الرواية بحرفية عالية وإحساس صادق.

■

The Lost Oases
(الواحات المفقودة)
Hassnein Bey .M .A
Introduced by Michael Haag
AUC Press, 2006, 330PP, 29.95$



أحمد حسنين الدبلوماسى المصرى، الذى قام برحلة استكشافية (١٩٢٣) على ظهر جمل منطلقا من ساحل البحر المتوسط غرب (مرسى مطروح) باتجاه واحة (سيوة) متوغلا جنوبا فى الصحراء المصرية الليبية، متخذا بحر الرمال الأعظم كحد شرقى له. رحلته التى استمرت ثمانية أشهر وصولا إلى (العبيد) بالسودان التى تبعد عن نقطة البداية بـ ٢٢٠٠ ميل، قادته إلى اكتشاف واحات لم يكن أحد يعرف عنها شيئا، مثل واحة (العوينات). أصيب «حسنين» بالدهشة حينما وجد بالعوينات نقشا على الصخور يتضمن رسوما لحيوانات مثل الأسود والزرافات والنعام والغزلان، فى دليل واضح على وجود إنسانى مزدهر قبل عشرة الاف سنة فى تلك المنطقة من الصحراء الجرداء، كما تؤكد أن تلك الصحارى كانت يوما ما خضراء.

■

Fiscal Sustainability in Emerging Markets
(الثبات المالى فى الأسواق الناشئة)
Ahmed Galal And Nadeen Ulhaque
AUC Press, 304PP,$24.50, 2006



تعودت حكومات الدول النامية على الاقتراض من أجل إنجاز أهداف مرغوبة اقتصاديا واجتماعيا، ولكن مشاكل الاقتراض تبدأ فى الظهور ما أن يبدأ معدل سداد الديون فى التناقص، ويزداد معدل الاقتراض، وذلك ينتج عن إنفاق سيئ فى غير محله، أو عن تصلب فى دائرة المدفوعات والأرباح الحكومية.

الكتاب يعير انتباها خاصا إلى السياسة المالية المصرية، وعلى قضايا مثل إدارة الدين، وخدمة الدين، الإنفاق العام.

■

كتاب الزاوية



مجلة الأستاذ

التشخيص العربى

سرّنا تقدم هذا الفن الجليل فى هذه الأيام وارتقاؤه إلى درجة لا تنحط عن درجة التشخيص الغربى وسرّنا أيضًا ما رأيناه من إقبال الجمهور عليه وارتياحهم إلى تقدمه ونجاحه فقد كان تياترو شارع عبدالعزيز فى ليلة الجمعة الماضية غاصًا بالناس على اختلاف طبقاتهم لحضور تمثيل رواية محاسن الصدف. وهى رواية بديعة نالت من القبول أوفر نصيب من تأليف صديقنا الفاضل «محمود أفندى واصف» ولقد أجاد المشخصون كل الإجادة وأبدعوا غاية الإبداع ولا سيما حضرة المتفنن البارع الشيخ سلامة حجازى فقد خلب القلوب بحسن تشخيصه وشنف الأسماع بدرر أنغامه.

وقد قام فى وسط هذه الحفلة حضرة الخطيب البليغ الفاضل إسماعيل بك عاصم وخطب فى موضوع هذا الفن وشهد لهذا الجوق الوطنى المصرى بالتقدم والبراعة وحض الناس على مؤازرته والإقبال عليه ثم دعا صديقنا مؤلف الرواية للكلام فقام وارتجل خطابًا فى فضل التشخيص ومنفعته للهيئة الاجتماعية وحرض الناس على الأخذ بما فيه تقدمه وارتفاع شأنه.

ولقد تكرمت الحضرة الفخيمة الخديوية بتياترو الأوبرا الأعظم على جناب النبيه سليمان أفندى حداد ليشخص فيه خمس روايات. فباشر العمل وانتهى إلى الآن من تشخيص ثلاث منها قام المشخصون فى كل واحدة منها بما استلفت الأعين وأجرى الألسن بامتداح اقتدارهم والثناء على رئيس الجوق فنسأل الله تعالى أن يوفق الجميع ويمن عليهم بنعمة الإقبال.

رسائل وآراء

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء، مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الارهـــاب الأمـــنـــى

لقد قرأنا بمزيد من الحزن والحسرة على حرية الفكر والرأى ما نشرتموه بمجلتكم الموقرة فى عددها الصادر مارس ٢٠٠٦ تحت عنوان «الإسلام والآخر» وهى المحاضرة التى كان من المقرر أن يلقيها الأستاذ الدكتور محمد سعيد البوطى الأستاذ بجامعة دمشق فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة فى يناير ٢٠٠٦.

وأسباب الحزن والحسرة هو أننا علمنا أن هذه المحاضرة لم تر النور لأن جهات أمنية طلبت إلغاءها وقلتم أن هذا المنع ليس هو المرة الأولى من الجهات الأمنية وإنما سبق أن منعت هذه الجهات إلقاء محاضرة للكاتب الأمريكى «نورمان فنكلشتين» أحد المثقفين اليهود والمعروف بعدائه الشديد للصهيونية.

ولقد قرأنا نص المحاضرة واستمتعنا بما فيها من معلومات قيمة وحزنا على ما يحلو لنا تسميته «الإرهاب الأمنى». هذا الإرهاب الذى لا يميز بين الغث والسمين فى الفكر والرأى. وقد جاءت المحاضرة رسالة عملية لكل متعصب أو متطرف فى الديانات السماوية الثلاث وفى وقت نعانى فيه من بذور فتنة طائفية كفانا الله شرها وقد عشنا فى إحدى قرى الأقصر «حادثة العديسات» بين طرفى الأمة وعرفنا منها كم نعانى من إرهاب أمنى حسب قول البعض وعايشنا أحداث الكشح من سنوات سابقة. ونحن من جانبنا نطمع فى أن يكون لهذه الجهات المانعة فكر راق وثقافة عالية. فهذه المحاضرة - وليس دفاعاً عن صاحبها فضلاً عن أننا لا نملك ولا نستطيع بمعلوماتنا الضعيفة - أن نقيمها - إلا أنها وبحق مفخرة وسرد موثق لسماحة الإسلام مع الآخر ويكفى ما جاء فيها بالحرف الواحد «أن وجود التآلف والقربى بين الديانتين هدف مقدس ترمى إليه الشريعة الإسلامية وتوظف لذلك كثيرا من الأحكام الفقهية التى يعرفها الفقهاء.. وفى موضع آخر يقول صاحبها:

«فلما استجاب عمر بن الخطاب لرغبة أهل إيليا ودخل القدس وكتب كتاب الصلح المعروف أقبل إلى الأتربة يزيحها بردائه فأقبل من حوله المسلمون وغيرهم يسابقونه إلى ذلك ثم اتجه إلى القمامة المتراكمة بفعل اليهود ويوحى من الرومان فوق مكان كنيسة القيامة فباشر إزاحة القمامة عنها بنفسه وما هو إلا أن أقبل كل من كانوا حوله يسابقونه على العمل ذاته».

ونحن نسأل هل مثل هذا القول يمنع بحجة أسباب أمنية لا يعلمها إلا الله وهى الشماعة التى تعلق عليها كل أسباب الكوارث. إن ما تحدث عنه القرآن الكريم عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام وملكة سبأ هو القول الفصل وليس لنا بعده قول عندما سألت ملكة سبأ قادة الأمن عندها عن رأيهم فى خطاب سيدنا سليمان عليه السلام الذى يدعوها للإسلام فكان ردهم «نحن أولو قوة وأولو بأس شديد» عند هذا الحد ينتهى دور هؤلاء القادة، أما أن يطلب منهم أكثر من ذلك فلا نلوم إلا أنفسنا.

بدوى أبو شنب

محام - الأقصر

■ ■ ■

كل الشكر والتحية للجهات الأمنية التى طلبت إلغاء محاضرة د. محمد سعيد البوطى - الإسلام والآخر - والتى كان من المقرر إلقاؤها بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة - لأنه لولا إلغاؤها من قبل الجهات الأمنية - لما تيسر لنا كقراء مجلة «وجهات نظر» الاطلاع على نص المحاضرة بعدد مارس ٢٠٠٦ - حيث كان سيقتصر سماعها على نخبة من الأكاديميين والباحثين - وكما قال كاتبها د. البوطى «لا ريب أن الخيرة كلها فيما اختاره الله»... ولا أدرى وآلاف غيرى من القراء لماذا المصادرة المسبقة على الفكر؟ هل لأن المحاضر أكاديمى ومفكر إسلامى؟ أم ماذا؟ - يكفينا - كقراء - أكثر من دلالة فى سياق المحاضرة التى نشرت من قبلكم للكاتب - تؤكد أن التاريخ شاهد كيف استخدم الدين لتحقيق أغراض ومصالح سياسية من قبل فئة معينة؟ ويكفى أن الإسلام كمنهج حافظ على حرية المعتقد وحمايته للشعوب التى خضعت للحكم الإسلامى - كما استشهد د. البوطى بما قاله د. إدمون رباط.

وأعود للسؤال المطروح فى البداية: إلى متى سيظل الهاجس الأمنى مسيطراً على عقلية الأنظمة العربية؟ والفضاء الواسع - الآن - يعج بكل صنوف المعرفة الطيب منها والخبيث.

سعيد الرفاعى

العمار الكبرى - قليوبية

تبسيط مجتمع المعلومات

لقد استمتعت بمقالة الأستاذ سلامة أحمد سلامة «نون» «رحلة إلى طهران»، ورغم معرفتى أننى لست فى مقام التقييم لتلك المقالة إلا أننى لا أتحرج مع ذلك أن أقول إنها خلابة بكل المقاييس، فيها الفكرة والرؤية الثاقبة مغلفة بالحس الأدبى مما يجعلها قادرة على انتزاع عقل القارئ من أى أمر آخر اللهم إلا من قراءتها ثم إعادة قراءتها.

وبالنسبة لمقالة الأستاذ جمال محمد غيطاس بعنوان: «هل يعرف العرب مجتمع المعلومات؟» العدد السابع والثمانون - السنة السابعة - أبريل ٢٠٠٦ الصفحة ٦٢ يقرر الكاتب أن العرب غادروا نقطة البداية فى تعاملهم مع عصر المعلومات.. ورغم قسوة إعلان هذه الحقيقة إلا أنها الواقع الحقيقى لنا بالفعل والتمام ولقد قرأت المقالة مرتين على يومين وأنا فى قمة الاستمتاع، أحمد الله عز وجل على أنه يوجد بيننا من يرشدنا إلى حقيقة وضعنا حتى ننتبه ونفيق.. وقد كان أسلوب الصفحة الأولى مفهوماً واضحاً بل ومريحاً ولكن للأسف بدءاً من الكلام عن الثلاث ثورات (الثورة المعلوماتية، ثورة التغيير داخل المجتمعات، وثورة العقل الجمعى) والعقل المعلوماتى الجمعى إلى فكرة التناقضات السبع.. لقد كان الكلام والمعنى يحتاج إلى تبسيط يأتى عن طريق الشرح الواسع وأنا أعرف ضرورات مساحة النشر.. ولهذا جاءت المقالة تؤكد أن من يحسها ويستمتع بها لابد أن تكون لديه فكرة لا بأس بها عن التعامل مع المعلومات واسترجاعها والاحتفاظ بها.

مرة أخرى أكتفى بأن أقول إن الفرد المصرى أو المواطن العربى فى حاجة - هى بالتحديد - أن يتناول الأستاذ الكاتب جمال محمد غيطاس كل عنوان فرعى بدءاً من الزاوية الأولى ص ٦٢ إلى التناقضات السبع بكل متناقض فيها ويكتب فى كل عنوان مقالة شارحة.. هذا أملى لأننى شديدة الإيمان وعظيمة الرغبة فى أن أتعلم وأفهم ما المقصود والأكثر حتى أكون على دراية عند جلوسى أمام الكمبيوتر بفهم وتفسير كثير من الكلمات والمصطلحات التى أقرأها أو يصبها فى أذنى من يتولى توجيهى على أساس إننى التى طلبت منه ذلك.. إن مقالة واحدة مكثفة لن تكفى أى فرد للحاق بثورة عصر المعلومات العاتية.

أشكركم مرتين الأولى لما تكتبون فى «وجهات نظر» مجلتى الحبيبة والمحبوبة، لأنى أحس من خلال سطورها أننى أعيش وأننى على دراية ومعرفة بما حولى والمرة الثانية لأنى استبحت من وقتكم فترة ليست بالقليلة فى قراءة سطورى المتواضعة. وأؤكد أخيراً على ضرورة أن تُولى «وجهات نظر» اهتماماً دائماً وشهرياً للكتابة عن هذه الإشكالية وهى مجتمع المعلومات.. وفجوة العقل على ألا تزيد المقالة على صفحتين فقط.

د. جيلان حمزة

٤ أ ش ١٦ المعادى - السرايات

ذكريات عن آدم حنين

طالعت بشغف واهتمام مجلة «وجهات نظر» التى نجحت فى تبوؤ مكان متميز لدى القارئ والمثقف العربى وملأت فراغا طالما عانى منه بافتقاده للمعالجات العميقة المتروية فى خضم وزحمة الأخبار وردود الفعل الإعلامية اليومية التى تصاعدت وتعقدت نتيجة التطورات السريعة والأخطار المحيطة بمنطقتنا العربية وأدت خدمة جيدة فى طرحها لمضامين كتب ودراسات أجنبية وعربية فى مرحلة تستوجب الانفتاح على العالم ومتابعة اتجاهات مفكريه التى تؤثر وتتأثر بمجريات الأمور فى بلادنا. وكان لإبراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب دور يستحق التنويه فى صدور هذه المجلة وتخفيف الاعتماد الكلى للمثقف العربى على المجلات الأجنبية استكمله بجهد طيب لإنجاح التواجد العربى بمعرض الكتاب الدولى بفرانكفورت والانفتاح على سوق النشر العالمية وتشجيع الترجمة والنشر.

ولقد أتاحت المجلة الفرصة لكبار المفكرين العرب لطرح أفكارهم ورؤيتهم استنادا إلى كتبهم ودراساتهم وفتحت أبواب «نون» لسلامة أحمد سلامة و«قراءة» لأيمن الصياد المجال لمناقشات سياسية واجتماعية أكثر شمولا وعمقا وزادها ثراء الاهتمام بكتب ومقالات تعرف بالمبدعين العرب المعاصرين فى مجال الفن والثقافة كان من بينها التعريف بالفنان المبدع آدم حنين من خلال كتاب أصدرته «دار الشروق» عنه أثار فى نفسى موجة من الذكريات قد تتعلق ببداية تكوينه الفنى وانطلاقه نحو العالمية التى استحقها بجدارة، إذ سمحت لى ظروف دراستى للقانون الدولى بجامعة ميونخ ورئاسة اتحاد الطلاب العرب بألمانيا بالتعرف على الفنان الذى وصل إلى عاصمة الفن والثقافة الألمانية «ميونخ» فى نهاية الخمسينيات فى بعثة لاستكمال مشواره الفنى بدراسة فى أكاديمية الفنون الجميلة بها وتذكرته شابا هادئا دمثا تعلو وجهه ابتسامة، ألقاه أحيانا فى مطعم الجامعة لنأكل سويا الوجبة الطلابية الألمانية التقليدية المكونة من البطاطس والسلطة والشوربة ونسعد بإضافة قطعة دجاج إليها أيام الثلاثاء وشريحة سمك يوم الجمعة ونعانى من قلة الخبز وماء الشرب الذى تعودنا على مساندته للوجبات فى مصر. وكان يحضر معنا أحيانا اجتماعات اتحاد الطلبة العرب لنناقش مساندة الثورة الجزائرية ودعم كفاح الشعب الفلسطينى وكان حديثه دائما من منطلق إنسانى يتألم لما يلاقيه البشر من ظلم وقهر وآلام فى ظل الاستعمار ويعتز بجذوره وارتباطه بحضارة وتاريخ بلاده وبنتاج وأعمال الفنان والنحات المصرى القديم التى اعتبرها تعبيرا عن إنسانيته بعد أن وصل مجتمعه إلى قمة الحضارة.

وازداد إعجابى واهتمامى به عندما علمت أن أكاديمية الفنون الألمانية كاستثناء وخلافا للمعتاد قد خصصت مرسما خاصا للفنان المصرى ضمن قاعاتها تقديرا لأعماله وطلبت أن أزوره فى منزله لتهنئته على هذا التكريم المشرف للطلبة العرب فقابل طلبى بتردد وحرج وإن لم يستطع بدماثته رد طلبى وتوجهت فى اليوم التالى مع زميل من رئاسة اتحاد الطلبة إلى مقر إقامته فى حى الفنانين بمدينة ميونخ المسمى «شفابينج» لنصل إلى منزل تقليدى قديم يقيم فناننا الموهوب فى غرفة طلابية على السطح لم نستطع دخولها لصغر حجمها الذى لا يضم سوى سرير ودولاب وطاولة صغيرة ولا يستطيع أحد الولوج إليها إلا بالقفز فوق السرير أولا وهو المكان الذى يرتدى أو يخلع فيه الفنان ملابسه عند ذهابه أو عودته من المرسم وضحكنا واكتفينا بشرب الشاى فى قهوة طلابية بأسفل المنزل.

وفوجئت بعد شهور قليلة بمقال مطول فى صحيفة «سود دويتشه تسايتونج» أهم صحف الولاية عن معرض للفنان المصرى آدم حنين فى واحد من أهم دور العرض بالحديقة الملكية Hofgarten لمعروضات متميزة من النحت مشكلة من الطين وتذكر بشكل قوى بالخطوط الأساسية للنحت والتماثيل الفرعونية الخالدة وشاهدنا المعرض المكون من تماثيل صغيرة نسبيا من الطين أو الصلصال لا تعكس زخارف وبهرجة وألوانا صاخبة ولا تكوينات من مدارس الفن الحديث التكعيبية أو السريالية، بل وحدات متكاملة لاصقة بالأرض فى ثبات لافت للنظر وانطلاق للتكوين فى شموخ معبر يذكر فعلا بكتل النحت الفرعونية المتماسكة لتطرح فكرة واحدة جذرية مبسطة هى الإنسان والتصاقه بالأرض والطين الذى خلق منها.

قد لا يعلم الكثيرون أن آدم حنين لم يكن اسمه الحقيقى المسجل فى شهادة ميلاده، بل هو اسم اختاره الفنان فى فترة نضوجه الفنى واختياره هذا الاسم لنفسه هو فى حد ذاته دلالة على فلسفته وفكره ونتاجه الفنى الذى انعكس فى جل أعماله فاختياره لاسم آدم (أبو البشر) مفهوم فلسفى وجودى يعنى أنه لا قيمة لأى اختلافات عرقية أو لغوية أو مادية أو فى الشكل والمظهر بين البشر فكلهم آدم وصفتهم الأساسية هى الإنسانية فاختار اسمه الأول ليعلن أنه مجرد إنسان وواحد من البشر. واختياره لاسم «حنين» كالاسم الثانى له أيضا دلالة فلسفية وجودية بمعنى اعتقاده أن الصفة الإنسانية الأساسية هى الحنان بمعناه الواسع الذى يشمل الحب والسلام وقبول الآخر والإخاء. وكل ما تعارض مع ذلك فهو مخالف للطبيعة الإنسانية التى خلق عليها البشر. ولا شك أن هذه النظرة والفلسفة كانت ذات تأثير قوى فى نتاجه فى النحت والتصوير معبرة عن إنسانية مطلقة يترجمها خياله وحسه المرهف إلى أعمال فنية لا ترتبط بالزمن والاختلافات بين البشر. ولم يكن من المستغرب على آدم حنين بعد النجاحات المتتابعة لمعارضه فى ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وتقدير النقاد لإبداعاته وعالمية فنه أن يعود إلى القاهرة ليعيش فى منزل بناه من الطين فى منطقة الحرانية المطلة على أهرامات الجيزة وسقارة كسليل وامتداد لأجداده الفراعنة وفنانيهم ونحاتيهم من أبناء الفلاح المصرى الذى طالما ارتبط بالأرض وطينها الذى خلقه منه الإله وعاش من خيراته وانتهى إليه مشواره بعد انتهاء دوره فى الحياة.

ولفت نظرى اهتمام آدم حنين والجداريات المصرية القديمة وروايته أنه بدأ حياته الفنية فى مرحلة الطفولة بتشكيل تمثال من الصلصال لأخناتون بعد زيارة مدرسية للمتحف المصرى. اختار الطفل الموهوب أخناتون من بين المئات من تماثيل الآلهة والفراعنة بالمعرض.. الفرعون الذى قضى حياته فى البحث عن أصل الوجود وحقيقة الكون وجوهر الإنسان حتى انتهى إلى فكرة التوحيد وتميز عصره فى مجال الفن والنحت والتصوير بثورية رفعت القيود عن الفنان المصرى لينطلق فى واقعية وتجريد يعكس الجوهر الإنسانى بعد أن كان مقيدا بمعايير تطالبه بأن يعكس الكمال والسلطة والجمال فى تصويره لتماثيل الفراعنة والآلهة. وهو ما نشاهده فى الجداريات والتماثيل بالمتاحف التى تصور إخناتون مع زوجته وأبنائه وفى عباداته بشكل واقعى وإنسانى، وما نلمسه فى نشيد اخناتون الذى يتناول مظاهر الخلق والمفعم بالحب والحنان.

لقد درس آدم حنين وتمكن من تقنيات النحت والتصوير واستوعب مدارسها الحديثة واستفاد من ذلك دون أن يؤثر أو يغير ذلك من نظرته الأساسية لفنه كتعبير عن ثبات الصفة الإنسانية كأولوية لاحقة بالأرض واعتبر فنه امتدادا للفنان المصرى القديم الذى مازالت أعماله تبهر العالم بلا منافس.

فتحية إلى فناننا الإنسان الكبير الذى يستحق فى بلده ووطنه كل تقدير واعتزاز بعد اعتراف العالم الخارجى بعبقريته وقدراته ومكانته الفنية وقبل كل شىء إنسانيته المبدعة والخلاقة.

السفير حمدى عزام

أيمـــــن الصيـــــاد

سيف القوة.. وميزان العدل

«المواطن».. يحمل السكين

■ ■ لا يهم أبداً إن كان هذا «المواطن» الذي يبدو في الصورة يحمل السكين أمام كنيسة سكندرية مسلماً أو قبطياً. كما لا يهم أبداً اسمه الثلاثي أو محل سكنه أو رقم بطاقته «القومية». إذ يظل هذا كله من باب التفاصيل التي قد تهتم بها جهات التحقيق الجنائي أو القضائي أو في «ضمائر البشر».

المهم أن هذا «المواطن» الذي خرج إلى الشارع مستنفراً يحمل سكيناً ليس عضواً في تنظيم متطرف يستهدف أتباع الدين الآخر، كما كان الحال - أحياناً - قبل ١٩٩٩. وإنما هو «مواطن» عادي استقر في يقينه (وهذا لب المشكلة) أنه لن يتسنى له دفاعاً عن نفسه، أو وصولاً إلى حق «يتصوره» إلا بالقوة والعنف.. والسكين.

كيف وصلنا إلى هنا؟!

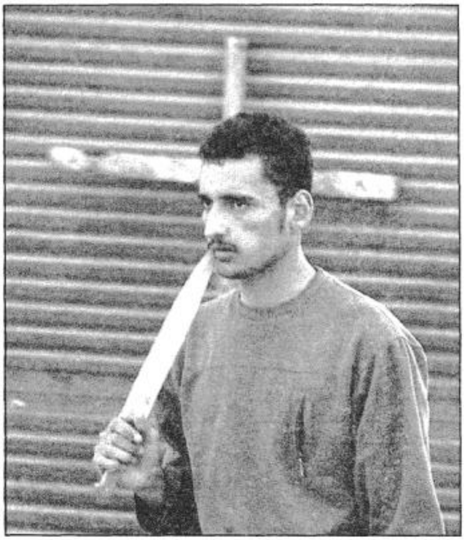
لابد أن نعرف - أولاً - أننا نعيش حالة من التوتر (المجتمعي لا الطائفي فقط) لن تهدئه هراوات الأمن المركزي، كما لن تخفيه - مهما تكاثفت - غازاته المسيلة للدموع.

ولابد أن نعترف - ثانياً - أن هناك احتقانات - وإن أنكرنا - تحت كل جلد. وهناك سيف صار - وإن غفلنا - قريباً من كل يد.

ولابد أن نقلق - ثالثاً - حين نلحظ أن هناك من لم يدرك، أو لعله لا يريد أن يصدق أن عود الثقاب أصبح أقرب:

١ - مما نظن.

٢ - من أي وقت مضى.



© «المصري اليوم» - تصوير: عمرو عبد الله

كان لا أحد يريد أن يرى النار تحت الرماد. رغم أن تمرد الأمن المركزي (١٩٨٦) إذا ما كنا نذكر - ويجب أن نذكر - لم تسبقه إشارة، كما لم يكن بحاجة إلى تنظيم وكوادر و«البيان الأول».. ولكنه في نهاية المطاف، أو في نهاية «المفاجأة» جاء بالدبابات إلى الشوارع.. وبالقلق إلى النفوس.

■ ■ ■

كيف وصلنا إلى هنا؟!

ألا تذكركم هذه الصورة، وهذا السكين اللامع بصورة مشابهة نشرت هنا قبل أشهر (ديسمبر الماضي) لما جرى على أبواب اللجان الانتخابية من بلطجة سافرة غير مسبوقة؟

يومها مارس الجميعُ العنف.. ربما. ولكن تبقى الدولةُ إذا مارست أو تواطأت أو غضت الطرف.. (وقد فعلت). المسؤول الأول.

يومها لم يدرك أصحاب قرار اللجوء إلى «الهراوة والسكين» لضمان الأغلبية خطورة أن يشيع في المجتمع مفهوم: أن القوة / العنف هي السبيل «الوحيد» لكي تصل إلى هدفك (حقاً كان أو باطلاً).

ويومها لم يفكر بعضهم كثيراً قبل أن يصرح في الصحف «الرسمية» بأن أحكام القضاء التي صدرت عشية الانتخابات «لن يعتد بها».. هكذا(!) غير مدرك خطورة أن يتعمق لدى المواطن العادي شعور باليأس من اللجوء إلى التقاضي «سبيلاً سلمياً لحل المنازعات».. وغير مدرك أنه عندما تغل يد القضاء في رد المظالم لأصحابها يصبح الأمن الاجتماعي مهدداً. كما يصبح مفهوم الدولة ذاته في خطر.

وأيضاً يومها - ولحسابات انتخابية ضيقة - لم يتورع البعض في الترويج لحالة من «الفزع» لدى أقباط هذا الوطن، بعد أن نجح عدد من الإسلاميين في الوصول عبر صناديق الاقتراع إلى البرلمان. حتى حزب الدولة المفترض أنه المسؤول «بأغلبيته» عن لحمتها الشعبية، بدا يومها وكأنه أوكل مهمة «إثارة الفزع» المقدسة إلى بعض إعلامييه المفضلين.

يومها حذرنا من الزج بالأقباط في مزايدات السياسة، ومن العزف المستمر على وتر التخويف وإثارة الفزع، والذي بدا في تصاعد نشاز أصدائه وكأن هناك من يدعو كل «مواطن» إلى أن يضع سكيناً تحت وسادته.. تحسباً.. وترقباً.

ويومها - وأيضاً لحسابات أمنية قصيرة النظر - أجهض «أصحاب القرار» أكثر من محاولة (بعضها بالمصادفة سكندري) لتفاهم إسلامي مسيحي أساسه «المواطنة». كان قد بادر بها أولئك الذين أزعج البعض وصولهم للبرلمان، وكان من شأنها - لو اكتملت - أن توجد مناخاً «أفضل» من ذلك الذي امتلأت في أجوائه الخانقة والضاغطة شوارع المدينة الساحلية الهادئة بالمتحفزين والغاضبين.. و«السكاكين».

■ ■ ■

لماذا صرنا هاهنا.؟

يخطئ من يعتقد أن ما جرى في الاسكندرية «محض شأن طائفي». كما يخطئ من ينظر إلى صورة «السكاكين» المشرعة أمام كنيسة القديسين بمعزل عن المشهد السياسي العام المسكون بالعنف و«اليأس».

ربما كلنا مسؤولٌ بشكل أو بآخر عن مناخ السكاكين المشرعة. ولكن.. نكرر: تبقى الدولةُ - بحكم التعريف - إذا تورطت أو تواطأت أو غضت الطرف «اعتداداً بالسلطة، أو عزة بالاثم».. المسؤول الأول. وإلا بماذا نسمي هذه المعارك الرسمية «الخشنة» مع القضاة والصحفيين والطلاب والمهنيين على اختلاف نقاباتهم. و بماذا نسمي ما ورد في تقرير المجلس «الرسمي» لحقوق الإنسان عن اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وعن حالات مؤكدة للتعذيب، وعن أحكام للقضاء تجاهلتها السلطات واعتبرتها «محض حبر على ورق».

و بماذا نسمي إغلاق نادي أعضاء هيئة التدريس بجامعة الإسكندرية «بالجنازير» لمنعهم من عقد جمعيتهم العمومية، رغم حكم القضاء بقانونية الاجتماع؟ أليس في ذلك بلطجة و«سكيناً» ترفعه سلطة الدولة أو بعض دوائرها في وجه أكاديميين جامعيين.

ثم بعد كل ذلك - أو بالأحرى في القلب منه - بماذا نسمي إحالة قضاة «كبار» للتحقيق، لا بتهمة الرشوة أو التربح أو استغلال النفوذ، وإنما - لكونهم طالبوا بكشف حقيقة ماجرى في الانتخابات البرلمانية الأخيرة. وهل مهمة القضاء «تعريفاً» غير كشف الحقيقة.؟!

لماذا في مصرنا التي عرفت «الدولة» قبل آلاف السنين، علا سيف القوة على ميزان العدل؟

هانحن نرفع «سكين» الترهيب في وجه القضاة. وهو أمر مهما فرح بعضنا بنتائجه الآنية ستكون «الدولة»، ومفهومها ذاته الذي يستند بالتعريف إلى «النظام»، ومن ثم إلى «مهابة القانون وأصحابه» أول الضحايا.

■ ■ ■

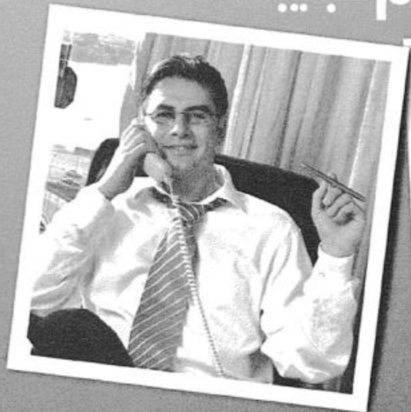
وبعد.. فقد ينتصر «سيف القوة»: وهي معقودة للدولة بما لديها من سلطة مطلقة على «ميزان العدل»: ولا شيء غيره في يد القضاء. ولكن النتيجة النهائية ستبقى أخطر كثيراً مما يراه قصيرو النظر: «جميعاً سنخرج خاسرين». فعندما يتأكد للجميع أن «القوة فوق العدل» سيبحث الناس عن حقوقهم وعن أمانهم في السكاكين والخناجر والسيوف.

أرجوكم تأملوا الصورة جيداً. ■

خدمة الأرقام المميزة

اختار أرقام حبايبك





كلم ماما فى طنطا

وخالو فى هولندا

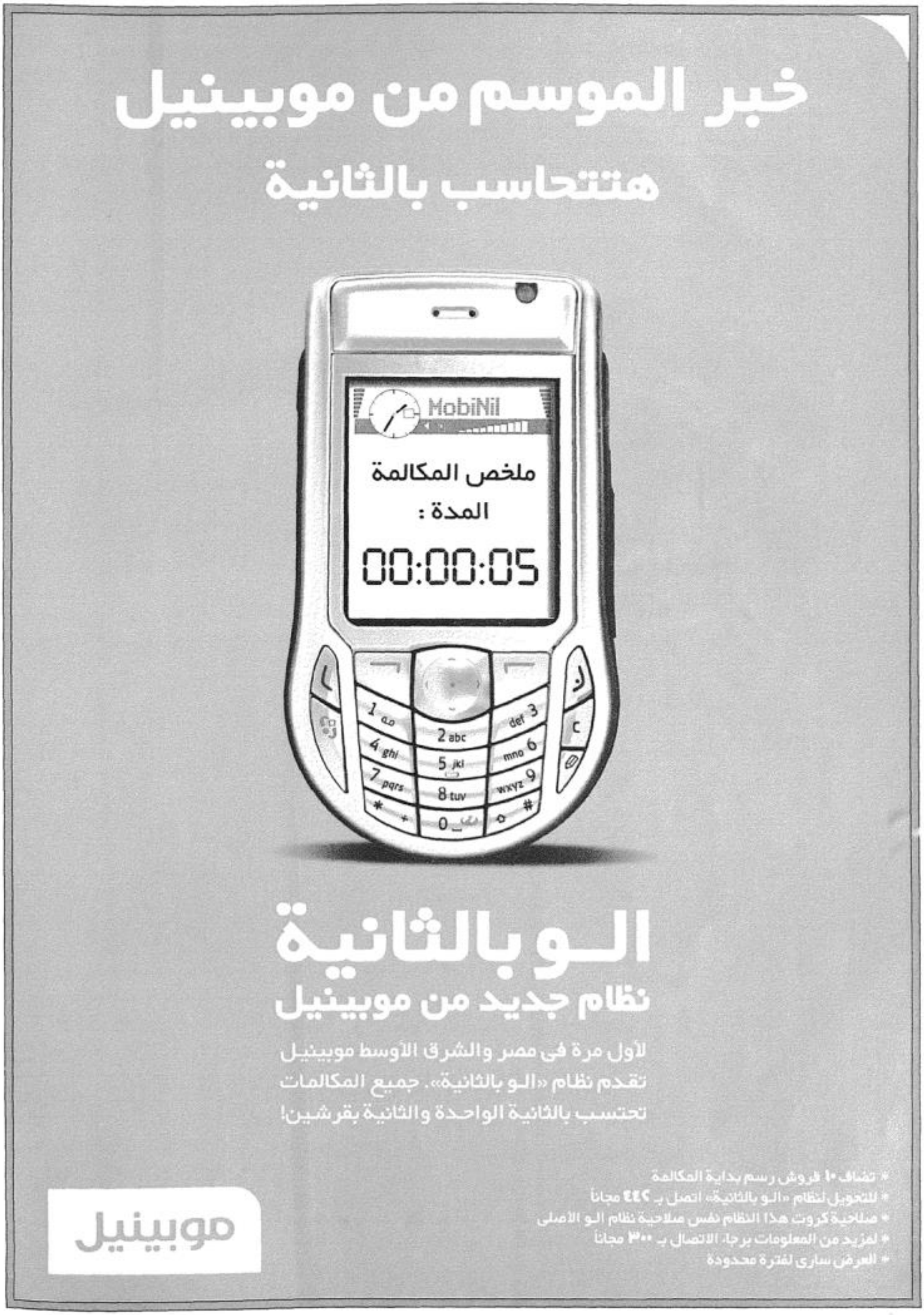
ووفر ٢٠٪

على سعر المكالمة

كلم حبايبك كتير.. وما تقلقش عالفواتير

المصرية للاتصالات
Telecom Egypt

الخدمة متاحة بجميع السنترالات
لمزيد من المعلومات اتصل بـ ١١١
www.telecomegypt.com.eg



خبر الموسم من موبينيل
هتتحاسب بالثانية
MobiNil
ملخص المكالمة
المدة :
00:00:05
الـو بالثانية
نظام جديد من موبينيل
لأول مرة فى مصر والشرق الأوسط موبينيل
تقدم نظام «الـو بالثانية». جميع المكالمات
تحتسب بالثانية الواحدة والثانية بقرشين!
* تضاف ١٠ قروش رسم بداية المكالمة
* للتحويل لنظام «الـو بالثانية» اتصل بـ ٤٤٢ مجاناً
* صلاحية كروت هذا النظام نفس صلاحية نظام الـو الأصلى
* لمزيد من المعلومات برجاء الاتصال بـ ٣٠٠ مجاناً
* العرض سارى لفترة محدودة
موبينيل